الجمهورية العربية الليبية
وزارة التربية والإرشاد القومي

مُقتطفات من كتب الأدب العربي

الجزء الأول

للسنة الثانية الثانوية

القسم الأدبي

من الحيوان ، والبيان والتبيين ، وطبقات ابن سلام ، والشعر والشعراء ، وطبقات ابن المعتز ، والكامل ، والعقد الفريد .

تأليف

طه حسين
عبد السلام هارون
علي البجاوي
ابراهيم الابياري

دار المعارف بمصر

الجمهورية العربية الليبية

وزارة التربية والإرشاد القومى

مقتطفات من كتب الأدب العربى

الجزء الأول

للسنة الثانية الثانوية

القسم الأدبى

من الحيوان ، والبيان والتبيين ، وطبقات ابن سلام ، والشعر والشعراء ، وطبقات ابن المعتز ، والكامل ، والعقد الفريد

تأليف

طه حسين

عبد السلام هارون

على البجاوى

ابراهيم الابيارى

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ ع ٠ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا هو الجزء الأول من كتاب « مقتطفات من كتب الأدب العربى » عمدنا فيه إلى أمهات هذه الكتب ، واخترنا من كل كتاب فصولا ، ثم قدمنا لها بمقدمة تعرف بالكتاب وبصاحبه .

وجعلنا هدفنا أن تكون هذه الفصول مناسبة ، وأن تكون ممثلة لمنهج كل كتاب وطريقته ؛ لنصل الطلبة بهذه الذخائر الأدبية . ونذلل طريقهم إليها ، ونحببهم فيها ، ونعودهم فهم عباراتها ، والتمرس بها ، والإفادة منها .

وها هو ذا يجمع فنونًا من الأدب ، وألوانًا من النقد ، عرضناها كثيرة متنوعة ؛ ليجد فيها كل دارس بغيته ومتعته .

المؤلفون

مقتطفات

من كتاب الحيوان

للجاحظ

١٥٠ – ٢٥٥

كتاب الحيوان

للجاحظ

تعريف بالجاحظ :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، الملقب بالجاحظ . سمّى بذلك لأنّ عينيه كانتا جاحظتين ، أى بارزتين .

وُلد الجاحظ بالبصرة سنة ١٥٠ وعاش بالعراق زمانًا طويلا فى عصر زاخر بالعلوم والفنون والأدب ، وتلقى العلمَ على شيوخ البصرة والكوفة ، منهم أبو عبيدة ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو الحسن الأخفش ؛ كما كان شيخه فى علم الكلام أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام . وكان يقصد أحيانًا إلى « المِرْبد» وهو موضعٌ كان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من البوادى للتجارة وتبادل السلع ؛ كما يلتقى فيه الشعراء والرُّجاز والخطباء والرّواة والنسابون ، فيعرضون نتاج أفكارهم وروائع آثارهم على شيوخ النقاد وصيارفة الأدب .

وأتيحت للجاحظ فرصةُ الاطلاع على كتب الفلاسفة والأطباء والمتكلمين ، كما لم تخلُ ثقافته من عناصر يونانية وفارسية . قال أبو هِفّان : « لم أرَ ولا سمعتُ من أحبّ الكتبَ والعلومَ أكثر من الجاحظ ؛ فإنه لم يقعْ بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان » . وأتمّ الجاحظ ثقافته كذلك برحلته إلى دمشق وأنطاكية وغيرهما من البلاد .

ثم رحل إلى بغداد وهو فى الخمسين من عمره واتخذها له مقامًا ؛ وكان ذلك فى عصر المأمون سنة ٢٠٤ وتصدّى للتعليم والمناظرة فقصده الأدباء والعلماء ، وأمّه الطلاب من كل صَوْب .

ولما ذاع فضله ، وانتشر صيته ، وعرفت مؤلفاته ، أقبلتْ عليه الدنيا ، وصارت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة فى كل شهر . وولى ديوان

الرسائل في عهد المأمون ، ولم يمكث به إلا ّ ثلاثة أيام ثم بادر إلى الاستعفاء والاعتذار ؛ زهداً منه فى قيد الوظيفة ، وإيثاراً للحرية والعافية .

وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك بن الزيات ، وزير المعتصم ، وإليه أهدى كتاب « الحيوان » فكافأه بخمسة آلاف دينار .

وفى أواخر عهد الخليفة المتوكل مرض الجاحظ ؛ وظل مفلوجاً نحو ثمان سنوات بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٥ . قال تلميذه أبو العباس المبرد : عُدت الجاحظ فسمعته يقول : أنا من جانبى الأيسر مفلوج ، فلو قُرض بالمقاريض ما علمت ، ومن جانبى الأيمن منقرس[١] ، فلو مر بى الذباب لألمت . أشد ما علىّ ست وتسعون سنة ! يعنى عمره .

وما زال فى علته تلك حتى وقعت عليه مجلدات العلم ، فكانت خاتمة حياته سنة ٢٥٥ فى أيام الخليفة المعتز بالله .

كتب الجاحظ :

عاصر الجاحظ ثلاثة عرفوا بكثرة التأليف ، أحدهم أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى (١١٠ — ٢٠٩) الذى بلغت مؤلفاته مائة مؤلف وخمسة .

والثانى أبو الحسن على بن محمد المدائنى (١٣٥ — ٢٥٥) ، وقد ألف نحو مائتين وأربعين مصنفاً .

والثالث هشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٦ ، وله نحو مائة وأربعين مؤلفاً .

وكان للجاحظ فى هؤلاء الرهط أسوة وحافزٌ فى المسابقة والمنافسة ، إلى ما وهب له الله من لَسَن واقتدار ، ومن ذكاء خارق نفاذ ، وذاكرة فى العلم قوية ، وولوع بالمعرفة والتبين ، إلى ما وهب له الله من عمر مديد فى دولة ناهضة ، فأخرج للمكتبة العربية زُهاء[٢] ثلثمائة وستين مؤلفاً فى ضروب شتى من العلم . وقد فُقد الجمهورُ الأعظم منها بفعل عوادى الزمن ، وآثار الحروب المدمّرة .

---

(١) أى مصاب بداء النقرس ، وهو ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين.
(٢) زهاء : قدر .

صنع الجاحظ هذه الكتبَ جميعًا ، ولم يكن همه همّ غيره من المؤلفين فى الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان منهجه أن يبتكر وأن يأتى بالطريف ، وأن يخلق للناس بديعًا ، يمسح على جميعها بالدُّعابة والهزْل ، ويُشيع الفكاهة فى أثناء الكلام ؛ فجمع بذلك قلوب الدارسين إليه .

ويُعد الجاحظ طليعة الأدباء الذين مزجوا الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية .

وطرَق الجاحظ فى كتابته أبوابًا عجيبة ، وتقرّب إلى العامة ، وحرص أشدّ الحرْص على استرضائهم . ولم ينسَ فى ذلك أن يستميل إعجابَ الخاصة فى المعارف العالية ، والسياسات الرفيعة . وفى ذلك يقول أبو الفضل بن العميد « كُتب الجاحظِ تعلم العقل أوّلاً والأدب ثانيًا » .

ويقول عبد الله بن حـَمود الزُّبيدى الأندلسى : « رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عوضًا عن نعيمها » .

ويقول الجاحظ : « ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمرَ به وصرتُ إليه — وكان قد أمر البريدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى — : قد كان بعض من نرتضى عقله ونصَدّق خبره خبرنا عن هذه الكتب ؛ بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت : قد ترْبى [1] الصفةُ على العِيان ؛ فلما رأيتها رأيتُ العيان قد أربى على الصفة ، فلما فلَيتها أربى الفـَلىُ على العيان ، كما أربى العيان على الصفة » .

أشهر كتبه :

أشهر كتبه كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، ورسالة التربيع والتدوير .

كتاب الحيوان :

سبق اليونانيون أسلافنا العرب إلى التأليف فى علم الحيوان ، وألفوا فى ذلك

---

(١) تربى : تزيد .

كتباً ، منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ، ذكر فيه طبائعه ومنافعه ، وكتاب الحيوان لأرسطاليس ، نقله ابن البطريق قديماً من اليونانية إلى العربية ، كما ترجم حديثاً إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية وغيرهما .

ونستطيع أن نقول : إن الجاحظ أول واضع لكتاب عربيّ جامع فى علم الحيوان وقد كان قبله فى عصره محاولات شتى لطائفة من العلماء يتحدّثون فيها عن الحيوان ، منها كتاب الإبل للسِّجسْتانى والأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم ، وكتاب الخيل لابن الأعرابى وأبى عبيدة وابن الكلبى ، وكتاب الوحوش للأصمعى وأبى زَيد والسجستانى ، وكتاب الطير للسجستانى والنضر بن شُميل ، وكتاب النحل والحشرات للسجستانى ، وكتاب النحل والعسل للأصمعى .

وهذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمى الخالص ، وإنما أريدَ بها أن تكون باحثةً فى اللغة أولا ، فهى بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له . فهى لاتبحث فى طباع الحيوان وخصائصه بحثاً ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه ، وأحواله وعاده ، وإنما تجعل همها الأول والثانى هو اللغة .

أما الجاحظ فكتابه ينطق بالقصْد العلمى التفصيلى للحيوان جميعاً ولكل مملكة من ممالكه ، ولكل جنس من أجناسه . وهو فضلٌ للجاحظ على جميع مَنْ سبقه أو عاصره ممن كتب فى الحيوان ، وإن كان قد أعوزه بعض الترتيب والتهذيب ، فذلك شأن كل كتابة جديدة فى أمر متشعب الأطراف ممدود النواحى .

مراجع كتاب الحيوان :

اعتمد الجاحظ على أمور خمسة رئيسية فى تأليف كتابه :

أولها : الينبوع الذى لا ينضب من القرآن وحديث الرسول .

والثانى : وعليه كان أكثر اعتماده : الشعر العربى . فالشعر العربى وخاصة البدوى منه قد تحدّث فى الحيوان حديثاً طويلاً ، تحدث فى الأنيس منه ولم يهمل الوحشى ، بل جَمع بين هذا وذاك . فالعرب تحدثوا عن الإبل فى شعرهم وأسهبوا الكلام ، تحدثوا فى نعتها فلم يَذروا دقيقة من دقائقها ، وتكلموا فى حملها

ونتاجها ، ورَأمها[١] وحنينها ، وحلبها ، وألبانها وألوانها وأنسابها ، وأصواتها ودُعائها ، ورعيها وشربها ، وسيرها وسُراها .

وكان لهم فى الخيل نعت مفصل ، وعناية بمثل ما اعتنوا به فى الإبل .

ووَفوا كذلك لكلابهم وشأنهم ، ولا تكاد تجد قصيدة معدودة للعرب إلا وللحيوان الأنيس فيها شأن .

أما الوحشيات — وفلوَاتهم مواطن غنية بها — فلم يُغفلوها ، ونطق شعرهم بالأسد والنمر ، والذئب والثعلب وغيرها . وذكروا من الطيور النسور والعِقبان والرّخم ، والحِدأ والقطا والحَجل .

والجاحظ يرى أن العرب — والأعراب منهم خاصة — قد ثَقِفوا معرفة الحيوان ، وبَرَعوا فى ذلك البراعَة ، واستوعبوا حاله وعاده . وفى ذلك يقول :

« وقلّ معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه فى أشعار العرب والأعراب » .

وهو يُظهر السبب فى جودة معرفة الأعراب للحيوان بقوله :

« وربما ، بل كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب ، واللدْغ واللسع ، والعض والأكل ؛ فخرجتْ بهم الحالُ إلى تعرّف حال الجانى والجارح والقاتل ، وحالِ المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلبُ والهرب ، وكيف الداء والدواء ؛ لطول الحاجة ، ولطول وقوع البصر » .

وللجاحظ ثقة تامة بالشعر العربى ، فهو يصدّره فى الرد على أرسطو ويحتج به عليه . قال بعد أن سرد قولَ أرسطو فى عقوق العقاب : « هذا قول صاحب المنطق فى عقوق العقاب وجفائها لأولادها . فأما أشعار العرب فهى تدل على خلاف ذلك ، قال دُرَيد بن الصّمة :

وكل لجوج فى العنان كأنها ... إذا اغتمست فى الماء فَتْخاء[٢] كاسرُ
لها ناهض[٣] فى الوكر قد مهدَت له ... كما مهدَت للبعل حسناء عاقر

(١) رئمت الناقة ولدها : عطفت عليه ولزمته .
(٢) الفتخاء : من العقبان اللينة الجناح .
(٣) الناهض : فرخ الطائر الذى بسط جناحيه وتهيأ للطيران .

والمادة (الثالثة) من مواد الكتاب : هى كتاب الحيوان لأرسطو الذى يلقبه الجاحظ بصاحبِ المنطق . وقد نقل عنه الجاحظ نصوصًا ليست من الكثرة بمكان ، ولكنها من القيمة والنفاسة بمكان عظيم . وقد تعرض كثير من هذه النصوص لنقد الجاحظ . وأحيانـًا يعتذر عنه بأن المترجمين لم يحسنوا النقل ولم يتوخـَّوا الدقة والمطابقة فهو يقول : « ولعل المترجم قد أساء فى الإخبار عنه » ويقول : « فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين وأحاديث السماكين ، وإلى ما فى كتاب رجل — يعنى أرسطو — لعله إن وجدَ هذا المترجمَ أن يـُقيمه على المِصطبة[١] ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته » .

والمادة (الرابعة) من مواد الكتاب : هى تلك المحاولة وذلك الكلام الذى ولـَّده المعتزلة ، وقد دفع بهم ذلك التيار العارم إلى مواطن شتى من نواحى الحِجاج والجـَدل . وكأنما خلق الله كل رجل من أهل الاعتزال لسانـًا دائب التصرف والعمل ، فهم إن فرغوا من الكلام فى الصفات والخالق ، وفى التعديل والتجوير[٢] وفى الوعد والوعيد ، فزعوا إلى الكلام فى السانحة والخاطرة ، وفيما يبدو للعين أنه دقيق مـَهينَ .

والكتاب معرِض طريفٌ لهذه المنازعات الكلامية ، ولا سيما الجزأين الأول والثانى منه ، فكثيراً ما يجد القارئ : « قال صاحبِ الكلب » و « قال صاحبِ الديك » و « قال صاحب الحمام » .

ويبدو أيضًا أنه كان فى عصر الجاحظ نزاع كلامىّ خاصّ فى المقايسة بين الكلب والديك ، يتقدم الفريقَ الأول أبو إسحاق إبراهيم النظام ، ويتزعم الرهط الآخر معبد .

كما أن بعضَ الناس كانوا ينظرون إلى هذا النمط وإلى هذا الضرب من الجدل يتداوله اثنان من رؤساء المتكلمين بعين التعجب والاستنكار . وقد ردّ عليهم الجاحظ ردًّا مسهبًا صدَّره بقوله :

« فإن قلتَ : وأىّ شىء بلغَ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرغ

---

(١) المصطبة : بناء مرتفع يجلس عليه .
(٢) التعديل والتجوير : أى الكلام فى نسبة العدل والجور إلى الخالق . والجور : الظلم .

لذكر محاسنهما ومساويهما والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما ، شيخان من عِلية المتكلمين ، ومن الجِلة المتقدمين » !

ثم هو ينشئ بعد ذلك دفاعاً صادقاً يستغرق نحو عشر صفحات ، وفيه يحاول أن يقول : إن البحث فى شأن الحيوان ضربٌ من ضروب التعبد ، ولون من ألوان البحوث الدينية التى تنتهى بصاحبها إلى معرفة عظمة الله ، وعظم ما أبدع وبرأ.

والمادة (الخامسة) من مواد الكتاب : هى تلك الخبرة الشخصية ، وذلك الولوع الذى كان يدفع بصاحبنا إلى السؤال ممن يتوسم فيه العلم . وكان بطبعه شعبيًّا ، مع أنه كان مقربًا نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء، فهو قد جالس الملاحين مراراً وسمع من أحاديثهم . فمن ذلك قوله : « وسمعتُ حديثاً من شيوخ ملاحى الموصِل وأنا هائب له ورأيت الحديث يدور بينهم » .

وهو يتحدث مع صائد العصافير ويقول : « وخبرنى من يصيد العصافير » .

وأحيانًا يخالط الحوّائين ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى . وفى ذلك يقول : « وشكا إلىّ حوّاء مرةً فقال : أفقرنى هذا الأسودُ ومنعنى الكسب ، وذلك أن امرأتى جهلت فرمت به فى جونةٍ (١) فيها أفاعٍ ثلاث أو أربع ، فابتلعهن كلّهن — وأرانى حيةً منكرة » .

قيمة كتاب الحيوان :

لا يعرف فضلَ هذا الكتاب إلا منْ نظر فيه طويلا ، وتناول نواحيه بالدرس والتبين .

وقد يُوهِم اسمه أنه قد خصّص بالحيوان وما يمتُّ إليه بسبب ، ولكن الحقّ أن الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسى المتشعبة الأطراف .

فقد حوى الكتاب طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية ، كما تحدث فى سياسة الأقوام والأفراد ، وكما تكلم فى نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

---

(١) الجونة : بضم الجيم : سلة صغيرة مغشاة بالجلد .

وتحدث الكتاب فى كثير من المسائل الجغرافية ، وفى خصائص كثير من البُلدان ، وفى تأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والشجر ، كما تناول الحديث فى الأجناس البشرية وتباينها ، وعرَض لبعض قضايا التاريخ .

وفيه كذلك حديثٌ عن الطب والأمراض : أمراض الحيوان والإنسان ، وبيانٌ لكثير من المفردات الطبية ، نباتيها وحيوانيها ومعدنيها .

وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب ، وأحوالهم وعاداتهم ، ومزاعمهم وعلومهم ، كما أفاض القولَ فى آى الكتاب العربى وحديث الرسول العربى ، وكما فصّل بعض مسائل الفقه والدين .

والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حُرّ الشعر العربى ونادره ، وناهيك باختيار أبى عثمان . وإن أردت الأمثال فهو قد جمع لك منها القدر الكبير ، أو أحببت الحديث فى البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاح إليه نفسك وتطمئن .

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرتْ فى الكتاب نثراً ، وإنها لتطالعك بين الفَيْنة والأخرى ، متمثلة فيما يروى من نادرة ، أو يحكى من قصّة .

وأما المجون فلا عليك أن تمرّ به لتظهرَ لك ناحيةً من النواحى التى غلبت على كثير من متأدبى عصر الجاحظ التى لم يكن فيها حرجٌ حينئذ ولا خشية .

مختارات من كتاب الحيوان

١

نعت الكتاب

لم أرك رضيتَ بالطعن على كلّ كتابٍ لى بعينه ، حتى تجاوزتَ ذلك إلى أن عبتَ وضعَ الكتب كيف دارت بها الحال ، وكيف تصرفتْ بها الوجوه . وقد كنت أعجبُ من عَيبك البعضَ بلا علم حتى عبتَ الكلّ بلا علم ، ثم تجاوزتَ ذلك إلى التشنيع ، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نَصب الحرب ، فعبتَ الكتاب ونِعم الذُّخر والعقدة[١] هو ، ونعم الجليس والعدّة ، ونعم النشرة والنزهة[٢] ، ونعم المستغَل والحرفة . ونعم الأنيس ساعةَ الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل .

والكتابُ وعاءٌ ملىء علماً ، وظرفٌ حشى ظرفاً ، وإناءٌ شحن مزاحاً وجِدّاً . إن شئتَ كان أبينَ من سحبان وائل ، وإن شئتَ كان أعيا من باقل[٣] وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره ، وإن شئتَ عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتكَ طرائفه ، وإن شئتَ أشجتَكْ مواعظه . ومن لك بواعظ مُلْه ، وبزاجر مُغر ، وبناسك فاتك[٤] وبناطق أخرس ، وببارد حارّ .

ومن لك بطبيب أعرابىّ ، ومن لك برومىّ هندى ، وبفارس يونانىّ ، وبقديم مولَّد ، وبميت ممتّع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأول والآخِر ، والناقِصَ والوافر ، والخفىّ والظاهر ، والشاهد والغائب ، والرفيعَ الوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضدّه .

---

(١) العقدة ، بالضم : مايكتفى به الإنسان من ملك خاص .

(٢) النشرة : الرقية يعالج بها المريض .

(٣) سحبان وائل : خطيب كان يضرب به المثل فى الفصاحة . وباقل : كان يضرب به المثل فى العجز عن البيان .

(٤) الفاتك : من الفتك ، وهو المجون .

وبعدُ فمتى رأيتَ بستانا يُحمل فى رُدْن[١]، وروضةً تُقَل[٢] فى حِجْر، وناطقًا ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلاّ بما تهوى، آمَن من الأرض، وأكتم للسرّ من صاحب السرّ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة.

وعبتَ الكتابَ ولا أعلم جاراً أبرّ، ولا أعلم خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضعَ، ولا صاحبًا أظهرَ كفايةً، ولا أقلّ إملالا وإبرامًا[٣]، ولا أحفَلَ أخلاقًا، ولا أقلّ خلافًا وإجرامًا، ولا أقلّ غيبةً، ولا أبعد من عَضِيهة[٤]، ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا، ولا أقلّ تصلفًا وتكلفًا[٥]، ولا أبعدَ من مِراء[٦]، ولا أتركَ لشغَب، ولا أزهدَ فى جدال، ولا أكفّ عن قتال من كتاب.

٢

ضرورة العناية بتنقيح المؤلفات

وينبغى لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلاّ على أنّ الناسَ كلَّهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدعَ كتابه غُفْلا[٧]، ولا يرضى بالرأى الفَطير[٨] فإنّ لابتداء الكتاب فتنة وعُجبًا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط[٩]، وعادت النفس وافرة أعادَ النظر فيه فيتوقفّ عند فصوله توقف مَنْ يكون وزنُ طمعه فى السلامة أنقص

(١) الردن : أصل الكم .
(٢) تقل : تحمل .
(٣) أبرمه : أضجره وامله .
(٤) العضيهة : الكذب والبهتان .
(٥) التصلف : التملق والتكلف .
(٦) المراء: الجدال ، ماراه يماريه ، مماراة ومراء.
(٧) الغفل : أصله مالاعلامة فيه، والمراد به الخالى من التنقيح والتهذيب .
(٨) الفطير : الذى لم ينضج بعد .
(٩) أخلاط البدن : أمزجته الأربعة ، وهى الصفراء ، والسوداء والبلغم ، والدم.

من وزن خوفه من المعيب ، ويتفهم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديث تغرُّ القومَ خلوته   حتى يلجّ بهم عيٌّ وإكثارُ

ويقف عند قولهم فى المثل : « كلّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسر [١] » ، فيخاف أن يعتريَه ما اعترى من أجرى فَرسه وحده ، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه وأهل المنزلة من أهل صناعته .

٣

ضرورة الاجتماع

ثم اعلم — رحمك الله تعالى — أنّ حاجةَ بعض الناس إلى بعض صفةٌ لازمة فى طبائعهم ، وخلقةٌ قائمةٌ فى جواهرهم ، وثابتةٌ لا تُزَايلهم ، ومحيطة بجماعتهم ، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم . وحاجتهُم إلى ما غاب عنهم — مما يُعيشهم ويُحييهم ويمسك بأرماقهم [٢] ، ويصلح بالهم ويجمع شملهم ، وإلى التعاون فى درك ذلك والتوازر عليه [٣] — كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق [٤] بأمورهم التى لم تغبْ عنهم . فحاجةُ الغائب موصولة بحاجة الشاهد ، واحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى ، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى . معانٍ متضمَّنة ، وأسباب متصلة ، وحبال منعقدة .

وجعل الله حاجتَنا إلى معرفة أخبار مَن كان قبلنا كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا ، ولذلك تقدّمت فى كتب الله البشارات بالرسل .

ولم يسخر لهم جميعَ خلقه إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه . وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قِوام وقوت ، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازدياد فى الآلة وفى كلّ ما أجذَل النفوسَ وجمع لها العتاد [٥] . وذلك المقدارُ من جميع الصنفين

---

(١) المجرى : الذى يجرى دابته .
(٢) الرمق : بقية الحياة .
(٣) التوازر : التعاون .
(٤) الارتفاق : الانتفاع .
(٥) العتاد : العدة .

وفَـتَقٌ لكثرة حاجاتهم وشَـهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعد غورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وفطرة الإنسانية .

ولم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغَ حاجته بنفسه دونَ الاستعانة ببعض من سخَّر له ، فأدناهم مسخَّر لأقصاهم ، وأجلهم . ميسَّر لأدقهم . وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السوقة فى باب ، وأحوج السوقة إلى الملوك فى باب ، وكذلك الغنى والفقير ، والعبد وسيده .

٤

مصلحة الكون فى امتزاج الخير بالشر

اعلم أنّ المصلحةَ فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدّتها امتزاجُ الخير بالشر ، والضار بالنافع ، والمكروه بالسارّ ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلة ، ولو كان الشرُّ صِرفـًا هلك الخلق ، أو كان الخير مَحْضًا سقطت المِحْنة ، وتقطعت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدمُ الحكمة .

٥

من نوادر د يسيموس اليونانى

قال صاحب الديك : حدثنى العتبى قال : كان فى اليونانيين ممرور [١] له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ديسيموس .

قال : والحكماء يرْوُون له أكثر من ثمانين نادرة ما منها إلاّ وهى غـُرّةٌ وعينٌ من عيون النوادر .

فمنها أنه كان كلـَّما خرجَ من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطَّهور ألقى فى أصل باب داره وفى دُوَّارته [٢] حجراً ، كى لا ينصفق البابُ

(١) الممرور : الشاذ الخلق .   (٢) دوارة الباب : موضع دورانه .

فيحتاجَ إلى معالجة فتحه وإلى دَفعه كلما رجع من حاجته ، فكان كلما رجعَ لم يجد الحجرَ فى موضعه ، ووجد البابَ منصفقًا . فكمَن له فى بعض الأيام ليرى هذا الذى يصنع ما يصنع . فبينا هو فى انتظاره إذْ أقبل رجلٌ حتى تناولَ الحجرَ ، فلما نحّاه عن مكانه انصفق الباب ، فقال له : مالك ولهذا الحجر؟ ومالك تأخذه؟ فقال : لم أعلم أنه لك . قال : فقد علمتَ أنه ليس لك !

قال : وقال بعضهم : ما بال ديسيموس يعلم الناس الشعرَ ولا يقول الشعر ؟ قال : ديسيموس كالمِسنّ يشحذ ولا يقطع !

ورآه رجل يأكل فى السوق فقال : أتأكل فى السوق ؟ فقال : إذا جاع ديسيموس فى السوق أكل من السوق .

قال : وأسمعه رجلٌ كلامًا غليظًا وسطا عليه[1] وأفحش فى القول ، وتحلّم عنه فلم يجبْه فقيل له : ما منعك من مكافأته وهو لك مُعْرِض ؟ قال : أرأيت لو رَمَحك[2] حمار أكنت ترْمَحُه ؟ قال : لا . قال : فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه ؟ قال : لا . قال : فإن السفيه إما أن يكون حماراً وإما أن يكون كلبًا ؛ لأنه لا يخلو من شَرَارة تكون فيه أو جهل[3] ، وما أكثر ما يجتمعان فيه !

٦

عداوة بعض الحيوان لبعض

وزعم صاحب المنطق أنّ العقاب تأكل الحياتِ وأن بينهما عداوةً ؛ لأنّ الحيةَ أيضًا تطلب بيضها وفراخها .

وقال : والغُداف[4] يقاتل البومة ، لأن الغداف يخطف بيضَ البومة نهاراً وتشدّ البومةُ على بيض الغداف ليلا فتأكله ؛ لأن البومة ذليلة بالنهار رديّة النظر ، وإذا كان الليل لم يقوَ عليها شىء من الطير . والطير كلها تعرف البومة بذلك

---

(١) سطا عليه : اشتد عليه .
(٢) رمحه : ضربه برجله .
(٣) الشرارة : الشر .
(٤) الغداف : نوع من الغربان .

وصنيعِها بالليل ، فهى تطيرُ حولَ البومة وتضربها وتنتفُ ريشها. ومن أجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير .

والغُداف يقاتل ابن عِرْس ليأكل بيضه وفراخه .

قال : وبين الحدأة والغُداف قتال ؛ لأن الحدأة تخطف بيض الغداف ، لأنها أشدُّ مخالبَ وأسرعُ طيرانًا .

وبين الأطرُغُلة والشِّقراق (١) قتال ؛ لأنه يقتل الأطرغُلة ويطالبها .

وبين العنكبوت والعَظاية (٢) عداوة ، والعَظاية تأكل العنكبوت .

وعصفور الشوك يعبث بالحمار ، وعبثه ذلك قتال له ؛ لأن الحمار إذا مرّ بالشوك وكانت به دبَرَة (٣) أو جربٌ تحككَ به ، ولذلك متى نهق الحمار سقط بيض عصفور الشوك ، وجعلت فراخُه تخرج من عُشها ، ولهذه العلة يطير العصفور وراء الحمار وينقر رأسه .

والذئب مخالفٌ للثور والحمار والثعلب جميعًا ، لأنه يأكل اللحم النىء ، ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب .

وبين الثعالب والزُّرّق (٤) خلافٌ لهذه العلة لأنهما جميعًا يأكلان اللحم .

والغراب يخالف الثور ويخالف الحمار جميعًا ويطير حولهما ، وربما نقر عيونهما . وقال الشاعر :

عاديتَنا لا زلتَ فى تبابِ ... عداوةَ الحمار للغراب

ولا أعرف هذا فى قول صاحب المنطق ؛ لأن الثعلب لا يجوز أن يعاديَ من بين أحرار الطير وجوارحها الزُّرّقَ وحده ، وغير الزُّرّق آكل اللحم . وإن كان سببُ عداوته له اجتماعَهما على أكل اللحم فليبغض العقابَ من الطير والذئبَ من ذوات الأربع ، فإنها آكلُ للحم . والثعلبُ إلى أن يحسد ما هو كذلك ، أقربُ وأولى فى القياس . فلو زعمَ أنه يُعم أكلة اللحم بالعداوة حتى يعطى الزُّرّق من ذلك نصيبَه ، كان ذلك أجوز . ولعل المترجمَ قد أساء فى الإخبار عنه .

---

(١) الأطرغلة: القمرية من الحمام . والشقراق : طائر كالحمامة أخضر .

(٢) العظاية : حيوان يشبه سام أبرص .

(٣) الدبرة : القرحة .

(٤) الزرق : نوع من الطيور التى يصاد بها .

قال : والحية تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عِرس ، وإنما تقاتل ابن عِرس إذ كان مأواهما فى بيت واحد . وتقاتل الخنزير لأن الخنزير يأكل الحيات . ويزعمون أن الذى يأكل الحيات القنافذُ والأوغال والخنازير والعقبان .

قال : فالحيةُ تعرفُ هذا الخنزير فهى تطالبه .

٧

رضيع ملهَم

وزعم علماء البصريين ، أن طاعونًا جارفًا جاء على أهل دار ، فلم يشكُك أهل تلك المحَلة أنه لم يبقَ فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبىٌّ يرتضع ، ويحبو ولا يقوم على رجليه ، فعمَدَ مَنْ بقى من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فسدّه ، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحوّل فيها بعضُ ورثة القوم ففتحَ الباب ، فلما أفضَى إلى عَرْصة الدار[١] إذا هو بصبىّ يلعب مع أجْراء كلبة[٢] وقد كانت لأهل الدار ، فراعه ذلك ، فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت لأهل الدار ، فلما رآها الصبىُّ حبَا إليها ، فأمكنتْه من أطْبائها[٣] فمصها . فظنوا أن الصبىّ لما بقى فى الدار وصار منسيًّا واشتدّ جوعه ، ورأى أجراءها تستقى من أطبائها حبا إليها فعطفَتْ عليه ، فلما سقته مرّةً أدامت ذلك له وأدامَ هو الطلب .

والذى ألهَمَ هذا المولود مصّ إبهامه ساعةَ يولد من بطن أمه ولم يعرف كيفية الارتضاع هو الذى هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة . ولو لم تكن الهداية شيئًا مجعولاً فى طبيعته ما مصّ الإبهامَ وحلمة الثدْى ، فلما أفرطَ عليه الجوعُ واشتدّت حاله وطلبت نفسه . وتلك الطبيعة فيه ، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنوّ .

فسبحان من دبر هذا وألهمه ، وسوّاه ودلّ عليه !

---

(١) عرصة الدار : ساحتها .
(٢) أجراء : جمع جرو ، وهو ولد الكلبة .
(٣) الأطباء : جمع طبى ، وهو الضرع .

٨
علّمه حيلة فوقع فى أَسرها

روى أبو الحسن[١] عن أبى مريم قال :

كان عندنا بالمدينة رجل كثر عليه الدين حتى توارى عن غرمائه ، ولزم منزلَه ! فأتاه غريم له عليه شيء يسير ، فتلطف حتى وصل إليه ، فقال له : ما تجعل لى إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور واللامة عن غرمائك ؟ قال : أقضيك حقك وأزيدك مما عندى مما تقرُّ به عينك . فتوثّقَ منه بالأيمان ، فقال له : إذا كان غداً قبل الصلاة مر خادمَك يكنسْ بابك وفناءك ويرش ، ويبسط على دكانك حُصراً ، ويضع لك متكأ ، ثم أمهل حتى تصبح ويمر الناس ، ثم تجلس وكلٌّ من يمر عليك ويسلم انبح له فى وجهه ، ولا تزيدن على النباح أحداً كائنًا من كان ، ومَن كلمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره ، حتى تصير إلى الوالى ، فإذا كلمك فانبح له ، وإياك أن تزيده أو غيره على النباح ، فإن الوالى إذا أيقن أنّ ذلك منك جِد لم يشك أنه قد عَرَض لك عارض من مسّ[٢] فيخلى عنك ولا يغرى عليك .

قال : ففعل ، فمر به بعض جيرانه فسلم عليه فنبح فى وجهه ، ثم مر آخرُ ففعل مثل ذلك حتى تسامع غرماؤه ، فأتاه بعضهم فسلم عليه فلم يزده على النباح ، ثم آخرُ ، فتعلقوا به فرفعوه إلى الوالى ، فسأله الوالى فلم يزده على النباح ، فرفعه معهم إلى القاضى ، فلم يزده على ذلك ! فأمر بحبسه أيامًا ، وجعل عليه العيون فى منزله ، وجعل لا ينطقُ بحرْف إلا النباح . فلما رأى القاضى ذلك أمر غرماءه بالكفّ عنه وقال هذا رجلٌ به لمَم[٣] ، فمكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذى كان علمه الحيلةَ أتاه متقاضيًا لعدَته[٤] ، فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح ، فقال له ويلَكَ يافلان ، وعلىَّ أيضًا ، وأنا علمتك

---

(١) أبو الحسن على بن محمد المدائنى الأخبارى . (٢) المس : الجنون .
(٣) لمم : جنون . (٤) لعدته : لما كان وعده به .

هذه الحيلة ؟ فجعل لا يزيده على النباح ، فلما يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه به .

٩

اتحاد المتعاديين فى وجه عدوهما المشترك

قال أبو الحسن ، عن سلمة بن خَطّاب الأزدى قال :

لما تشاغلَ عبد الملك بن مروان بمحاربة مُصعَب بن الزبير اجتمع وجوهُ الروم إلى ملكهم فقالوا له : قد أمكنَتْكَ الفرْصةُ من العرب بتشاغُلِ بعضهم مع بعض ، لوقوع بأسهم بينهم ، فالرأى لك أن تغزوَهم إلى بلادهم ، فإنك إن فعلتَ ذلك نِلتَ حاجتك ، فلا تدَعنهم حتى تنقضىَ الحرب التى بينهم فيجتمعوا عليك ، فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ، فأبوا عليه إلا أن يغزو العربَ فى بلادهم. فلما رأى ذلك أمر بكلبين فحرَّشَ بينهما[1] فاقتتلا قتالا شديداً ، ثم دعا بثعلب فخلاّه ، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه ، وأقبلا عليه حتى قتلاه . فقال ملكُ الروم : كيف ترَوْن ؟ هكذا العرب تقتتلُ بينهما ، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا .

فعرفوا صِدقه ورجعوا عن رأيهم .

١٠

قسمة الدجاج

قال أبو الحسنَ : حدثنى أعرابى كان ينزل بالبصرة قال :

قَدِم أعرابىٌّ من البادية فأنزلته ، وكان عندى دَجاج كثير ، ولى امرأةٌ وابنان وابنتان منها ، فقلت لامرأتى : بادرى واشوِى لنا دِجاجةً وقدميها إلينا

(١) حرش بينهما : أغرى بينهما .

نتغدّاها ، فلما حضر الغدَاء جلسنا جميعاً أنا وامرأتى وابناى وابنتاى والأعرابى .

قال : فدفعنا إليه الدجاجةَ فقلنا له : اقسمها بيننا — نريد بذلك أن نَضْحك منه — فقال : لا أحسنُ القسمة ، فإنْ رضيتم بقسمتى قسمتها بينكم . قلنا : فإنا نرضَى . فأخذَ رأس الدجاجة فقطعه فناولنيه وقال : الرأس للرأس . وقطع الجناحين وقال : الجناحان للابنين . ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين . ثم قطع الزمِكى وقال : العَجُز للعُجز (١) . ثم قطع الزّور وقال : الزور للزائر . فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا .

فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمسَ دَجاجات . فلما حضر الغَداء قلت : اقسم بيننا . قال : إنى أظن أنكم وَجدتم فى أنفسكم (٢) . قلنا : لا ، لم نجد فى أنفسنا فاقسِمْ . قال : أقسمُ شفعاً أو وترا ؟ قلنا : اقسم وترا . قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة . ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : أنا ودجاجتان ثلاثة ، وأخذ دَجاجتين وَسخِر بنا .

قال : فرآنا ونحن ننظرُ إلى دجاجتيه فقال : ما تنظرون ، لعلكم كرهتم قسمتى ؟ الوترُ لا يجىء إلا هكذا . فهل لكم فى قسمة الشفع ؟ قلنا : نعم . فضمهَّن إليه ثم قال : أنتَ وابناك ودجاجةٌ أربعة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ، ورمى إليهن بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة . وضم إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فهَّمتَنيها !

١١

استنشاط القارئ ببعض الهزل

وإنْ كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة والمروّجة ، لتكثر

---

(١) الزمكى : أصل ذنب الطائر . (٢) العجز : جمع عجوز .

(٢) وجد لبه : غضب .

الخواطر وتُشحذ العقول ، فإنا سننشّطك ببعض البطالات[١]. وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة ، فربّ شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والإستطراف مالا يبلغه حشدُ أحرّ النوادر ، وأجمع المعانى .

وأنا أستظرف أمرين استظرافًا شديداً : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين فى الكلام وهما لا يحسنان منه شيئًا ، فإنهما يثيران من غريب الطيب[٢] ما يضحك كلّ ثكلانٍ وإن تشدد ، وكل غضبانٍ وإن أحرقه لهيبُ الغضب .

وسنذكر من هذا الشكل عللا ، ونُورد عليك من احتجاجات الأغبياء حُججًا ، فإنْ كنت ممن يستعملُ الملالة وتَعجلُ إليه السآمة ، كان هذا الباب تنشيطًا لقلبك ، وجَمامًا[٣] لقوتك ، ولنبتدئ النظرَ فى باب الحمام وقد ذهب عنك الكلالُ وحدَثَ النشاط .

وإن كنتَ صاحب علم وجد ، وكنت ممرّنًا موقّحًا[٤]، وكنت حلْف تفكير وتنقير ودراسة كتب ، وحلفَ تبين ، وكان ذلك عادةً لك ، لم يضرْك مكانُه من الكتاب وتخطيه إلى ما هو أولى بك .

وعلى أنى قد عزمت — والله الموفق — أنى أوشحُ هذا الكتابَ وأفصل أبوابه بنوادرَ من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ، ليخرُجَ قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطربة والأغانىَ الحسنة والأوتارَ الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة .

وإذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرةَ ، كان هـــذا التدبير لما طالَ وكثر أصلح . وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً .

وقال أبو الدّرداء: إنى لأجِمُّ نفسى[٥] ببعض الباطل ، كراهة أنْ أحملَ عليها من الحق ما يُملّها .

---

(١) جمع بطالة ، كسحابة ، وهى الهزل .

(٢) الطيب : الفكاهة والهزل .

(٣) الجمام ، بفتح الجيم : الراحة .

(٤) الموقح : المجرب .

(٥) أى أريحها .

١٢

إلف الوطن

ومن كرَم الحمام الإلْفُ والإنْس والنزاع والشوق ، وذلك يدل على ثبات العهد ، وصَوْن ما ينبغى أن يصان وإنه لخلقٌ صدق فى بنى آدم ، فكيف إذا كان ذلك الخلق فى بعض الطير ؟

وقد قالوا : عمَّرَ اللهُ البلدان ، بحب الأوطان .

قال ابن الزبير : ليس الناسُ بشىء من أقسامهم(١) أقنعَ منهم بأوطانهم .

وأخبر اللهُ عزّ وجلّ عن طبائع الناس فى حب الأوطان فقال : « قالوا ومَا لنا ألا نقاتلَ فى سبيل الله وقدْ أخرِجنا منْ ديارنا وأبنائنا » . وقال : « ولوْ أنا كتَبنا عليهمْ أن اقتلوا أنفسكُمْ أو اخرجوا منْ دياركُم ما فعلُوهُ إلا قليلٌ منهم » .

وقال الشاعر :

وكنتُ فيهم كممطورٍ ببلدته ... فسُرَّ أنْ جَمعَ الأوطانَ والمطرَا

فتجده يُرسَل من موضع فيجىء ، ويُسترَقُ(٢) من منزلِ صاحبه فيقص ، ويَغبر(٣) هناك حولاً وأكثر من الحول فحين ينبت جناحه يحن إلى إلفه ، وينَزِع إلى وطنه وإن كان الموضعُ الثانى أنفعَ له وأنعمَ لباله ، فيهَبَ فضْلَ ما بينهما لموضع تربيته وسكنه ، كالإنسان لو أصاب فى غير بلاده الريفَ(٤) لم يقعْ ذلك فى قلبه ، وهو يُصالحهم على أن يُعطى عشر ما هو فيه فى وطنه .

ثم ربما باعه صاحبهُ فإذا وجدَ مخْلصًا رجع إليه ، حتى ربما فعل ذلك مراراً ، وربما طار دَهرَه وجالَ فى البلاد ، وألِفَ الطيرانَ والتقلبَ فى الهواء والنظرَ إلى

---

(١) جمع قسم ، وهو الحظ والنصيب .
(٢) يسترق ، أى يسرق .
(٣) يغبر : يمكث .
(٤) الريف : حيث الخضر والمياه والزروع .

الدنيا ، فيبدو لصاحبه(١) فيقصُّ جناحَه ويلقيه فى دِيماس(٢) فينبت جناحهُ فلا يذهب عنه ولا يتغيَّر له . نعمْ حتى ربما جدَف(٣) وهو مقصوصٌ فإما صار إليه ، وإما بلغَ عُذْراً .

١٣

التلهى بالحمام

وقال مثَنَّى بنُ زُهير ذاتَ يوم : ما تلهَّى الناسُ بشيء مثل الحمام ، ولا وجدْنا شيئًا يتخذُه الناسُ ويُلعبُ به ويُلهى به ، يخرُج من أبواب الهــزل إلى أبواب الجِدّ كالحمام — وأبو إسحاق(٤) حاضر — فغاظه ذلك ، وكظَم على غيظه . فلما رأى مثنى سكوتَه عن الرّد عليه طمع فيه فقال : يبلُغ واللهِ من كرم الحمام ووفائه وثبات عهده ، وحنينه إلى أهله ، أنى ربما قصصْت الطائر بعد أن صار عندى دَهراً ، فتى نبتَ جناحه كنباته الأوَّل لم يدعه سوءُ صُنعى إليه إلى الذهاب عنى . ولربما بعته فيقصُّه المبتاعُ حينًا ، فما هو إلا أن يجدَ فى جناحه قوّةً على النهوض حتى أراه جادفًا أو غير جادف(٥) ، وربما فعلتُ ذلك به مراراً كثيرة ، كل ذلك لا يزداد إلاّ وفاء .

قال أبو إسحاق : أما أنت فأراك دائبًا تحمده وتذمُّ نفسك ، لئن كان رجوعُه إليك من الكرم إن إخراجَك له من اللؤم ! وما يعجبنى من الرجال من يقطع نفسَه لصلة طائر ، وينسَى ما عليه من جنب ما للبهيمة .

ثم قال : خبرنى عنك حين تقول : رَجَع إلىّ مرةً بعد مرة ، وكلما زَهدتَ فيه كان فىَّ أرغبَ ، وكلما باعدتُه كان لى أطلب ، إليك جاء وإليك حنّ ،

---

(١) بدا له فى الأمر : نشأ له فيه رأى .
(٢) الديماس : الكن الذى يحفظ فيه .
(٣) جدف الطائر : طار وهو مقصوص الجناحين كأنه يرد جناحيه إلى خلفه .
(٤) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .
(٥) جدف الطائر : طار وهو مقصوص الجناحين ، كأنما يرد جناحيه إلى الوراء .

أم إلى عشه الذى دَرَج منه ، وإلى وَكره الذى رُبى فيه ؟ ! أرأيت أنْ لو رَجع إلى وكره وبيته ثم لم يجدك وألفاكَ غائبًا أو ميتًا ؛ أكان يرجع إلى موضعه الذى خلّفه ؟ وعلى أنك تتعجب من هدايته ، ومالك فيه مقالٌ غيره . فأما شكرُك على إرادته لك فقد تبيّنَ خطاؤك فيه(١) . وإنما بقىَ الآن حسن الاهتداء ، والحنينُ إلى الوطن .

١٤
طلب الأسد للملح

والأسدُ إذا أكثرت من حَسو(٢) الدماء — والدماء حلوة — وأكل اللحم ، واللحم حُلو ، طلبت الملحَ لتتملّحَ به ؛ كالحَمض بعد الخُلة(٣) .

ولولا حُسن موقع الملح لم يُدخله الناسُ أكثر طعامهم .

والأسد يخرج للتملح فلا يزال يسير حتّى يجد ملاّحة(٤) . وربما اعتاد الأسدُ مكانًا فيجده ممنوعًا ، فلا يزال يقطع الفراسخَ الكثيرةَ بعد ذلك ، فإذا تملّح رجع إلى موضعه وغَيضته وعَرينه ، وغابه وعِرّيسته(٥) ، وإن كان الذى قطعَ خمسين فرسخًا .

١٥
حديث أفليمون عن الحمام

وقال أفليمون صاحب الفراسة لصاحبه :

وأنا محدّثُك عن نفع الحمام بحديثٍ يزيدُك رغبةً فيها . وذلك أن ملِكين

---

(١) الخطاء : الخطأ .
(٢) الحسو : الشرب لا يكون شيئاً بعد شيء .
(٣) الحمض : ماملح وأمر من النبات . والخلة : ما فيه حلاوة من النبت .
(٤) الملاحة : موضع الملح .
(٥) العريسة : مأوى الأسد .

طلب أحدُهما مُلكَ صاحبه ، وكان المطلوب أكثر مالاً وأقلَّ رجالا ، وأخصبَ بلاداً ، وكانت بينهما مسافةٌ من الأرض بعيدة ، فلما بلغه ذلك دعا خاصَّته فشاوَرَهم في أمره ؛ وشكا إليهم خوَفه على مُلكه ، فقال له بعضُهم : دامتْ لك أيها الملك السلامةُ ، ووقيتَ المكروه ، إن الذى تاقت له نفسك قد يحتال له باليسير من الطمع ، وليس من شأن العاقل التغرير ، وليس بعد المناجزة بقية . والمُناجزة لا يدرى لمن تكون الغلَبة ، والتمسكُ بالثقة خيرٌ من الإقدام على الغرَر[١] .

وقال بعضهم : دامَ لك العزّ ، ومُدَّ لك فى البقاء ، ليس فى الذلّ دَرك ، ولا فى الرضا بالضّيم بقية ، فالرأىُ اتخاذ الحصون ، وإذكاء العيون[٢] ، والاستعداد للقتال ، فإن الموت فى عزّ خيرٌ من الحياة فى ذُلّ .

وقال بعضهم : وُقيت وكفيت ، وأعطيت فضلَ المزيد ، الرأى طلبُ المصاهرة له والخطبة إليه ؛ فإنَّ الصهر سببُ ألفة تقع به الحرمةُ ، وتثبت به المودّة ، ويَحلّ به صاحبه المحل الأدنى . ومن حَلّ من صاحبه هذا المحل لم يخله مما عراه ولم يمتنع من مناوأة من ناوأه[٣] . فالتمس خلطته[٤] ، فإنه ليس بعد الخلطة عداوة ، ولا مع الشركة مباينة !

فقال لهم الملك : كلٌّ قد أشارَ برأى ! ولكل مدة ، وأنا ناظرٌ فى قولكم ، وبالله العصمةُ ، وبشكره تتم النعمةُ .

وأظهرَ الخِطبة إلى الملك الذى فوقه ، وأرسل رُسلاً وأهدَى هدايا ، وأمرَهم بمصانعة جميع من يصل إليه ، ودسّ رجالاً من ثقاته ، وأمرهم باتخاذ الحَمام فى بلاده وتوطينهن ، واتخذَ أيضًا عن نفسه مثلَهنّ ، فرفعهن من غاية إلى غاية ، فجعل هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم ، وجعل مَن عند الملك يُرسلون من بلاد الملك ، وأمرهم بمكاتبته بخبر كل يوم ، وتعليق الكتب فى أصول أجنحة الحَمام ؛ فصار لا يَخفى عليه شىءٌ من أمره ، وأطعمهُ الملكُ فى التزويج ، وتابع بين

---

(١) الغرر : التعرض للهلاك .
(٢) العيون : الجواسيس .
(٣) ناوأه : عاداه .
(٤) الخاطة بالكسر : العشرة . والخلطة بالضم : الشركة .

الهدايا ، ودسّ لحرسه رجالاً يُلاطفونهم حتى صاروا يبيتون بأبوابه معهم . فلما كتب أصحابهُ إليه بغرتهم[١] وصلَ الخبرُ إليه من يومه ؛ فسار إليه فى جند قد انتخبهم ، حتى إذا كان على ليلة أو بعض ليلة أخذ بمجامع الطرق ، ثم بيّتهم[٢] ، ووثب أصحابه من داخل المدينة ، وهو وجندُه من خارج ، ففتحوا الأبوابَ وقتلوا الملك ، وأصبح قد غلب على تلك المدينة وعلى تلك المملكة ، فعظم شأنُه وأعظمته الملوكُ ، وذُكر فيهم بالحزم والكيد . وإنما كان سببُ ذلك كله الحمام .

١٦

أخذ الشعراء بعضهم معانى بعض

ولا يُعلم فى الأرض شاعرٌ تقدم فى تشبيه مصيب تامّ ، وفى معنًى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ، أو فى بديع مخترَع ، إلا وكلٌّ من جاء من الشعراء من بعده أو معه — إن هو لم يعدُ على بعضه فيسرقَ بعضه أو يدّعيه بأسره ، فإنه لا يَدعُ أن يستعين المعنى ، ويجعلَ نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراءُ فتختلفُ ألفاظهم وأعاريضُ أشعارهم ، ولا يكون أحدٌ منهم أحقّ بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحدَ[٣] أنه سمع بهذا المعنى قط ، وقال : إنه خطرَ على بالى من غير سَماع ، كما خطر على بال الأوّل . هذا إذا قرّعوه به ، إلا ما كان من عنترة فى صفة الذباب ، فإنه وَصفه فأجاد صفته ، فتحامى معناه جميعُ الشعراء فلم يَعرض له أحدٌ منهم . ولقد عرَض له بعضُ المحدَثين ممن كان يُحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلاً على سوء طبعه فى الشعر . قال عنترة :

---

(١) الغرة : الغفلة وعدم الاحتراس .
(٢) بيتهم : أوقع بهم ليلا .
(٣) الجحود : الإنكار مع العلم .

جادتْ عليها كلُّ عين ثرَّة فتركن كلَّ حديقة كالدرهم(١)
فترى الذبابَ بها يغنى وحدَه هَزِجا كفعل الشارب المترنم
غرِداً يحكُّ ذراعَه بذراعـــه فعلَ المكبّ على الزناد الأجذم

قال : يريد فعلَ الأقطع المكب على الزناد . والأجذَم : المقطوع اليدين . فوصف الذبابَ إذا كان واقعاً ثم حكّ إحدى يديه بالأخرى ، فشبهه عند ذلك برجُلٍ مقطوع اليدين يَقدحُ بعودَين . ومتى سقط الذبابُ فهو يفعل ذلك .

ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة .

١٧

قصة عبد الله بن سوار

كان لنا بالبصرَة قاض يقال له عبد الله بن سوّار ، لم يَرَ الناس حاكما قط ولا زَميتًا ولا ركينًا(٢) ، ولا وقوراً ولا حليما ، ضَبط من نفسه ومَلك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداةَ فى منزله ، وهو قريبُ الدار من مسجده ، فيأتى مجلسَه فيحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال منتصبًا لا يتحرك له عضْو ولا يلتفت ، ولا يَحُلُّ حبوته(٣) ولا يحول رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه كأنه بناءٌ مبنىّ ، أو صخرةٌ منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقومَ إلى صلاة الظهر ، ثم يعودُ إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ؛ ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق . ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف .

فالحق يقال : لم يَقمْ فى طول تلك المُدّة والولاية مرةً واحدة إلى الوضوء ،

---

(١) أراد بالعين الثرة السحابة الغزيرة المطر . الحديقة من الرياض : كل أرض استدارت وأحدق بها حاجز . وجعل الحديقة كالدرهم فى استدارته لاقدره .
(٢) الزميت : العظيم الوقار . والركين : الرزين .
(٣) الحبوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماءً ولا غيره من الشراب . كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صَيْفها وفى شتائها . وكان مع ذلك لا يحرّك يده ، ولا يُشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة .

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابُه حواليه ؛ وفى السماطين[١] بين يديه ، إذ سقَط على أنفه ذباب فأطال المكثَ ، ثم تحولَ إلى مُؤق عينيه[٢] ، فرام الصبرَ فى سقوطه على المؤق ؛ وعلى عَضّه ونفاذ خرطومه ، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرّك أرنبته[٣] أو يغضّنَ وجهه ، أو يذُب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغَله ، وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنَه الأعلى فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى[٤] بين الإطباق والفتح ، فتنحَّى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشدَّ من مَرَته الأولى ، فغمسَ خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزُه عن الصبر فى الثانية أقوى . فحرك أجفانه وزاد فى شدّة الحركة وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنَت حركته ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغَ صبرَه وبلغ مجهودَه ، فلم يجد بُدًّا من أن يذُبّ عن عينيه بيده ، ففعلَ وعيونُ القوم ترمقه وكأنهم لا يرَونه ، فتنحَّى عنه بقدر ما رَدّ يَده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرَف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابَعَ بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضرَهُ من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب[٥] ! وأستغفر الله فما أكثرَ من أعجَبَتْه نفسه فأراد اللهُ عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان مستوراً ! وقد علمتُ أنى عند الناس مِن أزمَتِ الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه .

---

(١) السماط : الصف .

(٢) مؤق العين : طرفها الداخلى . واللحاظ : طرفها الخارجى .

(٣) الأرنبة : طرف الأنف .

(٤) والى : تابع .

(٥) ألج ، من اللجاج ، وهو الإلحاح . والزهو : الكبر .

ثم تلا قوله تعالى : « وإنْ يسلبهمُ الذُّبابُ شيئًا لا يَستنقِذوه منه ، ضَعفَ الطالبُ والمطلُوبُ » .

١٨

نوم عجيب لضروب من الحيوان

وأعجوبةٌ أخرى ، وهى عندى أعجبُ من كل شىء صدرنا به جملةَ القول فى الذباب . فمن العجب أن يكون بعضُ الحيوان لا ينام كالصافر والتنوط[١] فإنهما إذا كان الليلُ فإنّ أحدَهما يتدلى من غُصْن الشجرة ويضمّ عليه رجليه وينكّس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرُق النور . والآخر لا يزالُ يتنقل فى زوايا بيته ولا يأخذُه القَرار ، خوفًا على نفسه ، فلا يزال كذلك وقد نتفَ قَبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يُشبه الليفَ فنفشَه ، ثم فتل منه حبلاً ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلًّى بذلك الحبل ، وعقدَه بطرَفِ غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتَّخذ عشَّه فيه ويأوى إليه مخافةً على نفسه .

والأعراب يزعمون أن الذّئب شديدُ الاحتراس ، وأنه يراوح بين عينيه فتكون واحدةٌ مطبقةً نائمة ، وتكون الأخرى مفتوحةً حارسة . ولا يشكون أن الأرنبَ تنام مفتوحةَ العينين .

وأما الدجاج والكلاب فإنما تعزُب[٢] عقولهُما فى النوم ثم ترجع إليهما بمقدار رُجوع الأنفاس . فأما الدجاج فإنها تفعل ذلك من الجبن ، وأما الكلب فإنه يفعل ذلك من شدّة الاحتراس .

وجاءوا كلهم يُخبرون أن الغرَانيق[٣] والكَراكىّ لا تنامُ أبداً إلا فى أبعد المواضع من الناس وأحرَزها[٤] من صغار سباع الأرض ، كالثعلب وابن آوى .

---

(١) الصافر : طائر من أنواع العصافير . والتنوط : طائر شبيه به .
(٢) تعزب : تبعد .
(٣) جمع غرنيق ، وهو طير ، وكذلك الكركى .
(٤) أحرزها ؛ أى أمنعها .

وأنها لا تنام حتى تقلّد أمرها رئيساً وقائداً ، وحافظاً وحارساً ، وأن الرئيسَ إذا أعيا رَفع إحدى رجليه ليكون أيقظَ له .

١٩

من أَعاجيب الخفاش

ومن أعاجيبه أنه لا يطير فى ضوء ولا ظلمة ، وهو طائرٌ ضعيفُ قُوَى البصر ، قليل شعاع العينِ الفاصل من الناظر ، ولذلك لا يظهر فى الظلمة لأنها تكون غامرةً لضياء بصره غالبةً لمقدار قوى شعاع ناظره . ولا يظهر نهاراً لأنّ بصرَه لضعف ناظره يلتمع فى شدّة بياض النهار ، ولأن الشيءَ المتلألىء ضارٌّ لعيون الموصوفين بحدّة البصر ، ولأن شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه يكون رادعاً لشُعاع ناظره ومفرقاً له ؛ فهو لا يُبصر ليلاً ولا نهاراً . فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطُّعم (١) ، التمس الوقتَ الذى لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً ، وعالياً غالباً ، ولا من الضياء ما يكون مُعْشِياً (٢) رادعاً ، ومفرّقاً قامعاً . فالتمس ذلك فى وقت غروب القرْص ، وبقية الشفق ، لأنه وقتُ هَيج البعوض وأشباه البعوض ، وارتفاعها فى الهواء ، ووقتُ انتشارها فى طلب أرزاقها ، فالبعوض يخرج للطُّعم ، وطُعمه دماء الحيوان ، وتَخرج الخفافيش لطلب الطعم ، فيقع طالبُ رزق على طالب رزق ، فيصير هو رزْقه .

وهذا مما جعل اللهُ فى الخفافيش من الأعاجيب .

٢٠

طريفة

قال أبو الحسن : كان واحدٌ يسخرُ بالناس ويَدعى أنه يرْقى من الضرس إذا ضرَب على صاحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكى ضرْسه قال إذا رقاه : إياك

(١) الطعم : الطعام . (٢) العشى : ضعف البصر ليلا .

أن تذكر إذا صرتَ إلى فراشك القرد ، فإنك إذا ذكرته بطلت الرقية ؛ فكان إذا آوى إلى فراشه أولَ شيء يخطُر على باله ذكر القرد ، ويبيت على حاله من ذلك الوَجع ، فيغدو إلى الذى رقاه فيقول له : كيف كنتَ البارحة ؟ فيقول : بت وجعًا ؛ فيقول : لعلك ذكرتَ القرد ، فيقول : نعم . فيقول : من ثم لم تنتفع بالرقية !

٢١

أثر البيئة

وقد رأينا العربَ — وكانوا أعرابًا — حين نزلوا خُراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى . وترى طباعَ بلاد الترك كيف تطبع الإبلَ والدواب وجميعَ ماشيتهم من سبُع وبهيمة على طبائعهم . وترى جراد البقول والرياحين وديدَانها خضراء ، وترى القملةَ فى رأس الأسود الشعرِ سوداء ، وتراها فى رأس الأبيض الشعر بيضاء ، وتراها فى رأس الأشمط شمطاء، وفى لون الجمل الأورق[١] . فإذا كانت فى رأس الخضيب[٢] بالحمرة تراها حمراء، فإن نصَلَ خضابه صار فيها شُكْلة[٣] من بين بيض وحُمر .

وقد نرى حرَّة بنى سُليم[٤] وما اشتملت عليه من إنسان ، وسبع ، وبهيمة ، وطائر ، وحشرة ، فتراها كلها سوداء .

---

(١) الأورق : ما فى لونه بياض إلى سواد .
(٢) الخضيب : المخضوب ، أى المصبوغ .
(٣) الشكلة : بياض يضرب إلى الحمرة .
(٤) الحرة : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار . وبنوسليم : قبيلة .

٢٢

احتيال الحيات للصيد

حدّثنا أبو جعفر المكفوف النحويّ العنبريّ ، وأخوه رَوْحٌ الكاتب ، ورجالٌ من بنى العنبر ، أنّ عندهم فى رمال بَلْعَنبر [١] حيةً تصيد العصافيرَ وصغارَ الطير بأعجب صيد . زعموا أنها إذا انتصف النهارُ واشتد الحرُّ فى رمال باعنبر ، وامتنعت الأرض على الحافى والمنتعل ، ورمضَ الجُنْدُب [٢] غمَسَتْ هذه الحيةُ ذَنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوز أو عودٌ ثابت ، فيجىء الطائر الصغير أو الجرادة فإذا رأى عُوداً قائماً وكرِه الوقوعَ على الرمل لشدة حرّه وَقع على رأس الحية على أنها عود ، فإذا وَقَعَ على رأسها قبضَتْ عليه ، فإن كان جَرَادةً أو جُعَلاً [٣] أو بعضَ ما لا يشبعها مثلهُ ابتلعته وبقيتْ على انتصابها ، وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يشبعها مثله أكلته وانصرفت . وأنّ ذلك دأبها ما منع الرملُ جانبه فى الصيف والقيظ ، فى انتصاف النهار والهاجرة [٤] . وذلك أن الطائرَ لا يشك أن الحيةَ عود ، وأنه سيقوم له مقامَ الجِذْل للحِرْباء [٥] إلى أن يسكن الحر ووهجُ الرمل .

وفى هذا الحديث من العجب أن تكونَ هذه الحيةُ تهتدى لمثل هذه الحيلة ، وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلةُ اكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجَمْر وصلَح أن يكون ملّةً وموضعاً للخُبْزَة [٦] ، ثم أنْ يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة . فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب الحياة .

---

(١) أى بنى العنبر : قبيلة من القبائل .

(٢) الجندب : ضرب من الجراد صغير . رمض : آلمه شدة حر الرمل .

(٣) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفس .

(٤) الهاجرة : نصف النهار إذ يشتد الحر .

(٥) الجذل : أصل الشجرة . والحرباء : دابة تتلون ألواناً .

(٦) الملة : الرماد الحار . والخبزة : عجين يوضع فى الملة حتى ينضج .

٢٣

قوة بدن الحية

وليس فى الأرض شىءٌ جسمُه مثل جسم الحية إلاّ والحيةُ أقوى بدنًا منه أضعافًا . ومن قوّتها أنها إذا أدخلتْ رأسها فى جحرها أو فى صَدْع [١] إلى صَدرها ، لم يستطع أقوى الناس وهو قابضٌ على ذَنبها بكلتا يديه أن يخرجها لشدّة اعتمادها وتعاوُن أجزائها . وليست بذات قوائم لها أظفارٌ أو مخالبُ أو أظلاف تُنْشِبها فى الأرض ، وتتشبث بها وتعتمد عليها ، وربما انقطعت فى يدَى الجاذب لها ، مع أنها لدنةٌ [٢] ملساءُ علِكة [٣] ، فيحتاج الرفيق فى أمرها عند ذلك أن يرسلها من يديه بعضَ الإرسال ، ثم يَنشُطها [٤] كالمختطف والمختلِس . وربما انقطع ذنَبها فى يد الجاذب لها .

٢٤

تعليق الحلى والخلاخيل على اللديغ

وكانوا يرَون أن تعليقَ الحَلى ، وخشخشةَ الخلاخيل على السليم [٥] مما لا يُفيق ولا يَبرأ إلا به . وقال زَيد الخيل :

أيمٌ يكون النعل منه ضجيعَه   كما عُلقت فوق السليم الخلاخلُ [٦]

وقال الذبيانىّ :

فبتُّ كأنى ساورَتنى ضئيلة   من الرُّقش فى أنيابها السم ناقعُ [٧]
يُسهَّد من ليل التمام [٨] سليمها   لحَلى النساء فى يديه قعاقعُ

---

(١) الصدع : الشق .
(٢) اللدنة : اللينة.
(٣) العلكة : الشديدة .
(٤) النشط : الاختلاس .
(٥) السليم : اللديغ : سمى بذلك تفاؤلا .
(٦) الأيم : الحية.
(٧) ساورته : واثبته . الرقش : جمع أرقش ورقشاء من الحيات ، وهو المنقط بسواد وبياض .
(٨) ليل التمام : أطول ليلة فى السنة ، أو كل ليلة مؤرقة .

٢٥

جملة التمول فى الظليم

فمما فيه من الأعاجيب أنه يغتذى الصخرَ ويبتلعُ الحجارة ، ويعمدُ إلى المرْو ، والمروُ من الحجارة التى توصف بالملاسة ، ويبتلع الحصى ، والحصى أصْلب من الصخر ، ثم يُميعه[١] ويـُذيبه فى قانصته حتى يجعلـَه كالماء الجارى ، ويـَقصد إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهضْمه وأنه له غذاء وقِوام .

وفى ذلك أعجوبتان : إحداهما التغذى بما لا يتغذى به ، والأخرى استمراؤه وهضمـُه للشىء لو ألقى فى شىء ثم طبخ أبداً ما انحل ولا لاَنَ ، والحجارة هو المثل المضروب فى الشدة . قال الشاعر :

* حتى يلينَ لضرْس الماضغ الحجرُ *

وقال آخر :

ما أطيـَبَ العيشَ لو أنَّ الفتى حجرٌ   تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمُوم[٢]

ووصف اللهُ قلوبَ قوم بالشدة والقسوة فقال : « فهى كالحجارَة أوْ أشدُّ قسوَةً » . وقال فى التشديد : « ناراً وَقودُها الناسُ والحجارَةُ » ، لأنه حين حذر الناسَ أعلمهم أنه يلقى العصاة فى نار تأكل الحجارة .

ومن الحجارة ما يتخذه الصَّفـَّارون علاَوةً[٣] ، دون الحديد ، لأنه أصبرُ على دَقّ عظام المطارق والفـِطيسات[٤] .

فجوفُ النعامة يذيب هذا الجوهر الذى هذه صفته .

(١) الإماعة : الإسالة والإذابة

(٢) الملموم : المجتمع الشديد .

(٣) الصفار : من يعمل الصفر ، وهو النحاس الأصفر . والعلاوة : السندان الذى يطرق عليه الحديد .

(٤) الفطيس : المطرقة العظيمة .

٢٦
القول فى النيران وأقسامها

نحن ذاكرون جُمَلاً من القول فى النيران وأجناسها ومواضعها ، وأىّ شىء منها يُضاف إلى العجَم ، وأىُّ شىء منها يضاف إلى العرب . ونخبرُ عن نيران الديانات وغير الديانات ؛ وعمن عظّمها وعمن استهان بها ، وعمن أفرَط فى تعظيمها حتّى عبَدَها ، ونخبرُ عن المواضع التى عُظِّم فيها من شأن النار .

فمن مواضعها التى عظمتْ بها أن الله عزّ وجلّ جعَلها لبنى إسرائيل فى موضع امتحان إخلاصهم ، وتعرُّف صِدق نيّاتهم ، فكانوا يتقرّبون بالقُرْبان ؛ فمن كان منهم مخلِصًا نزلت نارٌ من قِبَل السماء حتى تحيطَ به فتأكله ، فإذا فعلت ذلك كان صاحبُ القربان مخلصًا فى تقربه . ومتى لم يرَوها وبقى القربان على حاله قَضوا بأنه كان مدْخول القلب[1] فاسدَ النية . ولذلك قال الله تعالى فى كتابه : « الذينَ قالوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا ألاّ نؤمنَ لرَسول حتّى يأتينا بقُرْبان تأكلهُ النارُ قلْ قدْ جاءكم رُسلٌ منْ قبلى بالبينات وبالذى قلتمْ ، فلمَ قتَلتموهمْ إنْ كنتمْ صادقينَ » .

والدليل على أنّ ذلك قد كان معلومًا قول الله عز وجل : « قدْ جاءكم رُسلٌ منْ قبلى بالبينات وبالذى قلتمْ » .

ثم إن الله ستَرَ على عباده ، وجعل بيانَ ذلك فى الآخرة ، وكان ذلك التدبير مصلحةَ ذلك الزمان ، ووَفقَ طباعها وعللهم . وقد كان القوم من المعاندة والغَباوة على مقدار لم يكن لينجعَ فيهم ويكملَ لمصلحتهم إلا ما كان فى هذا الوزن .

فهذا بابٌ من عظم شأن النار فى صدور الناس .

ومما زاد فى تعظيم شأن النار فى صدور الناس قولُ الله عزّ وجل : « وهلْ

(١) المدخول : الذى به دخل أى فساد فى عقله .

أتاكَ حديثُ موسى . إذْ رأى ناراً فقالَ لأهله امكثوا إنى آنستُ نارًا لعلى آتيكمْ منها بقَبَس أوْ أجد على النار هدًى . فلما أتاها نوديَ يا موسى . إنى أنا ربكَ فاخلعْ نعليْكَ إنَّكَ بالوادى المقدس طوًى(١) » . وقال عزّ وجل : « إذْ قالَ موسى لأهله إنى آنست(٢) ناراً سآتيكم منها بخبر أوْ آتيكمْ بشهاب قبَس لعلكمْ تصْطلونَ . فلما جاءها نُودِيَ أنْ بوركَ منْ فى النار ومَنْ حولها وسبحانَ الله ربّ العالمينَ » .

وكان ذلك مما زاد فى قدر النار فى صدور الناس .

ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وقال الله عزّ وجلّ : « قالوا سمعنا فتًى يذْكرُهمْ يقالُ لهُ إبرَاهيمُ . قالوا فأتوا به على أعيُن الناس لعلهمْ يشْهدُون . ثم قال : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكمْ إنْ كنتمْ فاعلينَ » . فلما قال الله عزّ وجلّ : « قلنا يا نارُ كونى برْداً وسلاماً علىَ إبرَاهيمَ » كان ذلك مما زاد فى نباهة النار وقدْرها فى صدور الناس .

٢٧

حب العصافير فراخها

وليس فى الأرض طائر ولا سبع ولا بهيمة أحنى على ولد ولا أشدّ به شغفاً(٣) وعليه إشفاقاً ، من العصافير . فإذا أصيبتْ بأولادها أو خافتْ عليها العطب(٤) . فليس بين شىء من الأجناس من المساعَدة مثل الذى مع العصافير ؛ لأن العصفورَ يرى الحية قد أقبلت نحو جحره وعشه ووكره ، لتأكل بيضه أو فراخه ، فيصيح ويرنّق(٥) ، فلا يسمع صوته عصفورٌ إلا أقبل إليه وصنع مثلَ صنيعه بتحرق ولوعة وقلق ، واستغاثة وصراخ ، وربما أفلتَ الفرخ وسقَط إلى الأرض وقد ذهبت الحية ، فيجتمعن عليه إذا كان قد نبت ريشه أدنى نبات ، فلا يزَلن يهيجنه

---

(١) طوى : موضع بالشام عند الطور. (٢) آنست : أبصرت .

(٣) الشغف : الحب الشديد . (٤) العطب : الهلاك .

(٥) رنق الطائر ترنيقاً : خفق بجناحيه فى الهواء وثبت فلم يطر .

وَيطِرنَ حوله ، لعلمها أن ذلك يحدث للفرخ قُوّةً على النهوض ، فإذا نهض طرن حواليه ودونه ، حتى يحتثنه ، بذلك العمل .

ولو أن إنسانًا أخذ فرخيْ عصفور من وكره ، وضعهما بحيث يراهما أبواهما فى منزله ، لوجد العصفور يتقحم فى ذلك المنزل[١] حتى يدخل فى ذلك القفص ؛ فلا يزال فى تعهده بما يعيشه حتى يستغنى عنه . ثم يحتملان فى ذلك غاية التغرير والخطار[٢] . وذلك من فرْط الرقة على أولادهما .

٢٨

مساوئُ السنانير

قال صاحب الكلب : والسنَّوْرُ لص لئيم ، وشره خئون . فمن ذلك أن صاحب المنزل يَرمى إليه ببعض الطعم[٣] فيتحمله احتمالَ المريب، حتى يولجَ به[٤] خلفَ حُبّ أو راقود[٥] ، أو عِدْل[٦] أو حطب ، ثم لا يأكله إلا وهو يتلفت يمينًا وشمالاً ، كالذى يخاف أن يُسلبَ ما أعطىَ ، أو يعثرَ على سرقته فيعاقَب .

ثم ليس فى الأرض خبيثة[٧] إلاّ وهو يأكلها ، مثل الخنافس والجِعْلان[٨] وبنات وَرْدان ، والأوزاغ[٩] ، والحيات ، والعقارب ، والفأر .

وهذه الأنعامُ تدخل الغياضَ فتجتنب مواضعَ السموم بطبائعها ، وتتخطاها ولا تلتفت لِفْتهَا[١٠] . وربُما أشكل الشىء على البعير فيمتحنه بالشمة الواحدة ، فلا تَغلط الإبل إلا فى البيش وحده ، ولا تغلط الخيل إلا فى الدفلى[١١] وحده .

---

(١) التقحم : الدخول بلا روية ولا تفكير.
(٢) الخطار : المخاطرة.
(٣) الطعم : الطعام .
(٤) أى يدخل به.
(٥) الحب : الجرة الضخمة. والراقود : إناء من الخزف مستطيل مطلى بالقار ، أى الزفت .
(٦) العدل : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .
(٧) الخبثة : الخبيثة غير الطيبة.
(٨) جمع جعل ، وهوضرب من الحشرات شبيه بالخنفساء .
(٩) جمع وزغ ، وهوسام أبرص .
(١٠) أى لا تنظر إليها .
(١١) البيش والدفلى : ضربان من النبت سامان .

والسنانير تموت من أكل الأوزاع والحيات والعقارب ، وما لا يحصى عدده من هذه الحشرات . فهذا يدلّ على جهل بمصلحة المعاش ، وعلى حسّ غليظ وشرَه شديد .

٢٩

أكل الهرة أولادها

قالوا : والهرة تأكل أولادها ؛ فكفاك بهذه الخصلة لؤمـًا وشرها وعقوقـًا وغلظة قلب !

وقال السيد الحميريّ — وذكر مَسيرَ عائشة رضى الله عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير ، حين شهدت ما لم يشهدا ، وأقدمت على ما نكصا عنه[١] .

جاءت مع الأشقَيَنَ فى هَودج   تزجى إلى البصرة أجنادها[٢]
كأنها فى فعلها هِرّةٌ   تريد أن تأكل أولادها

ولبئس ما قال فى أمّ المؤمنين وبنت الصديق ! وقد كان قادراً على أن يوفّر على علىّ رضى الله عنه فضله ، من غير أن يشتم الحواريين[٣] وأمهات المؤمنين . ولو أراد الحقّ لسار فيها وفى ذكرها سيرة على بن أبى طالب ، فلا هو جعل عليـًّا قدوة ، ولا رعى للنبى صلى الله عليه وسلم حرمة .

وذكورة سنانير الجيران تأكل أولاد الهرة ، ما دمن صغارًا أو فوق الصغار شيئـًا ، وتقتلها وتطلبها أشدّ الطلب ، والأمهات تحرسها منها وتقاتل دونها مع عَجْزها عن الذكورة .

---

(١) نكص عن الشىء : أحجم ورجع .
(٢) تزجى : تسوق . الأجناد : الجند .
(٣) الحواريون : أنصار الأنبياء .

٣٠

بعض العجائب

وفى الناس من يحرك أذنيه من بين سائر جسده ، وربما حرك إحداهما قبل الأخرى . ومنهم من يحرك شعرَ رأسه ، كما أنّ منهم من يبكى إذا شاء ، ويضحك إذا شاء .

وخبرنى بعضهم أنه رأى من يبكى بإحدى عينيه ، وبالتى يقترحها عليه الغَيْر .

وحكى المكىُّ عن جَوار باليمن ، لهن قرونٌ مضفورة من شعر رءوسهن ، وأن إحداهنّ تلعب وترقص على إيقاع موزون ، ثم تُشخِص قرنًا من تلك القرون ، ثم تلعب وترقص ، ثم تُشخص[1] من تلك الضفائر المرّصعة واحدةً بعد أخرى حتى تنتصبَ كأنها قرونٌ أوابد[2] فى رأسها .

فقلت له : فلعلّ التضفير والترصيع أن يكون شديدَ الفتل ببعض الغِسل[3] والتلبيد ، فإذا أخرجته بالحركة التى تثبتها فى أصل تلك الضفيرة شخصت .

فلم أره ذهب إلى ذلك ، ورأيته يحققه ويستشهد بأخيه .

٣١

نوم الذئب

ويزعم الأعرابُ أن الذئب ينامُ بإحدى عينيه ، ويزعمون أنّ ذلك من حاقّ الحذَر[4] ، وينشد شعر حُميد بن ثور الهلالىّ ، وهو قوله :

ينام بإحدى مُقلتيه ويتقى الـ ـمنايا بأخرى فهو يقظانُ هاجعُ

---

(١) تشخص : ترفع .

(٢) أوابد : منفردات ، وأصل الأوابد الوحش .

(٣) الغسل : مايغسل به الرأس من خطمى وطين وأشنان .

(٤) حاق الحذر : شدته.

وأنا أظنُّ هذا الحديث فى معنى مُدح به تأبط شرًّا :

إذا خاط عينيه كَرَى النوم لم يزَلْ　　له كالئٌ من قلب شيْحان فاتك[١]

ويجعل عينيه ربيئةَ قلبِه　　إلى سلة من حدّ أخضر باتك[٢]

٣٢

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلا خرطومُه الذى هو أنفه وهو يده[٣] ، وبه يُوصِل الطعامَ والشرابَ إلى جوفه ، وهو شىءٌ بَيْنَ الغضروف واللحم والعَصب ، وبه يقاتل ويضرب ، ومنه يصيح . وليس صياحه فى مقدار جرم بدَنه ، ويضرب به الأرضَ ويرفعه فى السماء ، ويصرفه كيف شاء ؛ وهو مقتل من مقاتله .

والهند تربط فى طرفه سيفًا شديدَ المتْن[٤] فيقاتِل به ، مع ما فى ذلك من التهويل على من عاينَه .

٣٣

قدرته على حمل الأثقال

قال : وليس شىءٌ يحمل من عدد الأطفال ما يحمل الفيل ، لأن الذى يفضل فيما بين حمل الفيل وحمل البُخْتى[٥] أكثر من قدر ما يفضلُ بين جسم الفيل على جسم البختى .

وقد قال الأعرابى الذى أدخِل على كسرى ليعجب من جفائه وجهله حين قال له: أى شىء أبعد صوتًا ؟ قال : الجمل . قال : فأى شىء أطيب لحمًا ؟

---

(١) الكالئُ : الحافظ . الشيحان : الجاد فى كل أمر .

(٢) الربيئة : الرقيب . السلة : المرة من سل السيف . جعل السيف أخضر لصفائه . الباتك : القاطع .

(٣) أى لولم يكن إلا هذا لكفى .

(٤) المتن : الظهر .

(٥) البختى : واحد البخاتى ، وهى الإبل الخراسانية ، نسبة إلى خراسان .

قال : الجمل . قال كسرى : كيف يكون الجمل أبعد صَوتًا ونحن نسمع صوتَ الكُرْكى(١) من كذا وكذا ميلا ؟ قال الأعرابى : ضع الكركى فى مكان الجمل ، وضع الجمل فى مكان الكركى حتى يُعرفَ أيهما أبعد صوتًا . قال : وكيف يكون لحم الجمل أطيبَ من لحم البط والدجاج والفراخ والدّراج والنواهض(٢) والجِداء ؟ قال الأعرابى : يطبخ لحم الدجاج بماء وملح ، ويطبخ لحم الجمل بماء وملح حتى يُعرفَ فضل ما بين اللحمين . قال كسرى : فكيف تزعم أن الجمل أحمل للثقل من الفيل والفيلُ يحمل كذا وكذا رطلا ؟ قال الأعرابى : ليبرك الفيلُ ويبرك الجمل ، وليحمل على الفيل حملُ الجمل ، فإن نهض به فهو أحملُ للأثقال .

قال القوم : ليس فى استطاعة الجمال النهوضُ بالأحمال ما يوجب لها فضيلةً على حَمل ما هو أثقل . ولعمرى إن للجمل بلين أرساغه وطُول عنقه لفضيلةً فى النهوض بعد البروك . فأما نفس الثّقْل فالذى بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخِيار .

قالوا : وبفارس ثيران تحمل حِمل الجمل باركةً ثم تنهض به .

٣٤

جسامة الفيل

قال أبو عثمان :

خرجتُ يومَ عيد ، فلما صرْت بعيساباذ(٣) إذا أنا بتل مجلَّل بقُطوع ومقطّعات(٤) ، وإذا رجالٌ جلوسٌ عليهم أسلحتهم ، فسألتُ بعض من يشهد العيد فقلت : ما بال هذه المسلحة(٥) فى هذا المكان وقد أحاطَ الناسُ بذلك

---

(١) الكركى : ضرب من الطير .

(٢) النواهض : فراخ ، إذا تهيأت للطيران .

(٣) موضع كان بشرقى بغداد ، منسوب إلى عيسى بن المهدى .

(٤) مجلل : مغطى . القطوع : نوع من الثياب المزينة . والمقطعات : ثياب عليها وشى .

(٥) المسلحة : الجند فى سلاحهم .

التل ؟ فقال لى : هذا الفيل . فقَصدت نحوَه وما لى همٌّ إلا النظرُ إلى أذنيه ، فرجعتُ عنه بعد طول تأمل وأنا أتوهم عامةَ أعضائه ، بل جميع أعضائه إلاّ أذنيه وما كان لى فى ذلك علةٌ إلاّ شغلَ قلبى بكل شىء هجمتُ عليه منه ، وكله كان شاغلاً لى عن أذنه التى إليها كان قصْدى .

فذاكرتُ فى ذلك سهلَ بن هارون ، فذكر لى أنه ابتلىَ بمثلها ، وأنشدنى فى ذلك بيتين من شعره ، وهما قوله :

أتيتُ الفيل محتسبًا بقصدى ... لأبصرَ أذنه ويطولَ فكرى
فلم أر أذنه ورأيتُ خـَلقًا ... يقرّب بين نسيانى وذكرى[١]

٣٥

حقد الفيل

قال : وأخبرنى رجلٌ من البحريين لم أرَ فيهم أقصَدَ ولا أسدَّ[٢] ولا أقل تكلفًا منه ، قال :

لم أجدْهم يشكون أن فيّالاً ضربَ فيلاً ، فأوجعه فألحّ عليه ، وأنّهم عند ذلك نَهـَوه وخوّفوه وقالوا : لا تنمْ حيثُ ينالك ، فإنه من الحيوان الذى يحقد ويطالب . ولما أراد ذلك السائسُ القائلةَ[٣] شدّهُ إلى أصل شجرة وأحكم وَثاقه[٤] ، ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ، ولذلك السائس جمّة[٥] .

قال : فتناولَ الفيلُ بخرطومه غصنًا كان مطروحًا فوطئ على طَرَفه حتى تشعّث[٦] ثم أخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرفَ على جُمة الهندىّ ثم لواها بخرطومه ، فلما ظن أنها قد تشبكتْ به وانعقدتْ ، جذبَ العودَ جذْبةً فإذا الهندىُّ تحت قوائمه ، فخبطه خبطةً كانت نَفْسه فيها .

---

(١) أى يذهلنى .
(٢) من السداد ، وهو الصواب والاستقامة .
(٣) القائلة : النوم فى نصف النهار .
(٤) الوثاق : الرباط .
(٥) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٦) تشعث : تفرق .

٣٦

أعجب الأشياء

قال . وقال رجلٌ مرةً : أخزى الله الفيلَ فما أقبحه ! فقال بكر بن عبد الله المزنيّ : لا تشتمْ شيئًا جعله الله آيةً فى الجاهلية ، وإرهاصًا للنبوّة !

وقال سعدانُ الأعمى النحويّ : قلت للأصمعيّ : أى شىء رأيتَ أعجب ؟ قال : الفيل :

وقيل لابن الجهم : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : الشم .

وقيل لإبراهيم النظام : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : الروح .

وقيل لأبى شَمِر : أىُّ أمور الدنيا أعجب ؟ قال : النسيان والذكر .

وقيل لسلم الخلال : أى أمور الدنيا أعجب ! قال : النار .

وقيل لبطليموس : أى أمور الدنيا أعجب ؟ قال : بدَن الفلك . وقال مرة أخرى : الضياء .

وقيل لأبى عمرو بن قائد الأسواريّ : أى شىء مما رأيتَ أعجب ؟ قال : الآجال والأرزاق .

وكان إبراهيم بن سيار النظامُ شديدَ التعجب من الفيل .

وكان معبد بنُ عُمر يقول : إن السرطانَ والنعامةَ أكثرُ عجائب من الفيل .

٣٧

حوار بين صاحب الديك وصاحب الكلب

قال صاحب الديك — وذكر الكلبَ فقال : من لؤمه أنه إذا أسمنته أكلك ، وإن أجعته أنكرك . ومن لؤمه اتباعهُ لمنْ أهانه ، وإلفه لمن أجاعه ، لأنه أجهلُ

مِن أن يأنسَ بما يؤنس به ، وأشرَه وأنهمَ وأحرص من أن يذهبَ بمطمعـَته[١] ما يذهب بمطامع السباع .

ومن جهله أيضًا أنا لم نجدْه يحرُس المحسنينَ إليه بنباحه ، وأربابه الذين ربـّوه وتبنوه ، إلاّ كحراسته لمن عرَفه ساعةً واحدة ! بل لمن أذلـَّه وأجاعهُ وأعطشه ، بل ليس ذلك منه حراسةً ، وإنما هو فيه من فضل البـَذَاء[٢] أو الفحش ، وشدّة التحرش والتسرُّع . وإنما ذلك شكل من شكل الجبن ، وكالذى يعترى نساء السِّفلة من الصخـَب .

والكلب جبانٌ وفيه جرْأةٌ ولؤم ، ولو كان شجاعـًا وفيه بعضُ التهييب كان أمثلَ[٣] . ومن فرْط الجبن أنه يفزع من كل شىء وينبحه .

والبرِذَون[٤] ربما رَمـَحَ البرذَون مبتدئـًا ، وقلقَ وصَهلَ صهيلاً فى اختلاط ، وليس ذلك من فضل قوة يجدها فى نفسه على المرموح ، ولكنه يكون جبانـًا فإذا رأى البرذونَ الذى يظن أنه يعجزُ عنه أراه الجبنُ أنه واقعٌ[٥] به ! فعندها يقلق وإذا قلقَ رمح . وهذه العلة تـَعرِض للمجنون ؛ فإن المجنونَ الذى تستولى عليه السوداءُ ربما وثبَ على من لا يعرفه ، وليس ذلك إلاّ لأنّ المرةَ أوهمته أنه يريده بسوء ، وأن الرأىَ أن يبدأه بالضرب . وعلى مثلِ ذلك يرمى بنفسه فى الماء والنار .

قال أبو إسحاق[٦] :

إن أطعمه اللص بالنهار كسرةَ خـُبز خلاَّه ودار حوله ليلا ، فهو فى هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سحت[٧] . وهو مع ذلك أسمجُ الخلق صوتـًا ، وأحمقُ الخلق يـَقـَظةً ونومـًا . ينام النهارَ كلـَّه على نفس الجادَّة[٨] وعلى مدقّ الحوافر ،

---

(١) المطمعة : الطمع .
(٢) البذاء : الفحش . والفضل : الزيادة .
(٣) أمثل ، أى أفضل ، وأشبه بالحق .
(٤) البرذون : الفرس الذى أبواه أعجميان .
(٥) يقال وقع به وأوقع به ، أى بالغ فى قتاله .
(٦) هو إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .
(٧) السحت : الحرام وما خبث من الكسب .
(٨) الجادة : الطريق ، أو وسطه .

وفى كل سوق وملتقىَ طريق ، وعلى سبيل الحمولة(١) ، وقد سَهرَ الليلَ كله بالصياح والصخَب ، والنَّصَب والتعب ، والغيظ والغضب ، وبالمجىء والذهاب ، فيركبه من حبّ النوم على حَسَب حاجته إليه ، فإن وطئته دابةٌ فأسوأ الخلق جزعا ، وألأمه لؤمًا ، وأكثره نُباحًا وعواء . فإن سلم ولم تَطأه دابة ولا وطئه إنسانٌ فليست تتم له السلامة ، لأنه فى حال متوقّع للبلية ، ومتوقعُ البلية فى بلية ، ولأنه الجانى ذلك على نفسه ، وقد كانت الطرق الخالية له معرَّضة ، وأصولُ الحيطان له مباحة .

وبعد فإنّ كل خَلق فارقَ أخلاقَ الناس فإنه مذموم . والناسُ ينامون بالليل الذى جعله الله تعالى سَكَنًا ، وينتشرون بالنهار الذى جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحًا .

* * *

قال صاحب الكلب :

لو شئنا أن نقولَ إن سَهره بالليل ونومَه بالنهار خَصلةٌ ملوكيةٌ لقلنا ! ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملوكُ بذلك أوْلى !

وأمّا الذى أشرتم به من النوم فى الطرق الخالية ، وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق(٢) والسكك العامرة ، وفى الأسواق الجامعة ، فكل امرئ أعلم بشأنه .

ولولا أن الكلبَ يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتّاب من رَضّ عظامه بألواحهم(٣) إذا وجدوه نائمًا فى طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ، ومشيخةٌ(٤) يَرحمون ويزْجرون السفهاء ، وأن ذلك لا يعتريه فى مجامع الأسواق — لقلّ خلافه عليك ، ولَما رَقد فى الأسواق .

---

(١) الحمولة : ما احتمل عليه القوم من بعير حمار ونحوه .

(٢) الطرق الشارعة : هى النافذة.

(٣) الرض : الدق والكسر .

(٤) المشيخة : الشيوخ ، كبار السن .

وعلى أن هذا الخُلق إنما يعترى كلابَ الحرّاس ، وهى التى فى الأسواق مأواها ومنازلها .

وبعدُ فمن أخطأ وأظلمُ ممن يكلف السباع أخلاق الناس وعادات البهائم ؟ وقد علمنا أن سباعَ الأرض عن آخرها إنما تَهِيج وتسرَحُ وتلتمس المعيشة ليلاً ، لأنها تُبصر بالليل . وإنما نام الناسُ بالليل عن حوائجهم ، لأن التمييز والتفصيل والتبين لا يمكنهم إلاّ نهاراً ، وليس للمتعَبِ المتحرك بدّ من سكون يكون جَماماً له (١) . فجعلوا النومَ بالليل لضربين :

أحدهما : لأنّ الليلَ إذا كان طبعه البردَ والركود والخُثورة (٢) كان ذلك أنزعَ إلى النوم وما دعا إليه ، لأنه من شكله .

وأما الوجهُ الآخر فلأنّ الليلَ موحشٌ مَخُوف الجوانب من الهوامّ والسباع ، ولأن الأشياء المبتاعة ، والحاجات إلى تمييز الدنانير والدراهم ، والحبوب والبزور ، والجواهر وأخلاط العطر ، والبز نهاراً (٣) فقادَتهم طبائعهم ، وساقتهم غرائزهم إلى وَضْع النوم فى موضعه ، والانتشار والتصرف فى موضعه ، على ما قدَّر الله تعالى من ذلك وأحبَّه . وأما فى السباع فإنها تتصرَّف وتُبصرُ بالليل ، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرها .

وأما ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنهار وسهرهم بالليل ، فإن الملوك لم تجهلْ فَضلَ النوم بالليل والحركة بالنهار .

ولكنّ الملوكَ لكثرَة أشغالها فضاقَتْ حوائجُها عن مقدار النهار ولم يتَّسع لها ، فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسر المخزون ، وجَمعت المقدَار الفاضلَ على اتساع النهار إلى المقدار الذى لا بدّ للخلوة بالأسرار منه — أخذَتْ من الليل صَدْراً صالحاً ، فلما طال ذلك عليها أعانها المرانُ ، وخفَّ ذلك عليها بالدُّرْبة .

---

(١) الجمام : الراحة .

(٢) الخثورة : الغلظ ، والثقل.

(٣) أى تكون نهاراً . والبز : الثياب .

وقال صاحب الكلب :

أما تركهُ الاعتراض على اللص الذى أطعمه أياماً وأحسنَ إليه مراراً ، فإنما وَجَبَ عليه حفظُ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدهم له . فإذا كان عهدُه ببر اللص أحدَثَ من عهده ببر أهله لم يُكلَّف الكلب النظرَ فى العواقب وموازنةَ الأمور . والذى أضمرَ اللصُّ من البَيَات (١) غيبٌ قد سُتِر عنه ، وهو لا يدرى : أجاء ليأخذ أم جاء ليعطى ، أو هُمْ أمروه ، أو هو المتكلف لذلك ؟ أو لعل أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة ، وبالسبّ والإهانة .

وأما سَماجةُ الصوت فالبغلُ أسمجُ صوتاً منه ، كذلك الطاووس ! على أنهم يتشاءمون به . وليس الصوتُ الحسنُ إلاّ لأصناف الحمام من القماريّ والدباسيّ وأصناف الشّفانين والوراشين (٢) . فأما الأسدُ والذّئبُ وابن آوى والخنزير ، وجميع الطير والسباع والبهائم ، فكذلك . وإنما لك أنْ تذُم الكلب فى الشىء الذى لا يعمّ .

والناس يقولون : ليس فى الناس شىء أقلّ من ثلاثة أصناف : البيان الحسن ، والصوت الحسن ، والصُّورة الحسنة ، ثم الناس بعدُ مختلطون ممتزجون .

وربما كان من الناس ، بل كثيراً ما نجده وصوتُه أقبحُ من صوت الكلب ، فلِمَ تخصون الكلب بشىء عامةُ الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب .

وأما عُواؤه من وطْء الدّابة ، وسوءُ جزعه من ضرب الصبيان ، فجزعُ الفرَس من وَقع عَذَبة السوط (٣) أسوأ من جزَعه من وقعِ حافرِ برذوْن .

---

(١) البيات : أن يوقع بالعدو ليلا .

(٢) جمع قمرية ، ودبسية وشفنين وورشان ، وكلها ضروب من الحمام .

(٣) عذبة السوط : طرفه .

٣٨

قصة فى وفاء كلب

وأنشد أبو الحسن بن خالَوَيه عن أبى عُبيدة لبعض الشعراء :

يعــزّد عنــه جارُه وشقيقــهُ ويَنبش عنه كلبه وهو ضاربه[١]

قال أبو عبيدة : قِيلَ ذلك لأن رجلاً خرج إلى الجَبَّان[٢] ينتظر رِكابه[٣] فاتبعه كلبٌ كان له ، فضرب الكلبَ وطردَه ، وكرهَ أن يتبعه فلما صار إلى الموضع الذى يريدُ فيه الانتظارَ ربضَ الكلبُ قريباً منه[٤] ، فبينما هو كذلك إذْ أتاه أعداءٌ له يطلبونه بطائلة لهم عندَه[٥] ، وكان معه جارٌ له وأخوه دِنْيا[٦] ، فأسلماه وهربا عنه ، فجُرحَ جراحات ، ورُمىَ به فى بئر بعيد القعر ، ثمّ حثىَ عليه التراب ، ثم غطىَ رأسهُ ، ثم كمم فوق رأسه منه[٧] ، والكلب فى ذلك يرخُم ويَهرّ[٨] ، فلما انصرفوا أتى رأسَ البئر ، فما زال يعوى وينبش عنه ويحثو الترابَ بيديه ، ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه ، فتنفّس ورُدت إليه الروحُ ، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه إلا حُشاشة ، فبينما هو كذلك إذ مرّ ناسٌ فأنكروا مكانَ الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبر ، فنظروا فإذا هم بالرجل على تلك الحال ، فاستشالوه[٩] فأخرجوه حيّاً ، وحَملوه حتّى أدّوه إلى أهله .

وهذا العمل يدلُ على وفاء طبيعىّ ، وإلف غريزى ، ومحاماة شديدة ، وعلى معرفة وصبر ، وعلى كرم وشُكر ، وعلى غناءٍ عجيب ، ومنفعة تفوق المنافع ؛ لأن ذلك كلّه من غير تكلف ولا تصنع .

---

(١) التعريد: الإحجام والفرار .
(٢) الجبان والجبانة : المقبرة .
(٣) الركاب : الإبل .
(٤) ربض : ثبت فى مكانه كالبارك .
(٥) الطائلة : العداوة والثأر .
(٦) أى الأدنى فى القرابة .
(٧) كمم : غطى منه : أى من التراب .
(٨) يرخم : يصوت ويعوى . يهر : ينبح .
(٩) أى رفعوه .

٣٩
أدب الكلب

وزعمَ لى غلمانى وغيرُهم من أهل الدرب أنه كان ينبح على كلّ راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذَونه[١] ، سائحًا كان أو صاحبَ دابة ، إلا أنه كان إذا رأى محمدَ بنَ عبد الملك داخلاً إلى باب الدرْب أو خارجًا منه لم يَنبح البتةَ ، لا عليه ولا على دابته ، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق ، ولكنه يدخل الدهليز سريعًا . فسألت عن ذلك ، فبلغنى أنه كان إذا أقبلَ صاح به الخادمُ وهَوَّله[٢] بالضرب ، فيدخُل الدهليز . وأنه ما فَعَلَ ذلك إلاّ ثلاث مرات ، حتى صار إذا رأى محمد بن عبد الملك دخلَ الدهليزَ من تلقاء نفسه ، فإذا جاوَزوثبَ على عراقيب دوابّ الشاكرية[٣] . ورأيت هذا الخبر عندهم مشهوراً .

قال : وكنا إذا تغدّينا دَنا من الخوان ، فرجمناه مرّةً أو مرّتين[٤] ، فكان لا يقربُنا لمكان الرّجم ، ولا يبعد عن الخوان لعلة الطمع ، فإذا ألقينا إليه شيئًا أكلهُ ثمّ ، ودنا من أجل ذلك بعضَ الدُنوّ ! فكنا نستظهِر عليه فنرمى باللقمة فوق مَرْبِضِه[٥] بأذْرع ؛ فإذا أكلها ازداد فى الطمع فقرّبه ذلك من الخوان ، ثم يجوز موضعَه الذى كان فيه . ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عندَه ليصير ما يَظهرُ لنا حديثًا ، لكانَ إطعامُ الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه : أوّلها أن يكون تضريةً مضريةً له ، ودرْبةً مدرّبة[٦] ، حتى إن منها ما يمدّ يدَه إلى ما على الخوان ، وربما تناوَلَ بفيه ما عليه . وهذا كله مما لا ينبغى أن يحضره الرئيس .

---

(١) البرذون : الفرس من أبوين أعجميين . (٢) هوله : أفزعه ، مثل هاله .
(٣) الشاكرية : الجند المستأجرون . (٤) الرجم : الرمى .
(٥) المربض : موضع الربوض والجثوم .
(٦) مدربة فى معنى مضرية . ضراه : جعله يولع بالشىء ويعتاده حتى لايصبر عنه .

٤٠

الكلب الزينى

والكلب الزِّينى[١] الصينى ، يسرَج على رأسه ساعات كثيرةً من الليل فلا يتحرّك . وقد كان فى بنى ضَبَّةَ كلبٌ زينىّ صينى يسرَجُ على رأسه ، فلا ينبض فيه نابض ؛ ويدْعونه باسمه ، ويرمى إليه ببضعة لحم[٢] ، والمِسرْجةُ على رأسه ، فلا يميلُ ولا يتحرّكُ حتى يكونَ القومُ هم الذين يأخذون المصباحَ من رأسه ، فإذا زايَل رأسَه وثب على اللحم فأكله .

دُرّب فَدرب ، وثُقف فثَقِف ، وأدِّب فقبل .

وتعلق فى رقبته الدَّوخلَّة[٣] ، وتُوضَع فيها رُقعة ، ثمّ يمضى إلى البقال[٤] ويجىء بالحوائج .

٤١

صولة الذئب على الغنم مع الصبح

ويقال : إن أكثرَ ما يعرض الذئبُ للغنم مع الصبح ، وإنما رقبَ فترة الكلب وكَلالَه[٥] ؛ لأنه بات ليلتَه دائبًا يحرس .

وقال أعرابىٌّ ، وكسر الذئبُ شاةً له مع الصبح ؛ فقال :

أوَى بوردَةَ أمّ الوَرد ذو عَسَلَ من الذئاب إذا ما راحَ أو بكرا[٦]

---

(١) ضرب من الكلاب قصير القوائم ، شديد الذكاء . يقال بالهمز وترك الهمز .

(٢) البضعة : القطعة من اللحم .

(٣) الدوخلة ، بتشديد اللام وتخفيفها ، وعاء من خوص .

(٤) البقال : بائع البقل ، وهو من النبات ماليس بشجر.

(٥) الفترة : الضعف . والكلال : الإعياء .

(٦) وردة : اسم شاة له . العسل : اضطراب الذئب فى عدوه .

لولا ابنها وسَليلاتٌ لها غرَر ماانفكّت العَيْن تَذْرى دمعها دِرَرا[١]
كأنما الذئبُ إذ يَعدو على غنمى فى الصبح طالبُ وِتر كان فاثّأرا[٢]
اعتامَها ، اعتامه شَثْنٌ براثنه مِن الضَّوارى اللواتى تقصِم القَصرا[٣]

٤٢

قصة أبى الأعز عروة بن مرثد

كان بالبصرة شيخٌ من بنى نهشل يقال له عروة بن مرثد ، نزَلَ ببنى أخت له فى سكة بنى مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرجَ رجالهم إلى ضِياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقيت النساءُ يصلين فى مسجدهم ، فلم يبقَ فى الدار إلا كلبٌ يعس[٤] ، فرأى بيتًا فدخله وانصفقَ الباب[٥] ، فسمع الحركة بعضُ الإماء[٦] ، فظنوا أن لصًّا دَخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبى الأعزّ وليس فى الحىّ رجلٌ غيره ، فأخبرتْه ، فقال أبو الأعز : ما يبتغى اللص منا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إيه يا مَلأمانُ[٧] ! أمَا والله إنك بى لعارفٌ وإنى بك أيضًا لعارف ، فهل أنت إلاّ من لصوص بنى مازن ، شربتَ حامضًا خبيثًا ، حتى إذا دارَت الأقداحُ فى رأسك مَنَّتك نفسك الأمانىّ ! وقلتَ : دورَ بنى عمرو والرجالُ خلوف[٨] ، والنساء يصلين فى مسجدهم فأسرقُهنّ ؟ سَوءةً والله ! ما يفعل هذا الأحرارُ ، لبئسَ والله ما مَنَّتك نفسك ! فاخرجْ وإلاّ دخلتُ عليك فصرمَتك[٩] منى العقوبة! لايْمُ اللهِ[١٠] لتخرجنّ أو لأهتفنّ

---

(١) السليلة : البنت . ذرى دمعه : أساله. والدرر : جمع درة ، عنى بها الدموع الغزيرة .
(٢) الوتر : الثأر . اثأر : أدرك ثأره وتمكن من الانتقام .
(٣) اعتامها : اختارها . الشثن البراثن : الغليظها . والبراثن هى للسباع كالأصابع للإنسان . القصم : الكسر . والقصر : جمع قصرة . ، وهى الرقبة .
(٤) عس واعتس : طاف ليلا. (٥) انصفق : أغلق .
(٦) الإماء : الجوارى ، جمع أمة . (٧) أى يالئيم .
(٨) خلوف ، أى متخلفون غائبون . (٩) صرمتك : قطعتك .
(١٠) لايم الله : قسم بالله .

هـتفةً مشئومةً عليك يلتقى فيها الحيَّان عمرو وحـنظلة ، ويصير أمرك إلى تـباب(١) وتجىء سعدٌ بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا ! ! ولئن فعلتَ لتكونن أشأم مولود فى بنى تميم ! !

فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين وقال : اخرجْ يا بنىَّ وأنت مستور ! إنى والله ما أراكَ تعرفُنى ، ولو عرفتـنى لقد قـنعت بقولى واطمأننتَ إلىّ ، أنا عروة ابن مرثد أبو الأعز المرثدىّ ، وأنا خال القوم وجلدة ما بين أعينهم(٢) لا يعصُوننى فى أمر ، وأنا لكَ بالذّمة كفيلٌ خفير ، أصيرك بين شحمة أذنى وعاتقى لا تُضارّ ، فاخرجْ فأنت فى ذمتى ، وإلاّ فإنّ عندى قوصرَّتين(٣) إحداهما إلى ابن أختى البار الوصول ، فخذْ إحداهما فانتبذْها حلالاً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرقَ(٤) ، وإذا سكتَ وثبَ يُريغُ المخرج(٥) ، فتهافت الأعرابى — أى تساقط — ثم قال : يا ألأمَ الناس وأوضعهم ، ألاَ يأنى لكَ(٦) ! أنا منذ الليلة فى واد وأنتَ فى آخر ، إذا قلتُ لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكتُّ عنك تُريغُ المخرج ! والله لتخرجنّ بالعفو عنكَ أو لألجَنّ عليكَ البيتَ بالعقوبة .

فلما طال وقُوفه جاءت جارية من إماء الحىّ فقالت : أعرابىٌّ مجنونٌ ، والله ما أرى فى البيت شيئًا !! ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شدًّا(٧) ، وحادَ عنه أبو الأعز مستلقيًا ، وقال : الحمدُ لله الذى مسخكَ كلبًا وكفانى منك حربًا ! ثم قال : تالله ما رأيتُ كالليلة ! ما أراه إلا كلبًا ! أما والله لو علمتُ بحاله لولجتُ عليه !

---

(١) التباب : الخسران .
(٢) يقال هو جلدة ما بين العين والأنف ، أى هو مثلها فى مكان العزة والقرب .
(٣) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر .
(٤) أطرق : سكت ولم يتكلم .
(٥) يريغ : يريد .
(٦) أنى يأنى : حان .
(٧) شدًّا : وثبًا وعدوًا .

٤٣
خبث الثعلب والكلب

وحدّثني صديقٌ لى قال :

تعجّبَ أخٌ لنا من خبث الثعلب — وكان صاحِبَ قنْص — وقال لى : ما أعجبَ أمرَ الثعلب ! يفصل بين الكلب والكلاب ، فيحتال للكلاب بما يعلم أنه يجوز عليه ، ولا يحتال مثلَ تلك الحيلة للكلب ، لأن الكلبَ لا يخفى عليه الميت من المغشى عليه ، ولا ينفع عنده التماوُت ، ولذلك لا يُحمل مَن مات من المجوس إلى النار حتى يُدنى منه كلب ، لأنه لا يخفى عليه مغمور الحسّ أحى هو أو ميت ؟ وللكلب عند ذلك عملٌ يستدلّ به المجوس .

قال : وذلك أنى هجمتُ على ثعلب فى مضيق ومعى بُنَىٌّ لى ، فإذا هو ميت منتفخ ، فصددْت عنه ، فلم ألبثْ أن لحقتْنى الكلابُ ، فلما أحسّ بها وثب كالبرق ، بعد أن تحايدَ عن السنن(١) .

فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروف ، وهو أن يستلقىَ وينفخَ خواصرَه ويرفعَ قوائمه ؛ فلا يشكُّ مَنْ رآه من الناس أنه ميت منذُ دهر ، وقد تزكّرَ بالانتفاخ بدنُه(٢) ؛ فكنت أتعجّبُ من ذلك ، إذ مررتُ فى الزقاق الذى فى أصل دار العباسية ، ومَنفذه إلى مازن ، فإذا جَرو كلبٍ(٣) مهزولٌ سيئ الغذاء ، قد ضرَبه الصبيان وعقَروه ؛ ففرَّ منهم ودخلَ الزقاق ، فرمى بنفسه فى أصل أسطوانة(٤) ؛ وتَبِعوه حتى هجموا عليه فإذا هو قد تماوتَ ، فضربوه بأرجلهم فلم يتحرّك ، فانصرفوا عنه فلما جاوَزوا تأملتُ عينيه فإذ هو يفتحهما ويُغمِضهما فلما بعدوا عنه وأمِنَهم عدَا ، وأخذَ فى غير طريقهم .

---

(١) السنن : الطريق المسلوك .

(٢) تزكر : عظم وامتلأ .

(٣) الجرو : ولد الكلب .

(٤) الأسطوانة : السارية ، العمود .

فأذهبَ الذى كان فى نفسى للثعلب ، إذ كان الثّعلبُ ليس فيه إلاّ الروَغان والمكر(١) ، وقد ساواه الكلبُ فى أجوَد حِيلَه .

٤٤

قصة الممهورة

قال الأصمعى :

تزوج رجلٌ امرأةً ، فساقَ إليها مَهرها ثلاثين شاةً ، وبعث بها رسولاً ، وبعث بزِقّ خمر فعَمَد الرسولُ فذبح شاةً فى الطريق فأكلها وشربَ بعض الزق ، فلما أتى المرأةَ نظرتْ إلى تسع وعشرين ، ورأت الزقّ ناقصًا ، وعلمت أن الرجلَ لا يبعثُ إلاّ بثلاثين وزقٍّ مملوء ، فقالت للرسول : قلْ لصاحبك : إن سُحَيمًا قد رُثم(٢) ، وإنّ رسولك جاءنا فى المَحاق(٣) .

فلما أتاه الرسول بالرسالة قال : يا عدوّ الله ؛ أكلتَ من الثلاثين شاةً شاة ، وشربتَ من رأس الزّق !

فاعترف بذلك .

٤٥

مقطعات شتى

قال بعضهم :

وفَلاة كأنما اشتمل اللّيـْ ـلُ على رَكْبِها بأبناء حَام(٤)
خُضْتُ فيها إلى الخليفة بالرقـ ـةِ بَحْرىْ ظهيرةٍ وظلام(٥)

(١) الروغان : الميل وأن يحيد عن طالبه .
(٢) رثم : كسر أنفه .
(٣) المحاق ـــ مثلث الميم : آخر الشهر .
(٤) حام : أبو السودان .
(٥) الرقة : بلد بالعراق .

وقال آخرون :

أودَى الخيارُ من المعاشر كلهم ... واستبّ بعدك ياكليبُ المجلس[١]
وتنازَعوا فى كل أمرٍ عظيمة ... لو قد تكون شهدتَهم لم ينبِسوا[٢]

وأبياتُ أبى نواس ، على أنه مولد شاطر ، أشعر من شعر مهلهل فى إطراق الناس فى مجلس كُلَيب ، وهو قوله :

على خبز إسماعيلَ واقيةُ البخل ... وقد حلّ فى دار الأمان من الأكل[٣]
وما خبزُه إلاّ كآوى يُرَى ابنُها ... ولم تُرَ آوى فى الحُزون ولا السهل[٤]
وما خبزُه إلاّ كعنقاءِ مُغرِب ... تُصَوَّر فى بُسطا الملوك وفى المُثل[٥]
يحدّث عنها الناسُ من غير رؤية ... سوى صُورة ما إن تُمِرّ ولا تُحْلى[٦]
وما خبزُه إلاّ كليبُ بن وائل ... ليالى يحمى عزُّه مَنْبِتَ البَقْل[٧]
وإذا هو لا يستبُّ خصمان عنده ... ولا القول مرفوعٌ بجِدّ ولا هَزْل

٤٦

أعجوبة البصرة

وعندنا بالبصرة فى الذيّان أعجوبة ، لو كانت بالشامات[٨] أو بمصر لأدخلوها فى باب الطِّلَّسم[٩] ؛ وذلك أن التمر يكون مصبوبًا فى بيادر التمر[١٠]

(١) أودى : هلك . استبوا : سب بعضهم بعضاً .
(٢) لم ينبسوا : لم يتكلموا .
(٣) هو إسماعيل بن أبى سهل بن نيبخت .
(٤) ابن آوى : حيوان شبيه بالثعلب .
(٥) عنقاء مغرب : طائر خرافى ، يزعمون أنه يبيض بيضاً كالجبال ، وأنه يخطف الفيلة ، وأنه يعيش ألفى سنة . المثل : جمع مثال ، وهو الفراش .
(٦) أمر وأحلى : صار مراً وصار حلواً .
(٧) كان كليب بن وائل قد جعل مرعى من المراعى حمى له لاترعى فيه إلاإبله .
(٨) أى بلاد الشام .
(٩) الطلسم : ضرب من ضروب السحر .
(١٠) البيدر : الجرن الذى توضع فيه الحبوب ونحوها .

فى شِقِّ البساتين ، فلا ترى على شىء منها ذبابةً لا فى الليل ولا فى النهار ، ولا فى البَرْدَين[1] ، ولا فى أنصاف النهار .

نعم ، وتكون هناك المعاصر[2] ، ولأصحاب المعاصر ظلال ، ومن شأن الذباب الفِرارُ من الشمس إلى الظلّ ، وإنما تلك المعاصرُ بين تمر ورُطبة ، ودِبْس وثجير[3] ، ثمَّ لا تكادُ ترى فى تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار ، ولا فى وقت طلب الذّبان الكِنّ إلا دونَ ما تراه فى المنزل الموصوف بقلة الذّبان .

وهذا شىءٌ يكون موجوداً فى جميع الشِّق[4] الذى فيه البساتين ، فإنْ تحوَّل شىءٌ من تمر تلك الناحية إلى جميع ما يقابلها فى نواحى البصرة ، غشَيه من الذبان ما عسى ألاّ يكون بأرض الهند أكثرُ منه .

٤٧

النظام وعدم إيمانه بالطيرة

وأخبرنى أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ سيار النظامُ قال :

جُعْتُ حتى أكلت الطين ، وما صِرْتُ إلى ذلك حتى قلَّبْت قلبى أتذكر : هل بها[5] رجلٌ أصيبُ عنده غداءً أو عشاء ؟ فما قدرتُ عليه ، وكان علىَّ جُبّةٌ وقميصان ، فنزعتُ القميصَ الأسفلَ فبعتهُ بدريهمات ، وقصدتُ إلى فُرْضة الأهواز[6] أريدُ قصبةَ الأهواز ، وما أعرف بها أحداً . وما كان ذلك إلاّ شيئاً أخرجه الضّجرُ وبعضُ التعرض ، فوافيتُ الفرضةَ فلم أصبْ فيها سفينة ؛ فتطيَّرت من ذلك .

ثم إنى رأيت سفينةً فى صَدْرها خَرْقٌ وهَشْم فتطيرتُ من ذلك أيضاً ، وإذا

---

(١) البردان : الغداة والعشى .
(٢) معاصر التمر ، كانوا يعصرونه لاستخراج الدبس ، وهو عسل التمر .
(٣) الثجير : الثفل .
(٤) الشق : الناحية .
(٥) بها : أى فى الدنيا ، أو فى الأرض .
(٦) الفرضة : محط السفن .

فيها حَمولة(١) فقلت للملاح : تحملنى ؟ قال : نعم . قلت : ما اسمك ؟ قال : داوداذْ — وهو بالفارسية الشيطان — فتطيرت من ذلك .

ثم ركبتُ معه تصكُّ الشَّمالُ وجهى(٢) وتُثير بالليل الصقيعَ على رأسى ؛ فلما قرُبنا من الفُرْضة صِحْت : يا حَمال ! ومعى لحافٌ لى سَمَل(٣) ، ومَضْرَبةٌ خَلَق(٤) ؛ وبعضُ ما لا بد لمثلى منه ، فكان أول حَمال أجابنى أعور ، فقلت لبقار كان واقفاً : بكم تُكْرى(٥) ثَوْرَك هذا إلى الخان ؟ فلما أدناه من متاعى إذا الثورُ أعضَبُ القَرْن(٦) ، فازْدَدتُ طِيَرةً إلى طِيَرة ، فقلت فى نفسى : الرجوعُ أسلمُ لى ! ثم ذكرت حاجتى إلى الطين فقلت : ومن لى بالموت ؟ ! فلما صرت فى الخان وأنا جالسٌ فيه ومتاعى بين يدى وأنا أقول : إنْ أنا خلَّفته فى الخان وليس عندَه من يحفظه فُشَّ الباب(٧) وسُرِق ، وإن جلستُ أحفظه لم يكن لمجيئى إلى الأهواز وَجه .

فبينما أنا جالسٌ سمعتُ قرْعَ الباب ، قلتُ : من هذا عافاك الله تعالى ؟ قال : رجلٌ يريدك . قلت : ومن أنا ؟ قال : أنت إبراهيم . قلت : ومن إبراهيم ؟ قال : إبراهيم النظام . قلت : هذا خنّاقٌ ، أو عدو ، أو رسولُ سلطان .

ثم إنى تحاملتُ وفتحتُ الباب فقال : أرسلنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول : « نحن وإن اختلفنا فى بعض المقالة فإنا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرّية » . وقد رأيتُك حين مررتَ بى على حال كرهتُها منك ، وما عرفتك حتى خبّرنى عنك بعضُ مَنْ كان معى ، وقال : « ينبغى أن يكونَ قد نزَعتْ بك حاجة(٨) ، فإن شئت فأقمْ بمكانك شهراً أو شهرين ، فعسى أن نبعثَ إليك

---

(١) الحمولة : الأحمال .
(٢) تصك : تضرب . والشمال : الريح الشمالية .
(٣) السمل : البالى .
(٤) الخلق : البالية . ويراد بالمضربة الثوب المنسوج من خيط القطن والصوف .
(٥) تكرى : تؤجر .
(٦) أعضب القرن : مكسوره .
(٧) فش القفل : فتحه بدون مفتاح . عن كتاب شفاء الغليل .
(٨) نزعت به : حملته على الهجرة .

ببعض ما يكفيك زمنًا من دَهرِكَ . وإن اشتهيتَ الرجوعَ فهذه ثلاثون ديناراً ، فخذْها وانصرفْ ، وأنت أحق من عذَر .

قال : فهجمَ والله عليّ أمرٌ كاد يَنْقُضُنى [١] ؛ أما واحدة فإنى لم أكن ملكتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً فى جميع دهرى .

والثانية : أنه لم يَطُلْ مقامى وغيبتى عن وطنى ، وعن أصحابى الذين هم على حال أشكلَ بى [٢] ، وأفهمَ عنى .

والثالثة : ما بيَّن لى [٣] من أن الطيَرة باطل . وذلك أنه قد تتابعَ عليّ منها ضروب ، والواحدةُ منها كانت عندهُم مُعْطِبة .

٤٨

ما تضىء عينه من الحيوان

وزعم محمدُ بن الجهم أنّ العيونَ التى تضىء بالليل كأنها مصابيح : عيونُ الأسد والنمور والسنانير والأفاعى .

فبينا نحن عنده إذ دخلَ عليه بعضُ من يجلب الأفاعىَ من سِجستان ، ويعمل التِّرْياق [٤] ، ويبيعها أحياء ومقتولة ، فقال له : حدثهمْ بالذى حدثتنى به من عين الأفعى . قال : نعمْ .

كنتُ فى منزلى نائمًا فى ظلمة ، وقد كنت جمعتُ رءوس أفاع كُنَّ عندى لأرمىَ بها وأغفلتُ تحتَ السرير رأسًا واحداً ، ففتحتُ عينى تجاه السرير فى الظلمة فرأيتُ ضياءً إلاّ أنه ضئيل ضعيف رقيق ، فقلت : عين غول أو بعض أولاد السَّعالى [٥] ؛ وذهبتْ نفسى فى ألوان من المعانى ؛ فقمتُ فقدَحتُ ناراً ، وأخذتُ المصباحَ معى ، ومضيت نحوَ السرير ، فلم أجدْ تحته إلاّ رأس أفعى ،

---

(١) النقض : الهدم . (٢) أشكل بى : أشبه بى وأمثل .

(٣) بين الشىء : بان ووضح . وفى المثل : « قد بين الصبح لذى عينين » .

(٤) الترياق : دواء تعالج به السموم .

(٥) السعلاة : الغول .

فأطفأتُ السراج ونمت ، وفتحتُ عينى فإذا ذلك الضوءُ على حاله ، فنهضتُ فصنعتُ كصنعى الأول ، حتى فعلتُ ذلك مراراً . قال : فقلتُ آخر مرة : ما أرى شيئًا إلاّ رأسَ أفعى ، فلو نحَّيته . فنحَّيته وأطفأتُ السراج ، ثم رجعت إلى منامى ، ففتحتُ عينى فلم أر الضوء . فعلمتُ أنه من عين الأفعى . ثم سألت عن ذلك فإذا الأمر حق ، وإذا هو مشهورٌ فى أهل هذه الصناعة .

٤٩

النمس والثعبان

ثم قد يزعمون أنّ بمصر دويبةً يقال لها « النمس » يتخذها الناطورُ[١] إذا اشتدّ خوفُه من الثعابين ، لأن هذه الدابة تنقبض وتنضم ، وتتضاءل وتستدقّ حتى كأنها قُدَيدة[٢] أو قطعة حَبْل ، فإذا عضَّها الثعبان وانطوى عليها زفَرتْ وأخذَتْ بنفَسِها وزخَرتْ جوفها فانتفخ[٣] ، فتفعل ذلك وقد انطوى عليها ، فتقطعه قِطَعًا من شدة الزخرة .

وهذا من أعجب الأحاديث .

٥٠

تأثير الأصوات

وأمْرُ الصوت عجيب ، وتصرُّفه فى الوجوه عَجَب ، فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ، ومنه ما يسرُّ النفوس حتى يُفْرِطَ عليها السرور فتقلَق حتى ترقص ، وحتى ربما رمى الرجلُ بنفسه من حَالِق[٤] ، وذلك مثل

---

(١) الناطور : حارس الكرم والنخل .

(٢) القديدة : مصغر القدة ، وهى السير من جلد غير مدبوغ .

(٣) زخرت : ملأت .

(٤) من حالق : من مكان شاهق مرتفع .

هذه الأغانى المطربة ، ومن ذلك ما يُكْمِد[١] ، ومن ذلك ما يُزيل العقلَ حتى يُغْشَى على صاحبه ، كنحو هذه الأصوات الشجية والقراءات الملحَّنة . وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى ، لأنهم فى كثير من ذلك لا يفهمون معانى كلامهم . وقد بكى ما سرْجَوَيه[٢] من قراءة أبى الخوخ ، فقيل له : كيف بكيتَ من كتاب الله ولا تصدّق به ؟ قال : إنما أبكانى الشَّجا[٣] .

٥١

خبر وشعر فى الماء

قالوا : مدّ الشعبى[٤] يَده وهو على مائدة قُتَيْبة بن مسلم[٥] يلتمس الشراب ، فلم يَدْرِ صاحبُ الشراب : اللبنَ ، أم العسل ، أم بعضَ الأشربة ؟ فقال له : أىُّ الأشربة أحبُّ إليك ؟ قال : أعزها مفقوداً ، وأهوَنها موجوداً ! قال قتيبة : اسقه ماء .

وكان أبو العتاهية فى جماعة من الشعراء عند بعض الملوك ، إذ شرب رجلٌ منهم ماءً ثم قال : بَرَدَ الماء وطابَ ! فقال أبو العتاهية : اجعله شعراً . ثم قال : من يجيز هذا البيت ؟ فأطرق القومُ مفكرين ، فقال أبو العتاهية : سبحان الله ! وما هذا الإطراق ؟ ثم قال :

بَرَدَ الماء وطابا حَبَّذا الماء شرابا

وقال الله عز وجلّ : « أنهارٌ منْ ماء غَيْرِ آسن[٦] » ، ثم لم يذكره بأكثرَ من السلامة من التغير ، إذ كان الماء متى كان خالصًا سالمًا لم يحتجْ إلى أن يُشْرَبَ

---

(١) يكمد : يحزن . والكمد : الحزن الشديد .

(٢) ماسرجويه : طبيب بصرى يهودى ، وكان أحد المترجمين من السريانية إلى العربية .

(٣) الشجا : الطرب .

(٤) هو أبو عامر بن عبد الله بن شراحيل ، كان من كبار حفاظ الحديث توفى بالكوفة سنة ١٠٣ .

(٥) قتيبة بن مسلم ، كان من عمال الحجاج على الرى ثم خراسان . (٦) آسن : متغير .

بشيء غير ما في خلقته من الصفاء والعذوبة ، والبرد والطيب والحسن ، والسلَس في الحَلق .

وقد قال عدى بن زيد :

لو بغير الماء حَلْقى شرق ٌ كنتُ كالغَصَّان بالماء اعتصارى[١]

وأوصت امرأةٌ ابنتها بوصايا ، فكان منها : « وليكن أطيب طيبك الماء ! »

ومن الأمثال :

فأصبحت مما كان بيني وبينها سوى ذكرها كالقابض الماء باليد

وأخذ المسيحُ عليه السلام في يده اليمنى ماءً وفي يده اليسرى خبزاً فقال : « هذا أبي ، وهذا أمي » . فجعل الماء أبا .

وما ظنكم بشراب إذا خَبُث وملح فصار ملحًا زُعافًا[٢] ، وبحراً أجاجًا ، ولَد العنبر الوَرْد[٣] ، وانسَلَ الدرّ النفيس[٤] ، فهل سمعتَ بنجل أكرم ممن نَجَله ، ومن نتاج أشرَف ممن نَسَله .

وقال الله عزّ وجلّ : « قيل لها ادْخُلي الصرْحَ[٥] فلما رأتهُ حسبته لُجَّةً[٦] وكشَفَتْ عن ساقيها » ! لأن الزجاج أكثرُ ما يمدَح به أن يقال : الماءُ في الفيافى[٧] .

وقال الله عزّ وجل : « هذا عذْبٌ فراتٌ سائغٌ شَرَابُه[٨] » .

وقال القطامى :

وهن يَنْبِذْنَ من قول يُصِبْنَ به مواقعَ الماء من ذى الغُلة الصادى[٩]

وقال الله عز وجل : « واللهُ خلق كلّ دابة منْ ماء » . فيقال : إنه ليس

(١) الاعتصار : أن يغص بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشرب قليلا قليلا .
(٢) ملح زعاف : زائد .
(٣) الورد : الأحمر .
(٤) أنسل : ولد . والدرة : اللؤلؤة العظيمة .
(٥) الصرح : القصر . وكان سليمان قد بنى لبلقيس قصراً من الزجاج ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره .
(٦) اللجة : الماء العظيم .
(٧) الفيافى : جمع فيفاء ، وفيفاة ، وهى الصحراء .
(٨) الفرات : العذب جداً .
(٩) الغلة : حرارة الجوف من العطش . الصادى : الظمآن .

شيء إلا وفيه ماء ، أوقد أصابه ماء ، أوخلق من ماء .

وقال الله تعالى : « وكانَ عرْشهُ علىَ الماء »(١) .

وقال عزّ وجلّ : « ونَزّلنا من السماء ماءً مباركًا » .

وحين اجتهدوا فى تسمية امرأة بالجمال والبركة ، والُحسن والصفاء والبياض ، قالوا : « ماء السماء(٢) » . وقالوا : المنذر بن ماء السماء .

ويقال : صبْغٌ له ماء ، ولونٌ له ماء ، وفلان ليس فى وجهه ماء ، وردّنى فلانٌ ووجهى بمائه . قال الشاعر :

* ماء الحياء يَجُول فى وجَناتِه *

وقالت أم فروة فى صفة الماء :

وما ماءُ مُزْن أىُّ ماء تقولُه ... تحدَّر من غُرّ طوال الذوائب(٣)
بمنعَرَج أو بطن وادٍ تحدَّبتْ ... عليه رياحُ المزْن من كل جانب(٤)
نفى نَسَمُ الريح القَذَى عن متُونه ... فما إنْ به عيبٌ تراه لشارب(٥)
بأطيب ممن يقصُرُ الطرْف دونه ... تقى الله واستحياءُ بعض العواقب(٦)

والأبيضان : الماء واللبن . والأسودان : الماء والتمر .

وسواد العراق : ماؤه الكثير . والماءُ إن كان له عُمقٌ اشتد سوادُه فى العين .

وهو بعدُ طَهورُ الأبدان ، وغَسُول الأدران(٧) .

وقالوا : هو كالماء الذى يطهر كل شيء ولا ينجسه شيء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى بئر رُومة(٨) . : « الماء لا ينجسه شيء » .

(١) أى قبل خلق السموات والأرض .

(٢) به لقبت أم المنذر بن امرئ القيس اللخمى ، وقيل لولدها بنو ماء السماء ، وهم ملوك العراق . وبه لقب عامر بن حارثة الأزدى . قيل لولده بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشام الغساسنة .

(٣) تحدر : سقط . الغر : البيض ، عنى بها السحاب .

(٤) تحدبت : تعطفت . المزن : السحاب .

(٥) القذى : مايقع فى الماء من تراب أوتبن ونحوه . المتون : صفحات الماء .

(٦) يقصره : يحسبه ويكفه . الطرف : العين .

(٧) الأدران : الأوساخ .

(٨) بئر رومة بعقيق المدينة ، اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها .

ومنه ما يكون الملح والبرَد والثلج ، فيجتمع الُحسنُ فى العين والكرمُ فى الصفاء والبياض ، وحسن الموقع فى النفس .

وبالماء يكون القسم ، كقول الشاعر :

غضْبى ولا والله بأهلَهـا ولا أشرَبُ الباردَ أو ترَضى

ويقولون : لو علم فلانٌ أن شرب البارد يضَعُ من مروءته لما ذاقه .

٥٢

بين خلق الحيوان وخلقه

وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعَة البدن ، ثم لا يذكر بعد حسن الخَلْق بخُلُق كريم ، ولا حِسٍّ ثاقب(١) ، ولا معرفة عجيبة ، ولا صنعة لطيفة .

ومنه ما يكونُ كالببغاء والنحلة ، والحمامة والثعلب ، ولا تكون الأعجوبة فى تصويره وتركيب أعضائه وتنضيد ألوان ريشه فى وَزْن تلك الأشياء التى ذكرناها ، أو يكون العَجَب فيما أعطِىَ فى حَنْجَرته من الأغانى العجيبة ، والأصوات الشجيَّة المطربة — والمخارج الحسنة — مثلَ العجبِ فيما أعطِىَ من الأخلاق الكريمة ، أو فى صنعة الكف اللطيفة ، والهداية الغريبة ، أو المِرْفق النافع(٢) ، أو المضرة التى تدعو إلى شدة الاحتراس ودقة الاحتيال ، فيقدَّم فى الذكر لذلك .

وأى شىء أعجبُ من العَقْعَق(٣) وصدْق حِسه ، وشدة حذَره ، وحُسْنِ معرفته ؟ ثم ليس فى الأرض طائرٌ أشد تضييعًا لبيضه وفرخه منه .

والُحبَارى مع أنها أحمق الطير تحوطُ بيضهَا أو فراخها أشدَّ الحياطة ، وبأغمض معرفة ، حتى قال عثمان بن عَفان : كل شىء يحب ولدَه حتى الحبارى ! يضربُ بها المثل فى المُوق(٤) .

ثم العَقْعَق مع حذْقه بالاستلاب وبسرعة الخَطف لا يستعمل ذلك إلا فيما

(١) الثاقب : الصادق ، وأصله النافذ . (٢) المرفق : كل ما استعين به .
(٣) العقعق : طائر على قدر الحمامة وفى شكل الغراب طويل الذنب . يقال فى المثل «ألص من عقعق»
(٤) الموق : الحمق .

لاَ ينتفع به ، فكم من عِقْد ثمين خطير ، ومن قُرْط شريف نفيس ، قد اختـَطفَ من أيدى قوم ، فإما رمى به بعد تحلقه فى الهواء ، وإما أحرزَه ولم يلتفتْ إليه أبداً .

وزعم الأصمعىُّ أنَ عقعقاً استلب سِخَابا(١) كريمًا لقوم ، فأخذَ أهلُ السخاب أعرابيةً كانتْ عندهم ، فبينما هى تضربُ وتسحبُ وتُسَبّ ، إذْ مر العقعقُ والسِّخَابُ فى منقاره ، فصاحوا به فرمى به ، فقالت الأعرابيةُ — وتذكرت السلامة بعد أنْ كانت قد ابتليتْ ببلية أخرى :

ويوم السِّخاب من تعاجيب ربّنا كما أنه من بلدة السوء نجّانى

تعنى الذين كانت نزلتْ بهم من أهل الحاضرة .

٥٣

مما قالوا فى السر

قال ابن مَيَّادة :

أتُظْهِرما فى الصدرأم أنت كاتمه وكتمانُه داءٌ لمن هو كاتمُه

وإضمارُه فى الصدر داءٌ وعلةٌ وإظهاره شُنعٌ لمن هو عالمه(٢)

وتقول العرَب : من ارتادَ لسره فقد أشاعه(٣) !

وأرى الأول(٤) قد أذن فى واحد ، وهو قوله :

وسرُّك ما كانَ عند امرئٍ وسِرُّ الثلاثة غيرُ الخفِى

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثلَ الأول :

فلا تُفْشِ سِرَّكَ إلا إليكَ فإنّ لكل نَصِيح نصيحا(٥)

فإنى رأيتُ غُواةَ الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا(٦)

(١) السخاب : القلادة لاجوهر فيها . (٢) الشنع : القبح والفظاعة .
(٣) ارتاد : بحث لسره عمن يودعه لديه . (٤) أى الشاعر القديم .
(٥) النصيح : المخلص . عنى أن السر ينتقل فى الإخوان وإخوان الإخوان وهكذا .
(٦) الغواة : جمع غاو ، وهو الضال الفاسد . الأديم : الجلد.

وقال مسكينٌ الدرامى :

إذا ما خليلى خاننى وائتمنته … فذاك وداعيه وذاك وداعها (١)
رددتُ عليه وُدّه وتركتها … مطلّقةً لا يستطاع رجاعُها
وإنى امرؤٌ منى الحياءُ الذى ترى … أعيشُ بأخلاق قليل خداعُها
أواخى رجالا لستُ مُطلِعَ بعضهم … على سِرّ بعض غير أنى جماعُها (٢)
يظلون شتّى فى البلاد وسِرُّهم … إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعها (٣)

وقال أبو محجن الثقفى :

وقد أجودُ وما مالى بذى فنَعٍ … وأكتمُ السرّ فيه ضربةُ العُنُقِ (٤)

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من كتمَ سره كانَ الخيارُ فى يده » .

وقال بعضُ الحكماء : « لا تطلع واحداً من سرك إلا بقدر ما لا تجدُ فيه بدًّا من معاونتك » .

وقال آخر : إنّ سرك من دمك، فانظرْ أين تريقُه !

وقال الآخر :

فإذا استودعْتَ سِرًّا أحدا … فقد استودعتَ بالسر دمك

وقال قيس بن الخطيم :

وإنْ ضيعَ الإخوانُ سِرًّا فإننى … كتومٌ لأسرار العشير أمينُ
يكونُ له عندى إذا ما ائتمنتهُ … مكانٌ بسوداء الفؤاد مكينُ (٥)

وقيل لمزبّد (٦) : يا مزبّد ، ما هذا الذى تحتَ حِضْنك ؟ فقال : يا أحمق ، فلِمَ خبأته ؟ !

---

(١) وداعيه ، أى وادع الخليل . وداعها ، أى وداع الزوجة .
(٢) الجماع : اسم لما يجمع به الشىء .
(٣) شتى : متفرقين . الانصداع : الانشقاق .
(٤) الفنع : كثرة المال .
(٥) سوداء الفؤاد : باطنه . مكين من التمكن .
(٦) مزيد المدينى : من مشهورى أصحاب النوادر والفكاهة.

وقال أبو الشيص :

ضَع السرّ فى صمّاء ليسَتْ بصخرة صَلود كماعاينتَ من سائر الصَّخْرِ (١)
ولكنها قلبُ امرئ ذى حَفيظة يرى ضَيعة الأسرار هتراً من الهتْرِ (٢)
يموت وما ماتت كرائم فِعْلِه ويَبْلَى وما يبلى نَثَاه على الدهر (٣)

وقال سُحَيمٌ الفقعسى فى نَشْر ما يودَع من السرّ :

ولا أكتمُ الأسرارَ لكِنْ أذيعها ولا أدَعُ الأسرارَ تغلى على قلبى
وإنّ قليل العقل مَنْ بات ليلةً تقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنب ! !

وكان أبو إسحاق إبراهيمُ بن سيار النظامُ أضيقَ الناس صَدراً بحمل سرّ ، وكان شرّ ما يكونُ إذا يؤكدُ عليه صاحب السرّ ، وكان إذا لم يؤكد عليه ربما نسىَ القصةَ فيسلم صاحبُ السرّ .

وقال له مرة قاسمٌ التمار : سبحانَ الله ، ما فى الأرض أعجبُ منك ! أودعتُك سرًّا فلم تصبر عن نَشْره يومًا واحداً ، والله لأشكونكَ للناس ! !

فقال : يا هؤلاء ، سلوه ، نممتُ عليه مرةً واحدة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا ، فلمن الذنب الآن !

فلم يرضَ بأن يشاركه فى الذنب حتى صَيَّر الذنْبَ كله لصاحب السرّ .

وقال رجلٌ من بنى سعد :

إذا ما ضاق صدرُكَ عن حديث فأفْشَتْه الرجالُ فمَنْ تلُومُ
إذا عاتبتُ منْ أفشَى حديثى ، وسِرّى عندَه فأنا الظلومُ
وإنى حين أسأم حَمْل سرى وقد ضمَّنْتُه صدرى سَئُومُ
ولستُ محدثًا سِرِّى خليلاً ولا عِرْسى إذا خطرَتْ همومُ
وأطوِى السر دونَ الناسِ إنى لمَا استُودِعْتُ مِنْ سرّ كتُوم

---

(١) صلود : صلبة .
(٢) الهتر ، بالفتح : مزق العرض ، وبالكسر : الباطل والخطأ فى الكلام ، وبالضم ذهاب العقل من كبر أومرض أو حزن .
(٣) النثا ، بتقديم النون : ماأخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء .

٥٤

مثل الشيخ والعصفور

وفى المثل أن شيخاً نصبَ للعصافير فَخًّا ، فارتَبْنَ به وبالفخّ[١]، وضربه البردُ ، فكلما مشى إلى الفخّ ، وقد انضم على عصفور فقبض عليه ودقّ جناحَه[٢] وألقاه فى وِعائه ، دمعت عينُه مما كان يصك وجهه من بَرْدِ الشمال[٣] .

فتوامرت العصافيرُ بأمره[٤] ، وقلن : لا بأس عليكن ، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيم رقيق الدمعة ! فقال عصفورٌ منها :

« لا تنظروا إلى دموع عينيه ، ولكن انظروا إلى عمل يديه » .

٥٥

الضفادع

وأنا ذاكرٌ من شأن الضفْدع من القول ما يحضرُ مثلى ، وهو قليلٌ فى جنب ما عند علمائنا . والذى عند علمائنا لا يحَسُّ فى جنب ما عند غيرهم من العلماء ، والذى عند العلماء قليل فى جنب ما عند الأنبياء ، والذى عند الأنبياء قليلَ فى جنب ما عند الله تبارك وتعالى .

من ذلك : الضِّفدع لاَ يصيحُ ولا يمكنه الصياح حتى يُدْخِلَ حنَكه الأسفل فى الماء ، فإذا صار فى فمه بعضُ الماء صاح ، ولذلك لا تسمع للضفاع نقيقاً إذا كُنّ خارجات من الماء .

---

(١) ارتبن ، من الريبة ، وهى الشك .

(٢) دق جناحه : كسره .

(٣) يصك : يضرب . والشمال : الريح الشمالية .

(٤) توامرت : تآمرت ، أى تشاورت .

والضفادعُ من الحيوان الذى يعيش فى الماء ، ويبيض فى الشط . مثل الرّقّ[١] والسلحفاة ، وأشباه ذلك .

والضفادع تَنِق فإذا أبصرت النار أمسكت .

وفيها أعجوبة أخرى ، وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذى لا يحصَى فى غِبّ المطر[٢] إذا كان المطر ديمةً[٣] ، ثم نجدها فى المواضع التى ليس بقربها بحرٌ ولا نهر ، ولا حوض ولا غدير ، ولا واد ولا بير ، وتجدها فى الصحاصح الأماليس[٤] ، وفوق ظهور مساجد الجماعة ، حتى زعم كثير من المتكلفين ومن أهل الجسارة ممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء ، ولا يكترثُ للشكّ ، أنها كانت فى السحاب .

والضفادع من الخلْق الذى لا عظامَ له .

وتزعم الأعراب أن الضفْدَع كان ذا ذنب ، وأن الضبّ سلبه إياه ، وذلك فى خُرافة من خرافات الأعراب .

ويقول آخرون : إن الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذَنب ، فإذا خرجت له يدان أو رجلان سقط .

والأسدُ تنتابها فى الشرائع[٥] وفى مناقع المياه والآجام والغياض[٦] فتأكلها أكْلاً شديداً . وهى من الخلق المائىّ الذى يصبر عن الماء أياماً صالحة .

والضفادع تعظُم ولا تَسْمَن ، كالدُّرّاج والأرانب ، فإنّ سِمَنهما أن يحتملا اللحم .

وفى سواحل فارس ناسٌ يأكلونها .

---

(١) الرق ، بفتح الراء : العظيم من السلاحف المائية .

(٢) غب المطر ، أى بعده .

(٣) الديمة : المطر الدائم لاينقطع .

(٤) الصحاصح : جمع صحصح ، وهو الأرض الجرداء المستوية . والأماليس جمع أملس ، وهى التى ليس بها شجر ولا كلأ ولا نبات ولا وحش .

(٥) جمع شريعة ، وهى مورد الماء .

(٦) الأجمة : الشجر الكثير الملتف . والغيضة : مجتمع الشجر فى الماء القليل .

٥٦

صيد طير الماء

وسألتُ بعضَ من اصطاد فى يوم واحد مائةَ طير من طير الماء فقلت له : كيف تصنعون ؟ قال : إنّ هذا الذى تراه ليس صَيد يوم واحد ، وإنّ كلّه صيدَ فى ساعة واحدة . قلت له : وكيف ذاك ؟ قال : وذلك أنا نأتى مناقع الماء ومواقعَ الطير ، فنأخذ قَرْعةً يابسة صحيحةً فنرمى بها فى ذلك الماء ، فإذا أبصرها الطير تدنو منه بدَفع الريح لها فى جهته مرةً أو مرتين فَزِع ، فإذا كثر ذلك عليه أنِسَ ، وإنما ذلك الطير طير الماء والسمك[١] فهى أبداً على وجه الماء . فلا تزال الريح تُقَرّبها وتباعدها ، وتزداد هى بها أنْسًا ، حتى ربما سقط الطائرُ عليها ، والقرعة فى ذلك إما واقفة فى مكان ، وإما ذاهبة وجائية ، فإذا لم نرَها تَنْفِر منها أخذْنا قرعةً أخرى ، أو أخذناها بعينها وقطعنا موضع الإبريق ، منها[٢] ، وخرقنا فيها موضع عينين ، ثم أخذَها أحدُنا فأدخل رأسه فيها ثم دخل الماء ، ومشَى فيه إليها مشيًا رُوَيداً ! فكلما دنا من طائر قبضَ على رجليه ثم غمسه فى الماء ودقّ جناحه وخلّاه ؛ فبقىَ طافيًا فوق الماء يسبح برجليه ولا يطيق الطيران ، وسائرُ الطير لا ينكرُ انغماسه . ولا يزال كذلك حتى يأتىَ على آخرِ الطير ، فإذا لم يبقَ منها شىءٌ رمى بالقرْعة عن رأسه ، ثم نلقطها ونجمعها ونحملها .

---

(١) أى طير السمك ، الذى يغتذى بالسمك .
(٢) أراد به طرفها الدقيق .

مقتطفات

من كتاب البيان والتبيين

للجاحظ

تقديم

إن دأب الجاحظ فى تأليفه أن يرسل نفسه على سجيتها ، فهو لا يقيد بنظام محكم يترسمه ، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه ، ولذلك نراه يبدأ الكلام فى قضية من القضايا ، ثم يدعها فى أثناء ذلك ليدخل فى قضية أخرى ثم يعود إلى ما أسلف من قبل .

وقد كانت هذه سبيل كثير من علماء دهره . كما أن علو سنه وجدة التأليف فى تلك الأبحاث التى طرقها ، كل أولئك كان له شفيعاً فى هذا الاسترسال والانطلاق .

وكان أبو عثمان يشعر بذلك ويعتذر عنه أحياناً ، فهو يقول عند الكلام على البيان .

« وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير » .

وهو يعد فى أواخر الجزء الأول من كتابه أن يتكلم فى الجزء الثانى على طعن الشعوبية على العرب فى اتخاذ المخصرة[1] ثم يحاول الوفاء بما وعد فى الجزء الثانى ، ولكنه يرى أن الفرصة لم تسنح له بعد ، فيعتذر بقوله : « ولكنا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين » ؛ ويمضى الجزء الثانى بأكمله ولا يستطيع صاحبنا الوفاء بما وعد به إلا فى صدر الجزء الثالث من الكتاب .

(١) المخصرة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها .

مباحث الكتاب

نستطيع أن نرد مباحث الكتاب وقضاياه إلى الضروب التالية :

١ ــ البيان والبلاغة . ٢ ــ القواعد البلاغية .
٣ ــ القول فى مذهب الوسط . ٤ ــ الخطابة .
٥ ــ الشعر . ٦ ــ الأسجاع . ٧ ــ نماذج من الوصايا والرسائل .
٨ ــ طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم .
٩ ــ عرض لبعض كلام النوكى والحمقى ونوادرهم .
١٠ ــ ضروب من الاختبارات البلاغية .

* * *

البيان والبلاغة :

تحدّث الجاحظ فى تعريف البيان ، وساق فى تفصيل أنواع الدلالات البيانية من اللفظ والإشارة والعقد والنُّصْبة. وعقد أبوابًا لمدح اللسان والبيان ، وصنع موازنةً بين لغة العامة والحضريين والبدويين ، ونوّه تنويهًا بصحة لغة الأعراب فى عصره ، ورَوَى مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم ، وتحدث فى لُكْنَة النبط والروم ، وعرّض نماذجَ من كلام الموالى ، وعَقَدَ فى الجزء الثانى بابًا للحن وأخبار اللحانين ، بعد أن تكلم فى الجزء الأول على اللحن ومتى يُسْتَمْلَح ومتى يُسْتَهجن . وفى الجزء الثانى عرضَ صُوراً من صور العِيّ والحَصَر ، وبسط مذهبًا له فى وجوب أداء القصص والنوادر كما هى ، إن معربةً فمعربة ، أو ملحونة فملحونة ، زاعمًا أن الإعراب يفسد نوادر المولدين .

ولم يَنْسَ أن يسوق فى صدر كتابه طائفة من الآيات التى تنوه بشأن البيان والبلاغة ، ثم يعيد الكرة فى الحث على البيان والتبيين ، إذ يقول : « وأنا أوصيك ألا تدعَ التماسَ البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة » .

وهو لا يُغفِل أن يتكلم فى مخارج الحروف ويبين أثر سعة الشِّدْق ، وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها فى البيان ، وكذلك أثر لحم اللثة ، وكذا أثر سقوط الأسنان ، وينقل قول محمد الرومىّ : « قد صَحَّت التجربة وقامت العِبرة على أنّ سقوطَ جميع الأسنان أصلحُ فى الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها » .

ويعقد بابًا للحروف التى تدخلها اللثغة ، ويبيِّن أىّ لثغة أشنع وأيها أظرف . ولعل الذى دفعه إلى ذلك ما كان معروفًا من لُثغة واصل بن عطاء المعتزلى الذى حاول أن يعتذر له ، وأن يجعل لهذا النقص الذى كان يتغلب عليه كمالاً وعبقرية يسوق فيها الدليلَ أثرَ الدليل .

وهو كذلك يروى طائفةً صالحةً من أخبار البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمراء ، ومَنْ جمع بين الخطابة والشعر . ويعرضُ نماذج من كلام الرسول فى صَدْر الجزء الثانى ، كما جعل بابًا للغز فى الجواب فى ذاك الجزء .

فإذا ما حاول الكلامَ فى البلاغة ، وهى المرتبة التى فوق البيان ، ذهبَ يسرُد تعريفها عند الفُرس والروم والهند والأعراب ، وأعلام البلغاء كالعَتابى ، وسَهل ابن هارون ، وعمرو بن عُبَيد ، وابن المقفع . ثم لا يرضيه ذلك حتى يظفر بترجمة لصحيفة هندية ترسم حدودَ البلاغة وتبين أصولها .

ولم يتعرض لمسائل البلاغة التى عُرِفت فيما بعد ، إلا ما قدم من كلام فى تنافر الحروف وائتلافها ، وكذلك وجوب مراعاة مقتضى الحال . وهو يتكلم فى الإيجاز والإطناب ، ويعين المواضعَ الصالحةَ لكلّ منهما . ويروى لنا الشعر الذى يمدح فيه الشعراء الإيجاز ، ويتكلم فى المشاكلة البديعية ، ويعرض فيها أمثلة من القرآن الكريم .

مذهب الوسط :

يستطيع المتصفح لهذا الكتاب أن يلمح للجاحظ مجهوداً طريفًا ، فهو قد عقد بابًا للصمت والحثّ عليه ، ويحكى أقوالَ المعارضين لأصحاب الفصاحة والبلاغة الذين يفضلون هذا الصمت . ويخصص بابًا آخر يقذف فيه بطائفة من

كلام المعربين وأصحاب التقعير ، وأبوابًا أخرَ فى مديح اللسان وشدة العارضة .

ولكنه لا يُرضيه هؤلاء ولا أولئك ، بل يرى أنّ كلا منهما قد جنحَ إلى غير الصواب ، وأن الصواب والخيرَ كله فى إصابة القَدْر[١] فى الكلام ، وأن تكون الألفاظ والمعانى أوساطًا بين بين .

الخطابة :

وقد عُنِى الجاحظ بهذا الفن عناية خاصة . ولا غروَ ، فالخطابة دعامةٌ من دعائم الدعوة ، وكان المعتزلة يلجئون إلى الخطابة والجدال فى تأييد أمرهم وبيان مذاهبهم ومقالاتهم ، فهو يرسمُ للخطابة أدبًا يستحسن فيه أن يقتبس من القرآن والشعر ، ويُبَيِّن ما ينبغى اتباعه فى ضروب من الخطب ، كخطبة الزواج ، وما تتطلبه الخطابة من الجهر بالقول وترفيع الصوت ، ذاكراً فى ذلك الخبر والمثلَ ، ومَنْ عُرِف بجهارة الصوت . وهو يسترسل فيذكر أن الرومَ أهلُ جهارة ، وينقل خبراً غريبًا : « لولا ضَجَّة أهل رُومية وأصواتهم لسمع الناسُ جميعًا صوت وجوب القُرْص فى المغرب[٢] » .

ويتكلم فى الدمامة ومَدَى أثرها فى قدر الخطيب والشاعر ، ويتعرّض للخلاف فى تأثير حركة الخطيب وإشارته ، أو سكونه وهدوء جوارحه ، فى سامعيه . ويتكلم فى استعمال المخاصر والعصى فى الخطبة وطعن الشعوبية على العرب فى ذلك ، ويذكر أسماء الخطباء وقبائلهم وأنسابهم ، وأخبار خطباء الخوارج خاصة ، كما سرد فى باب خاصّ أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان ، وكما نَوّه بخصلة إياد وتميم فى الخطب .

وهو فى أثناء ذلك يسرد مختارات من خطب الرسول والخلفاء الراشدين ومَنْ بعدهم ، وكذا خطب رجالات الخوارج وأهل الدعوة .

---

(١) أى القدر المناسب .

(٢) السقوط . يعنى قرص الشمس .

الشعر :

والشعرُ وسيلةٌ من وسائل البيان ، ومعرض من معارض البلاغة ، وله مِيْسَمٌ[١] يبقى على الدهر فى المدح والهجاء ، وله أوزانٌ لا بد منها ، ولا بد من القصد إليها ، فمن جاء كلامُه على وزن الشعر ولم يتعمَّد هذا الوزن فليس كلامُه بشعر ، فقد ورد فى القرآن وفى الحديث كلامٌ موزون على أعاريض الشعر ، ولكنه لا يسمى شعراً . ومن يجمع بين الشعر والخطابة قليل . وليس ينبغى للقصيدة أن تكون كلها أمثالاً وحِكَماً ، فإنها إذا كانت كذلك لم تَسِرْ ولم تَجْرِ مجرى النوادر . وفى المولدين شعراء مطبوعون .

وللشعراء رسوم وتقاليد خاصة . وقد كان بعض أبيات الشعر سبباً من أسباب تسمية الشاعر . والشعرُ خير الرسائل لتخليد الإنتاج الفنى ، « فما تكلمت به العربُ من جَيِّد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره » .

السجع :

وهذا الفن من البيان يُثير خلافاً بين العلماء والأدباء ، فهناك حديث : « أسْجع كسَجْع الجاهلية» ؟ فهو فى ظاهره حجة لمن يرفض استعمال هذا الفن ويستهجنه ، وهو عند التأويل محمولٌ على السجع الذى يراد به إبطال الحقّ .

على أن من الأدباء من يرى أنّ السجع إنما كان منهيّاً عنه فى بدء الإسلام لقُرْب عهدهم بالجاهلية ، حيث كان السجع يجرى فى مجرى الكهانة والرّجْم بالغيب ، فلما زالت العلة زال التحريم . ولهذا شبيهٌ فى النهى عن مرثية ابن أبى الصلت لقَتلى بَدْر فى أول الأمر ، فلما زالت العلة زال النهى

الرسائل والوصايا :

ولقد كانت الرسائل والوصايا مظهراً من مظاهر البيان العربى ، فهو ينثر فى

---

(١) الميسم : االوسم والعلامة .

تضاعيف كتابه قَدْراً صالحًا مختاراً منها ، لتكون إمامًا يحتذَى ، وقالبًا يصاغ عليه القول .

النساك والقصاص :

وللنساك حظٌ وافر من عناية الجاحظ فى الكتاب ، فهؤلاء النساك الروحيون قد نبغ منهم نوابغُ فى البيان ، فهمْ قومٌ قد لانت ألسنتهم ودقّ إحساسهم ، بما حفظوا من كلام الله وحديث الرسول . وهم قد تصدّوْا لوعظ العامة والتأثير فيهم ببليغ القول وحسن المحاضرة ، وكانت لهم جولات فى مساجد البصرة والكوفة حيث كانت تُؤْثَرعنهم الحكمة وتروَى العِظَة ويتناقل البيان الرفيع .

وأما القصّاص فقد كانت صناعتهم تقتضيهم العنايةَ بقوّة البيان وحسن الأداء ، وكانوا ذوى فصاحة وبلاغة . فمنهم موسى بن سيّار الأسوارى « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العربُ عن يمينه والفرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية ، فلا يدرَى بأى لسان هو أبين » .

لذلك ولهذا كتب الجاحظ فصلاً فيه ذكر النساك والزهاد من أهل البيان ، وآخر لذكر القُصّاص ، كما روَى طائفةً من كلام النساك، ومقطعات من كلام القصاص ، كما خصّص فى الجزء الثالث من الكتاب بابًا كبيراً فى الزهد ساق فيه مواعظ عيسى وداود عليهما السلام ، ومواعظ الحسن وغيره من النساك ومن زهاد البصرة والكوفة ، وأتبع ذلك بمختارات من دعاء السلف الصالح والأعراب والنساك .

النوْكى والحمقى :

والجاحظ ذلك المَرِح الضاحك ، لا يفتأ يعجب الناس من هذا الخلق الطريف أولئك الذين شاء الله أن يكونوا مصدر عبرة وموعظة ، كما شاء أن يكونوا مصدر عزاء وتَسْرية عن النفس . هؤلاء النوكى والحمقى قد يتفق لبعضهم من البيان

الساخر ومن التبيين العجيب ما يكون فى الصدر المقدم من حسن التعبير وجميل التعليل ، كما يتفق لبعضهم أن يريد البيان فيخطئ خطأ ظاهراً أو خفياً فيكون كلامه عُواراً جديراً بأن ينبه الجاحظ على التحذير منه ، وبأن يكشف عما به من خَطَل ومجانبة للصواب ، كما صنع ذلك فى باب العيّ .

الاختيارات :

والجاحظ بين الفَيْنة والأخرى يوشى كتابه بالجيد المتخير من النثر والشعر ، ولا سيما فى الجزأين الثانى والثالث تطالعك الأبيات الحسان ، والفِقَر المستملحة ، فمنها ما يكون شاهداً لما يبغى أن يدعمه ويؤيده من قضايا البيان ، ومنها ما يرويه ليكون للحفظ والمذاكرة .

وقد روى طائفةً من مختارات المراثى ومن الخمريات ، ومن هجاء البرامكة ومديحهم ، ومما قيل فى الشيب ومما حوى الحكمة والزهد ، وروى كذلك كثيراً من أقوال الأعراب ونوادرهم ، وطائفة من أدب بنى العباس ، ومجموعةً من قِصار الخطب وطوالها ؛ ومتنخل الرسائل والوصايا ، كما سبق القول .

تقدير الكتاب :

أهدى الجاحظ كتابه هذا إلى الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ ، وقد أجازه على ذلك بخمسة آلاف دينار .

وعُرِف الكتاب قديماً ونال شهرة عظيمة وتقديراً فى حياة مؤلفه وبعد حياته كذلك .

وفيه يقول أبو هلال العسكرى فى كتاب « الصناعتين » عند الكلام على كتب البلاغة : « وكان أكبرها كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جَمّ المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نَبَّهَ عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة . إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام

البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالّة بين الأمثلة ، ولا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفّح الكثير » .

وابن رشيق صاحب كتاب العمدة ، يقول فى باب البيان من كتابه : « وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ — وهو علاّمة وقته — الجهدَ ، وصنع كتابًا لا يُبلغ جودةً وفضلاً » .

أما ابنُ خلدون فيقول فى مقدمته المشهورة : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهى أدب الكتاب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى . وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها ، وفروعٌ عنها » .

المختار من كتاب البيان والتبيين

١

من مقدمة الكتاب

اللهم إنا نَعُوذ بك من فِتْنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهذَر[١] كما نعوذ بك من العِىِّ والحصر[٢] . وقديمًا ما تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما .

وقد قال النمرُ بن تولب :

أعِذْنى ربِّ من حَصَرٍ وعىٍّ ومن نَفْس أعالجها علاجا

وقال الهذَلىّ :

ولا حِصِرٌ بخطبتِه إذ ما عَزّت الخطبُ[٣]

٢

لثغة واصل بن عطاء

لما علم واصلُ بن عطاء[٤] أنه ألثَغُ فاحش اللَّثَغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ، وأنه إذ كان داعية مقالة ورئيس نِحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ،

(١) السلاطة : حدة اللسان والصخب ، والهذر : كثرة الكلام فى الخطأ .

(٢) العى : العجز عن الكلام . ومثله الحصر .

(٣) عزت : غلبت أصحابها .

(٤) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلى ، وكان يجلس إلى الحسن البصرى ، فلما ظهر الخلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون إن فسقوا بالكبائر ، خرج واصل عن الفريقين وقال : إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، بل هو بمنزلة بين المنزلتين . فطرده الحسن من مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس إليه عمرو بن عبيد ، فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون . ولد سنة ٨٠ وتوفى سنة ١٨١ .

وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب، وتُثْنى إليه الأعناق، وتزيَّن به المعانى. وعَلِمَ واصلٌ أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوّة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى وطابَع النبوة، ومع المحنة[1] والاتساع فى المعرفة، ومع هَدْى النبيين وسَمْت المرسلين، وما يَغشّيهم الله به من القبول والمهابة، ولذلك قال بعض شعراء النبى صلى الله عليه وسلم:

لو لم تكن فيه آيات مبيِّنة كانت بداهتُه تُنْبيك بالخبَر

ومع ما أعطى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلامُ من الحجة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حلّ الله تلك العقدة، وأطلق تلك الحُبسة، وأسقط تلك المحنة.

ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة — رام أبو حُذَيفة[2] إسقاطَ الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه. فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هُجْنته، حتى انتظمَ له ما حاوَل، واتّسق له ما أمّل.

ولولا استفاضةُ هذا الخبر وظهورُ هذه الحال حتى صار لغرابته مثلا، ولطرافته معلَمًا، لما استجزنا الإقرارَ به والتأكدَ له.

* * *

وكان إذا أراد أن يذكر البُرّ قال القمح أو الحنطة، والحنطة لغة كوفية، والقمح لغة شامية، هذا وهو يعلم أن لغة من قال «بُرّ» أفصح من لغة من قال «قمح» أو «حنطة».

* * *

(١) المحنة: الامتحان والاختبار.
(٢) كنية واصل بن عطاء.

وسألت عثمان البرىّ : كيف كان واصلٌ يصنع فى العدد ؟ وكيف كان يصنع بعشرة ، وعشرين ، وأربعين ؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ، ويوم الأربعاء وشهر رمضان ؟ وكيف كان يصنع بالمحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر ، وجمادى الآخرة ، ورجب ؟ فقال : مالى فيه قولٌ إلا ما قال صفوان :

مُلَقَّن مُلْهم فيما يحـاوله جَمٌّ خواطرُه جَوَّابُ آفاق

٣

باب البيان

قال بعضُ جَهابذة الألفاظ ونُقَّاد المعانى : المعانى القائمةُ فى صدور الناس، المتصوَّرة فى أذهانهم ، والمتخلِّجة فى نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورةٌ خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودةٌ فى معنى معدومة ، لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحبه ، ولا حاجةَ أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما يحيي تلك المعانى ذكرُهم لها ، وإخبارهُم عنها ، واستعمالهم إياها . وهذه الخصالُ هى التى تقرّبها من الفَهْم ، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفىّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً . وهى التى تلخِّص الملتبس[١] ، وتحلّ المنعقد ، وتجعل المهمَل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهولَ معروفاً ، والوحشىّ مألوفاً ، والغُفْل موسوماً[٢] ، والموسوم معلوماً . وعلى قَدْر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المَدْخل ، يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبينَ وأنورَ ، كان أنفعَ وأنجع .

والدلالةُ على المعنى الخفىّ هو البيانُ الذى سمعتُ الله عزّ وجلّ يمدحه ، ويدعو إليه ويحثّ عليه . بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلَتْ أصناف العجم .

---

(١) التلخيص : التبيين والتفسير .

(٢) الغفل : الخالى من العلامة . والموسوم : ماله سمة ، أى علامة .

والبيان اسمٌ جامع لكل شيء كشفَ لك قِناع المعنى ، وهتك الحجابَ دون الضمير ، حتى يفضيَ السامعُ إلى حقيقته ، ويهجمَ على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مَدار الأمر والغايةَ التى إليها يجرى القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شيء بلغتَ الإفهامَ وأوضحتَ عن المعنى ، فذلك هو البيانُ فى ذلك الموضع .

ثم اعلم — حفظك اللهُ — أن حكمَ المعانى خلافُ حكمِ الألفاظ ، لأن المعانيَ مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدةٌ إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصّلة محدودة .

وجميعُ أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ ، خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد : أوّلها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد ، ثم الخطّ ، ثم الحال التى تسمى نصبة . والنصبة هى الحال التى تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات . ولكل واحد من هذه الخمسة صورةٌ بائنة من صورة صاحبتها ، وحِلْيةٌ مخالفةٌ لحلية أختها . وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامّها ، وعن طبقاتها فى السار والضار ، وعما يكون منها لغواً بهْرجاً (١) ، وساقطاً مطرحاً .

قال أبو عثمان : وكان فى الحقّ أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب ولكنا أخرناه لبعض التدبير .

* * *

قد قلنا فى الدلالة باللفظ . فأما الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين والحاجب والمنكب ، إذا تباعدَ الشخصان ، وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافعُ السيف والسوط فيكونُ ذلك زاجراً ، ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً .

والإشارة واللفظ شريكان ، ونِعْمَ العونُ هى له ! ونعم الترجمان هى عنه ! وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تُغْنى عن الخط !

(١) اللغو : الذى لايعتد به ولا يحصل منه على فائدة . والبهرج : الباطل .

وبعدُ فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة ، وحِلْية موصوفة على اختلافها فى طبقاتها ودلالاتها ، وفى الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير (١) ، ومعونة حاضرة فى أمور يسترها بعضُ الناسِ من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس .

* * *

قد قلنا فى الدلالة بالإشارة ، فأما الخط فما ذكر الله عزّ وجلّ فى كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب ، قوله لنبيه عليه السلام : « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَمُ . الذى علَّمَ بالقلَمِ علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يعلم» . وأقسمَ به فى كتابه المنزَل ، على نبيه المرسل ، حيث قال : « ن . والقلَمِ وما يَسْطُرُونَ » . ولذلك قالوا : « القلم أحدُ اللسانين » ، كما قالوا : « قلة العيال أحدُ اليسارَين (٢) . » وقالوا : « القلم أبقى أثراً ، واللسان أكثر هَذَراً » .

وقال عبد الرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدرُ أن يحضّ الذهن على تصحيح الكتاب ، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .

وقالوا : اللسان مقصور على القريب الحاضر ، والقلم مطلق فى الشاهد والغائب ، وهو للغابر الحائن (٣) مِثلُه للقائم الراهن .

والكتاب يقرأ بكل مكان ، ويدرَس فى كل زمان ، واللسان لا يَعْدُو سامعه ، ولا يتجاوزُه إلى غيره .

وأما القول فى العَقْد — وهو الحساب دون اللفظ والخطّ — فالدليل على فضيلته وعِظَمِ قَدْر الانتفاع به قولُ الله عز وجلّ : « فَالِقُ الإصْباح وجاعلُ اللّيل سَكَنًا والشمسَ والقمرَ حسبانًا ذلكَ تقديرُ العزيز العليم » .

وقال جلّ وتقدّس : « الرّحمنُ عَلَّمَ القرآنَ ، خلقَ الإنسانَ علمهُ البيان الشمسُ والقمرُ بحُسْبان » .

والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ، ومنافع جلية ، ولولا معرفةُ العباد بمعنى

---

(١) المرفق : المنفعة. (٢) اليسار : الغنى .
(٣) الغابر : الماضى . والحائن : الهالك .

الحساب فى الدنيا لما فَهموا عن الله عز وجل معنى الحساب فى الآخرة ، وفى عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعَقْد فسادُ جلِّ النعم ، وفِقْدانُ جمهور المنافع ، واختلالُ كل ما جعله اللهُ عز وجلّ لنا قِواماً ، ومصلحةً ونظاماً .

* * *

وأما النُّصْبَة فهى الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشيرة بغير اليد ، وذلك ظاهرٌ فى خَلْق السموات والأرض ، وفى كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومُقيم وظَاعِن ، وزائد وناقص . فالدلالة التى فى الموات الجامد ، كالدّلالة التى فى الحيوان الناطق ، فالصامتُ ناطقٌ من جهة الدلالة ، والعجماء[1] معربة من جهة البرهان ، ولذلك قال الأول :

« سل الأرضَ فقلْ : من شَقّ أنهارَك ، وغَرس أشجارك ، وجنَى ثمارَك ، فإن لم تُجِبْك حِواراً[2] . أجابتك اعتباراً » .

وقال بعضُ الخطباء : « أشهد أن السموات والأرضَ آياتٌ دالاّت ، وشواهد قائمات ، كلٌّ يؤدى عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية ، موسومة بآثار قدرتك ومعالم تدبيرك ، التى تجلَّيت بها لخلقك ، فأوصَلْت إلى القلوب من معرفتك ما آنَسَها من وَحشة الفكر ، ورَجْم الظنون[3] ؛ فهى على اعترافها لك وافتقارها إليك ، شاهدةٌ بأنك لا تحيط بك الصفات ، ولا تَحُدُّك الأوهام ، وأن حظ الفكر فيك ، الاعترافُ لك » .

وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت : « الإسكندر كان أمس أنطقَ منه اليومَ ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمس » .

ومتى دل الشيء على معنًى فقد أخبرَ عنه وإن كان صامتاً ، وأشار إليه وإن كان ساكناً .

وهذا القول شائع فى جميع اللغات ، ومتَّفَق عليه مع إفراط الاختلافات .

---

(١) العجماء : البهيمة.
(٢) الحوار : المكالمة والمحادثة .
(٣) الرجم : الظن .

٤

البلاغة

قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصْل من الوَصْل .

وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة .

وقال بعض أهل الهند : جِماع البلاغة البَصر بالحجة ، والمعرفةُ بمواضع الفرصة .

ثم قال : ومن البصر بالحُجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، أن تدَعَ الإفصاحَ بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاحُ أوعرَ طريقة . وربما كان الإضرابُ عنها صَفحاً أبلغَ فى الدرَك ، وأحق بالظفر .

وقال مرّةً : جِماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفةُ بساعات القول ، وقلة الخرَق[١] بما التبسَ من المعانى أو غمض ، وبما شَرَد عليك من اللفظ أو تعذر .

ثم قال : وزينُ ذلك كله وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائلُ موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجةُ نقية . فإنْ جامعَ ذلك السنُّ والسمتُ ، والجمال وطول الصمت ، فقد تَمّ كل التمام ، وكمل كلّ الكمال .

وخالف عليه سهلُ بن هارونَ فى ذلك — وكان سهلُ فى نفسه عتيقَ الوَجه[٢] حسنَ الشارَة[٣] بعيداً من الفَدامة[٤] ، [معتدل] القامة ، مقبول الصورة ،

---

(١) الخرق : الدهشة والحيرة .

(٢) العتيق : الجميل .

(٣) الشارة : الهيئة .

(٤) الفدامة : غلظ الطبع والحمق .

يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنُّبل قبل التكشف ، فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحقّ عنده ، وإنْ أدخلَ ذلك على حاله النقص .

قال سهل بن هارون :

لو أن رجلين خطَبا أو تحدثا ، أو احتجّا أو وصفا ، وكان أحدُهما جميلاً بهيًّا ، ولبّاساً نبيلاً ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلا قميئاً[١] ، وباذّ الهيئة دميما[٢] ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلامُهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدّعَ عنهما الجمع[٣] وعامّتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجبُ منه على مساواة صاحبه له ، ولصار التعجبُ منه سبباً للعجب به ، ولصارَ الإكثارُ فى شأنه علّةً للإكثار فى مدحه ، لأن النفوسَ كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حَسده أبعد ، فإذا هجَموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر منه خلافُ ما قدّروه ، تضاعف حُسنُ كلامِه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغربَ كان أبعدَ فى الوهم ، وكلما كان أبعدَ فى الوهم كان أطرف ، وكلما كانَ أطرفَ كان أعجب ، وكلما كان أعجبَ كان أبعد .

وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومُلَح المجانين ، فإن ضحكَ السامعين من ذلك أشدّ ، وتعجبهم به أكثر والناسُ موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البعيد ، وليس لهم فى الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم ، من الرأى والهوى مثلُ الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى مِلك غيرهم . وعلى ذلك زَهد الجيران فى عالمهم ، والأصحابُ فى الفائدة من صاحبهم . وعلى هذه السبيل يستطرفون القادمَ عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعمُّ نفعاً ، وأكثرُ فى وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مئونةً ، وأكثر فائدة .

(١) القمىء : الذليل الصغير .
(٢) الباذ : الرث الهيئة . والدميم : القبيح .
(٣) تصدع : تفرق .

ولذلك قدم بعضُ الناس الخارجيّ على العريق[١] ، والطارف على التليد[٢] .

وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغًا ، والسيد خطيبًا ، فإنك تجد جمهورَ الناس وأكثرَ الخاصّة فيهما على أمرين : إمَّا رجلاً يعطى كلاَمهما من التعظيم والتفضيل ، والإكبار والتبجيل ، على قدْر حالهما فى نفسه ، وموقعهما من قلبه . وإما رجلاً تَعرض له التهمة لنفسه فيهما ، والخوفُ من أن يكون تعظيمه لهما يُوهمه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ، ما ليس عندهما ، حتى يُفرط فى الإشفاق ، ويسرفَ فى التهمة .

فالأول يزيد فى حقّه للذى له فى نفسه . والآخر ينقُصه من حقه ، لتهمته لنفسه ، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعًا فى أمره.

فإذا كان الحب يُعمى عن المساوى ، فالبغضُ أيضًا يعمى عن المحاسن . وليس يَعرف حقائق مقادير المعانى ، ومحصول حِدود لطائف الأمور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلاّ القوىُّ المنة[٣] ، الوثيق العُقدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسوادَ الأكبر .

* * *

ثم رَجع بنا القول إلى الكلام الأول :

قال ابنُ الأعرابىّ : قال معاوية بنُ أبى سفيان لصُحار بن عياش العبدىّ : ما هذه البلاغةُ التى فيكم ؟ قال : شىءٌ تجيش به صدورنا[٤] فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجلٌ من عُرض القوم[٥] : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء بالبُسْر والرطب أبصرُ منهم بالخطب. فقال له صُحَار : أجلْ والله، إنا لنعلمُ إن الريح لتلقحه، وإن البردَ ليعقـده ، وإن القمرَ ليصبغهُ ، وإن الحرّ لينضجه !

وقال له معاوية : ما تعدُّون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز . قال له معاوية :

---

(١) الخارجى : الذى يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم .
(٢) الطارف : المستحدث . والتليد : القديم .
(٣) المنة : القوة .
(٤) تجيش به : تفيض به .
(٥) هو من عرض القوم : أى من عامتهم .

وما الإيجاز ؟ قال : أن تجيبَ فلا تبطئ ، وتقولَ فلا تخطئ . فقال له معاوية : أوَ كذلك تقول ياصحار ؟ قال صحار : أقِلْنى يا أمير المؤمنين ألاّ تبطئ ولا تخطئ ! .

٥

صحيفة بشر فى تعليم الخَطابة

مرّ بشر بن المعتمر[١] بإبراهيم بن جبَلة السَّكونى الخطيب ، وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشر ، فظنّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظَّارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صَفحًا ، واطووا عنه كشحًا . ثم دفع إليهم صحيفةً من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خُذْ من نفسك ساعةَ نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرمُ جوهراً وأشرف حسبًا ، وأحسنُ فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطاء[٢] . وأجلبُ لكلّ عين وغرّة ، من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطولُ بالكدّ والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قَصْداً[٣] ، وخفيفًا على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ونجمَ من معدنه .

وإياك والتوعُّر ، فإن التوعر يُسلِمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيكَ ، ويَشين ألفاظك .

ومن أرَاغَ[٤] معنًى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا ، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف . ومن حقهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهجّنهما[٥] ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارَهما ، وترتهن نفسك بملا بستهما ، وقضاء حقهما .

(١) بشر بن المعتمر : رئيس فرقة البشرية من المعتزلة ، وكان أول أمره نخاساً فى الرقيق توفى سنة ٢١٣ .
(٢) الخطاء : الخطأ .
(٣) قصداً : وسطاً .
(٤) أراغ : أراد ، وطلب .
(٥) يهجنه : يعيبه .

فكن فى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً: إما عند الخاصة إن كنتَ للخاصة قصدت، وإما عند العامّة إن كنتَ للعامّة أردت. والمعنى ليس يشرُف بأن يكون من معانى الخاصّة؛ وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معانى العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال.

وكذلك اللفظ العامىّ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولُطْف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تُفهِم العامةَ معانى الخاصة، وتكسوَها الألفاظ الواسطة[1] التى لا تَلطُف عن الدهماء[2]، ولا تجفو عن الأكفاء، فإنك البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تُسمِح لك[3] عند أول نظرك، وفى أول تكلّفك، وتجد اللفظةَ لم تقع موقعها، ولم تصرْ إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافيةَ لم تحلّ فى مركزها وفى نصابها[4]؛ ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقةً فى مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها فإنك إذا لم تتعاطَ قرْضَ الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيارَ الكلام المنثور، لم يَعِبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعاً، ولا محكماً لسانك، بصيراً بما عليك ومالك، عابَكَ من أنت أقل عيباً منه، ورأى مَن هو دونك أنه فوقك. فإن ابتُليتَ بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة، ولم تُسمح لك الطباع أول وَهلة[5] وتعاصَى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تَعجَل ولا تضجر، ودَعه بياضَ يومك وسوادَ ليلك، وعاودْه

---

(١) الواسطة: المتوسطة.

(٢) تلطف: تدق. الدهماء: جمهور الناس.

(٣) أسمحت: أطاعت وانقادت.

(٤) النصاب: الأصل.

(٥) أول وهلة: أول شيء.

عند نشاطك وفراغ بالك . فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريتَ من الصناعة على عِرْق .

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شُغل عرض ، ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة (الثالثة) أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلاّ وبينكما نسب . والشيء لا يحن إلاّ إلى ما يشاكله وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات ؛ لأنّ النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تُسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

* * *

وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ، ولكل حالة من ذلك مقامًا ؛ حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .

فإن كان الخطيب متكلمًا تجنَّبَ ألفاظ المتكلمين (١) ، كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفًا أو مجيبًا أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظَ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحنّ وبها أشغف ؛ ولأنّ كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغَ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على ما لم يكن له فى لغة العرب اسمٌ ، فصاروا بذلك سلفًا لكل خلَف ، وقدوةً لكل تابع .

---

(١) المتكلمون : الباحثون فى العقائد والأمور الإلهية .

٦

ضروب الشعراء

من شعراء العرب من كان يدَعُ القصيدةَ تمكث عنده حولا كَرِيتا(١) وزمنًا طويلاً ، يردّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلّب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعًا على نفسه ، فيجعل عقله زِماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقًا على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمُّون تلك القصائد الحوليات والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات .

والشعراء عندهم أربع طبقات ، فأوّلهم الفحل الخنذيذ ، والخنذيذ هو التام . ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور .

ولذلك قال الأول فى هجاء بعض الشعراء :

يا رابعَ الشعراء كيف هجوتَنى   وزَعمتَ أنى مُفحَم لا أنطق

وقال الحطيئة : « خير الشعر الحولىّ المحكّك » .

وقال الأصمعى : « زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما ، عبيد الشعر » .

وكذلك كل مَن جوّد فى جميع شعرِه ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبياتَ القصيدة كلها مستويةً فى الجوْدة .

وكان يقول : لولا أنّ الشعر قد كان استبعدهم واستفرغَ مجهودهم حتى أدخلهم فى باب التكلف وأصحاب الصنعة ، ومَن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعانى سهواً رَهواً(٢) ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا(٣) .

وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدى(٤) ورُؤْبة(٥) . ولذلك قالوا :

(١) كريتا : عاماً كاملا .   (٢) السهو : السهل اللين . والرهو : السهل الدمث .

(٣) انثالت : اجتمعت وانصبت من كل وجه.

(٤) هوعبد الله بن قيس ، شاعر من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، ومن صحابة رسول الله ، وهو أقدم عمراً من النابغة الذبيانى .

(٥) رؤبة بن العجاج ، أشهر رجازى العرب . من مخضرمى الأموية والعباسية . توفى سنة ١٤٥ .

فى شعره مُطرف بآلاف ، وخِمارٌ بوَاف [١] .

ومَن تكسب بشعره والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة فى قصائد السماطين [٢] . وبالطوال التى تنشد يوم الحفل ، لم يجدْ بدًّا من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما . فإذا قالوا فى غير ذلك أخذوا عفو الكلام [٣] وتركوا المجهود .

٧

أقوال مختارة

قال زياد بن أبيه : مِن سعادة الرجل أن يطولَ عمره ، ويرى فى عدوِّه مايسره !

قيل لأعرابى : ما بال المراثى أجودَ أشعاركم ؟ قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق!

وقال عمر بن الخطاب : مِن خير صناعات العرب الأبياتُ يقدِّمها الرجل بين يدى حاجته يستنزل بها الكريم [٤] ، ويستعطف بها اللئيم .

وكان يقال : أول العلم الصمت ، والثانى الاستماع ، والثالث التحفظ ، والرابع العمل به ، والخامس نشره .

وقال عمر بن الخطاب : « لا تَخور قوةٌ ما كان صاحبها ينزو [٥] وينزِع » . يقول : لا تنتكث قوته ما دام ينزِع فى القوس ، وَينزُو فى السرى من غير أن يستعين بركاب .

وقال : الراحةُ عُقلة . وإياكم والسمنة فإنها عقلة [٦] .

وقال على بن أبى طالب : مِن أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج .

---

(١) المطرف ، بضم الميم وكسرها : رداء من خز مربع له أعلام . والخمار : غطاء رأس المرأة . الوافى : الدرهم الكامل الذى يزن مثقالا .

(٢) السماطان : الصفان ، كانوا يجعلون الناس كذلك فى المحافل والمآدب .

(٣) عفو الكلام : ما لا يحتاج إلى مجهود .

(٤) استنزل الكريم : طلب منه النزل ، وهو قرى الضيف .

(٥) ينزو : يشب ويقفز .

(٦) أى تعقل صاحبها وتحبسه .

٨

من كلام الزهاد

قال الحسن البصري : لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث : شبابه فيما أبلاه ، وعُمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيمَ أنفقه .

وقال أبو حازم : إن عُوفينا من شرّ ما أعطينا لم يَضِرْنا ما زُوِى عنا[١] .

وقال زياد بن أبي زياد : أنا مِن أن أمنعَ الدعاء أخوَفُ من أن أمنع الإجابة .

وقال له عمر بن عبد العزيز : يا زياد ، إني أخاف الله مما دخلت فيه . قال : لست أخاف عليك أن تخاف ، وإنما أخاف عليك ألا تخاف .

ودخل سالم بن عبد الله[٢] مع هشام بن عبد الملك البيت فقال له هشام : سل حاجتك . فقال : أكره أن أسأل في بيت الله غيرَ الله .

وقيل لرابعة القيسية[٣] : لو كلمتِ عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مئونة بيتك ؟ قالت : والله إني لأستحي أن أسألَ الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ !

وقال الحسن : قَتلَ الناقة رجلٌ واحد[٤] ، ولكن الله عمّ القومَ بالعذاب ، لأنهم عمّوه بالرضا[٥] .

وسئل عمر بن عبد العزيز عن قَتلَةِ عثمان وخاذليه ، فقال : تلك دماء كف الله يدى عنها ، فأنا لا أحب أن أغمِسَ لساني فيها .

ورأى بعض النساك صديقاً له من النساك مهموماً فسأله عن حاله ذلك ؛ فقال : كان عندى يتيم أحتسب فيه الأجر ، فمات . قال : فاطلب يتيماً غيره

---

(١) زوى عنا : أى صرف عنا ونحى .

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٣) هى رابعة بنت إسماعيل العدوية القيسية البصرية ، تعد من أشهر الزاهدات المتعبدات . كانت وفاتها سنة ١٣٥ .

(٤) يريد ناقة صالح .

(٥) أى برضاهم عن عقر الناقة .

فإن ذلك لا يُعدِملك[١] إن شاء الله . قال : أخاف ألا أصيبَ يتيماً فى سوء خُلقه .

وكان مالكُ بن دينار يقول : لو كانت الصُّحف[٢] من عندنا لأقللنا الكلام !

وقال يونس بن عبيد : لو أمِرنا بالجزع لصبرنا !

وكان يقول : كسِبْت فى هذه السوق ستين ألف درهم ، ما منهـا درَهم إلا وأنا أخاف أن أسألَ عنه .

وقال الحسن : إنَّ من خوّفك حتى تلقى الأمن ، خيرٌ لك ممن أمنك حتى تلقى الخوف .

وقال ابن المبارك : أفضل الزهد أخفاه .

وقيل لعامر بن عبد قيس : ما تقول فى الإنسان ؟ قال : ما عسى أن أقول فيمن إذا جاع ضَرَع[٣] ، وإذا شبع طغى .

ونظر أعرابىٌّ فى سفره إلى شيخ قد صحبه فرآه يصلى ، فسكن إليه ، فلما قال : أنا صائم ، ارتاب به ، وأنشأ يقول :

صلَّى فأعجبنى وصام فرابنى نَحِّ القلوص عن المصلِّى الصائم[٤]

وقال الحسن : كان مَن قبلكم أرقَّ منكم قلوبًا وأصفقَ ثيابًا ، وأنتم أرقّ منهم ثيابًا وأصفقُ منهم قلوبًا .

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجَّهه : احرصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة !

وقال رجل ليونس بن عبيد : أتعلم أحداً يعمل بعمل الحسن ؟ قال : والله ما أعرف أحداً يقول بقوله ، فكيف يعمل مثل عمله ! قال : صفه لنا . قال : كان إذا أقبلَ فكأنه أقبل من دَفن حميمه ، وكان إذا جلسَ فكأنه أسير قد أمِر بضرب عنقه ، وكان إذا ذُكرتْ عنده النار فكأنها لم تُخلق إلاّ له .

(١) يقال : أعدمنى الشيء ، إذا لم أجده .
(٢) أى صحف الأعمال التى تخطها الملائكة .
(٣) ضرع : خضع وذل .
(٤) القلوص : الفتية من الإبل .

وقال عمرو بن عُبيد لرجل يعزيه : كان أبوك أصلك ، وابنك فرعك ، فما بقاء شيءٍ ذهب أصله ولم يبق فرعه .

وقال أعرابى :

تبصرنى بالعيش عِرسى كأنما ... تبصرنى الأمرَ الذى أنا جاهله
يعيش الفتى بالفقر يوماً وبالغنى ... وكُلاً كأن لم يَلْقَ حين يزايله

وقال أبو العتاهية :

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسها ... تَنَحَّ عن خِطبتها تَسلم
إن التى تخطبُ غرارةٌ ... قريبة العُرْس من المأتم

وقال أبو نُواس :

شاع فىَّ الفناء سُفلاً وعُلوا ... وأرانى أموت عُضْواً فعضوا
ذهبتْ جدّتى بطاعة نفسى ... وتذكرْتُ طاعةَ الله نِضْوا (١)

٩

من كلام الأعراب

١ — وهب رجل لأعرابى شيئاً ، فقال : جَعل الله للخير عليك دليلا ، وجعل عندك رِفْداً جزيلا ، وأبقاك بقاءً طويلاً ، وأبلاك بلاء جميلاً .

٢ — الأصمَعى قال : سمعت أعرابيّاً يدعو ويقول : اللهم اغفرْ لى إذ الصُّحف منشورة ، والتوبة مقبولة ، قبل ألاّ أقدِرَ على استغفارك ، حين ينقطعُ الأمل ، ويحضرُ الأجَل ، ويفنى العمل .

٣ — وقال أعرابىٌّ يعيب قوماً : هم أقلُّ الناس ذنوباً إلى أعدائهم ، وأكثرهم جُرْماً إلى أصدقائهم ، يصومون عن المعروف ، ويفطرون على الفحشاء !

٤ — وقال أعرابى : وَعْد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطلٌ وتعليل (٢) .

---

(١) النضو ، بالكسر : البعير المهزول من السير . شبه نفسه به .

(٢) المطل : التسويف . والتعليل ، من علله بالشيء : شغله به .

٥ ــ وقال معاوية لصُحار العبدى : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ ! قال : شىء تجيش به صدورُنا فتقذفه على ألسنتنا .

٦ ــ المدائنى ، قال : سمعت أعرابيًّا يسأل وهو يقول : رحم الله امرأ لم تمجّ أذنُه كلامى(١) وقدّم لنفسه مَعاذةً من سُوء مقامى ، فإن البلاد مجدبة ، والحال سيئة ، والعقل زاجر ينهى عن كلامكم ، والفقر عاذر يحملنى على إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمرَ بمَيْر(٢) أو دعا بخير !

٧ ــ وسئل بعض العرب : ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظنون ، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان .

٨ ــ عن أبان بن تغلبَ قال :

مررتُ بامرأة بأعلى الأرض وبين يديها ابنٌ لها يريد سفراً ، وهى توصيه ، فقالت :

اجلسْ أمنحك وصيتى وبالله توفيقك ، وقليلُ إجدائها(٣) عليك أنفع من كثير عقلك . إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن ، ولا تجعل نفسك غرضًا للرماة(٤) فإنّ الهدف إذا رُمى لم يلبثْ أن ينثلم . ومثل لنفسك مثالا ، فما استحسنته من غيرك فاعمل به ، وما كرِهته منه فدَعه واجتنبه ، ومن كانت مودّته بشره كان كالريح فى تصرفها .

ثم نظرتْ فقالت : كأنك يا عراقىّ أعجبتَ بكلام أهل البدو !

ثم قالت لابنها : فإذا هززتَ فهزّ كريمًا ، فإن الكريم يهتز لهزتك . وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . وإياك والغَدر فإنه أقبح ما تُعوملَ به . وعليك بالوفاء ، ففيه النماء . وكنْ بمالك جواداً ، وبدينك شحيحًا . ومن أعطىَ السخاء والحلم فقد استجاد الحُلة : رَيْطتَها وسِرْبالَها(٥) . انهضْ على اسم الله .

---

(١) مجته : رفضته وأنكرته .
(٢) المير : مصدر ماره ، أى أتاه بالميرة ، وهى الطعام .
(٣) الإجداء : الإعطاء .
(٤) الغرض : الهدف .
(٥) الريطة : الملاءة قطعة واحدة .

٩ — وقف أعرابىٌّ على قوم يسألهم فأنشد يقول :

هل مِنْ فتًى عنده خُفانِ يحملنى عليهمــا إننى شيخٌ على سفر
أشكو إلى الله أهوالاً أمارسهــا من الصُّداع وأنى سيئ البصر
إذا سرَى القوم لم أبصرْ طريقَهم إن لم يكن عندهم ضوء من القمــر

١٠ — وقال أعرابى : اللهم إنّ لك علىّ حقوقًا فتصدق بها علىّ ، وللناس علىّ حقوقًا فأدِّها عنى ، وقد أوجبتَ لكل ضيف قرًى وأنا ضيفك ، فاجعلْ قرایَ فى هذه الليلة الجنة !

مقتطفات

من طبقات الشعراء

لابن سلام

١٣٩ – ٢٣١

ابن سلام

هو أبو عبد الله محمد بن سلاّم بن عبيد الله بن سالم الجمحىّ البصرىّ ، مولى قدامة بن مظعون الجمحى .

وُلد بالبصرة سنة ١٣٩ . وكانت وفاته ببغداد سنة ٢٣١ ، وقيل سنة ٢٣٢ . بعد أن عُمر نحواً من ثلاث وتسعين سنة .

وقد رَوى عنه كثيرٌ من الأئمة منهم : أحمد بن يحيى ثعلب ، وأحمد بن حنبل .

وكان ابنُ سلاّم من أهل بيت لهم فى العلم باع ، فأبوه سلاّم من شيوخه ، وأخوه عبد الرحمن بن سلاّم أحد رواة الحديث . ومن ولد محمد بن سلام : عون بن محمد ، وكان عالمًا .

ومن مؤلفات ابن سلام — غير كتابه طبقات الشعراء هذا الذى اخترنا منه : غريبُ القرآن ، وبيوتات العرب .

ومقدمة الكتاب التى اخترنا منها فيما اخترنا ترسم لك صورته ، وتهدى إلى طريقته .

المختار من طبقات ابن سلام

١

من المقدمة

١ ــ قال أبو محمد[١] أخبرنا أبو طاهر محمدُ بنُ أحمد بن عبد الله بن نصر بن بُجير القاضى[٢] : أخبرنا أبو خليفة الفضلُ بنُ الحباب الجمحى[٣] قال أخبرنا أبو عبد الله محمدُ بنُ سلاَّم الجمحى قال :

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهلُ العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه[٤] العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان .

من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا يعرف بصفة ولا وَزْن دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبذة[٥] بالدينار والدرهم ، لا تعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراز[٦] ولا وسْم[٧] ولا صفة ، ويَعرفها الناقدُ عند المعاينة . فيعرف بَهْرَجها[٨] وزائفها وَستوقها[٩] ومفرَغها[١٠] . ومنه البصر بغريب النخل ، والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده ، مع تشابه لونه ومسه وذَرْعه ، حتى يضاف كل صنْف منها إلى بلده الذى خرج منه . وكذلك بَصرُ الرقيق ، فتوصف الجارية

(١) هو أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدى المصرى . حافظ مصر فى زمانه . ولد سنة ٣٣٢ وتوفى بمصر سنة ٤٠٩ .

(٢) كان محدث زمانه . ولد بالبصرة سنة ٢٧٩ . ولى قضاء واسط ثم بغداد ثم نزل مصر وولى قضاءها سنة ٣٤٨ . وتوفى بمصر سنة ٣٦٧ .

(٣) هو ابن أخت محمد بن سلام . روى عنه كتبه . وكان راوية للأخبار والأشعار والآداب والأنساب . وكانت وفاته سنة ٣٠٥ بعد أن عمر عمراً طويلا .

(٤) تثقفه : تحذقه .

(٥) الجهبذة : نقد الزائف والصحيح من الدنانير والدراهم .

(٦) الطراز : يريد ما يعلم به ويميز .

(٧) الوسم : الصورة .

(٨) البهرج : الذى فضته رديئة .

(٩) الستوق من الدراهم : الزيف الذى لا خير فيه .

(١٠) المفرغ : الدرهم المصبوب فى قالب ولم يضرب .

فيقال : ناصعةُ اللون ، جيدة الشَّطْب (١) ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر (٢) . فتكون هذه الصفة بمائة دينار ، وبمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر لا يجد واصفُها مزيداً على هذه الصفة .

قال ابنُ سلام : وإنّ كثرة المدارسة تُعين على العلم .

٢ — قال محمد : قال خلاّد بن يزيد الباهلىّ لخلف بن حيان أبى مُحْرِز — وكان خلاَّد حسنَ العلم بالشعر ، يَرْويه ويقول : بأن شىء تردّ هذه الأشعار التى تُرْوى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما إنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرفه أنت .

٣ — قال ابنُ سلام : وقال قائل لخلف : إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنتُه فما أبالى ما قلتَ فيه أنتَ وأصحابك . فقال له : إذا أخذتَ أنت درهماً فاستحسنتَه فقال لك الصراف : إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟

٤ — وكان ممن هجن (٣) الشعر وأفسده وحملَ كل غُثاء (٤) منه ، محمد بن إسحاق مولى آل مخْرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسيَر فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر إنما أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعارَ النساء فضلاً عن أشعار الرجال . ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود . أفلا يرجعُ إلى نفسه فيقول : من حملَ هذا الشعر ؟ ومنْ أدّاه منذ آلاف السنين ؟ والله يقول : « وأنهُ أهلكَ عاداً الأولى . وثمودَ فما أبقى » . وقال فى عاد : « فهل ترى لهمْ منْ باقية » . وقال : « ألمْ يأتكمْ نبأُ الذينَ منْ قبلكمْ قومْ نوح وعاد وثمودَ والذينَ منْ بعدهم لا يعلمهمْ إلا الله » .

---

(١) الشطب : الطول وحسن الخلقة .

(٢) واردة الشعر : مسترسله ، قد حسن وطال .

(٣) هجن الشعر : أدخل عليه ما يعيبه ويشينه .

(٤) الغثاء : ما يحمله السيل من ورق الشجر البالى ، والأقذار .

٥ ــ قال محمد :

ولم يجاوز أبناءُ نزار فى أنسابهم وأشعارهم عدْنان ، اقتصروا على معدّ ولم يذكر عدنانَ جاهلىٌّ غيرَ لبيد فى بيت قاله :

فإنْ لم تجدْ من دون عدنان والداً   ودُونَ معــد فلتزعكَ العواذل[١]

وقد روى لعباس بن مرْداس بيتٌ فى عَدنان ، قال :

وعكّ بن عدنان الذين تلعَّبوا   بمذْحج حتى طرّدوا كلَّ مطرَد

فما فوقَ عدنان أسماءٌ لم تؤخذ إلا عن الكتب . والله أعلم بها ، وإنما كان معدّ بإزاء موسى بن عمران عليه السلام ، أو قبله قليلا . وبين موسى وعاد وثمود ، الدهرُ الطويل ، والأمد البعيد .

٦ ــ وكان لأهل البصرة فى العربية قُدْمة[٢] ، وبالنحو وبلغات العرب والغريب عناية . وكان أول من استن العربية ، وفتح بابها ، وأنهج[٣] سبيلها ، ووضع قياسَها أبو الأسود الدؤلى ، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن جَندل ، وكان رجلَ أهل البصرة . وكان علوىَّ الرأى ــ وإنما قال ذلك حين اضطربَ كلامُ العرب ، فغلبت السليقة ؛ فكان سراةُ الناس يلحنون فوضعَ بابَ الفاعل والمفعول والمضاف ، وحروف الجر ، والرفع ، والنصب ، والجزم .

قال ابن سلام : ثم كان الخليلُ بن أحمد ــ وهو رجلٌ من الأزْد ــ فاستخرج من العروض واستنبط منه ومن علله ما لم يستخرِج أحد، ولم يسبقه إلى مثله سابق .

* * *

٨ ــ رجع إلى قول الشعر وإلى قول العلماء فيه :

ففضلنا الشعراءَ من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حُجة . وما قال فيه العلماء .

---

(١) وزعه : كفه ومنعه .

(٢) قدمة : تقدم وسبق .

(٣) أنهج السبيل : بينه ووضحه .

وقد اختلف الرواة فيهم ، فنظر قومٌ من أهل العلم بالشعر والنفاذ فى كلام العرب ، والعلم بالعربية ، إذا اختلف الرواة ، فقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها ، ولم يقنع الناسَ فى ذلك إلا الرواية عمن تقدّم .

٩ — وكان الشعر فى الجاهلية ديوانَ علمهم ، ومُنتهى حكمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون .

وقال ابن عون عن ابن سيرين ، قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر عِلم قوم لم يكن لهم علمٌ أصح منه .

فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهتْ عن الشعر وروايته . فلما كثُر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا روايةَ الشعر ، فلم يئلوا إلى ديوان مدوَّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوْا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؛ فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره . وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول وما مُدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مروان . أو صار منه[(١)] .

١٠ — قال يونس بن حبيب : قال أبو عمرو بن العلاء :

ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلاّ أقله ، ولو جاءكم وافراً[(٢)] لجاءكم علم وشعر كبير .

١١ — ومما يدلُّ على ذَهاب العلم وسقوطه قلةُ ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعَبيد ، والذى صح لهما قصائد بقدر عشر ؛ وإن لم يكن لهما غيرهنّ ، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة ؛ وإن كان ما يُروْى من الغُثاء[(٣)] لهما ، فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى أن غيرهما قد سَقط من كلامه كلامٌ كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذلك . فلما قلّ كلامهما احُمل عليهما حَمل كثير .

١٢ — ولمَ يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبياتُ يقولها الرجل فى حادثة .

---

(١) أى شىء منه .
(٢) الوافر : التام الذى لم ينقص منه شىء .
(٣) الغثاء : ما يحمله السيل من القذر والبالى من ورق الشجر .

وإنما قصِّدت القصائد وطوِّل الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمودَ وحمير وتُبَّع .

١٣ — وكان أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائعَ المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كُلَيب وائل ، قتلته بنو شيبان ، وكان اسم المهلهل عديا ، وإنما سمى مهلهلاً لهلهلة شعرِه كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه ، ومن ذلك قول النابغة :

* أتاكَ بقوْل هَلهلِ النسج كاذب (١) *

وزعمت العرب أنه كان يتكثر ويدَّعى فى قوله بأكثر من فعله .

١٤ — وكان شعر الجاهلية فى ربيعة : أوّلهم المهلهل ، والمرقِّشان ، وسعد ابن مالك ، وطَرَفة بن العبد ، وعمرو بن قَمِيئة ، والحارث بن حِلِّزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيَّب بن علس .

ثم تحوَّل الشعر فى قيس ، فمنهم : النابغة الذبيانى — وهم يعدون زهيرَ بن أبى سلمى من عبد الله بن غطفان ، وابنه كعبا — ولبيدٌ ، والنابغة الجعدىّ ، والحطيئة ، والشماخ ، وأخوه مزرِّد ، وخِداش بن زهير .

ثم آل ذلك إلى تميم ، فلم يزل فيهم إلى اليوم .

وكان امرؤ القيس بن حُجر بعد مهلهل — ومهلهل خاله — وطرفة وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس فى عصر واحد .

١٥ — وكان من الشعراء من يتأله فى جاهليته (٢) ، ويتعفَّف فى شعره ، ولا يَستبهر (٣) بالفواحش ، ولا يتهكم فى الهجاء . ومنهم من كان يبغى على نفسه ويتعهَّر ؛ منهم امرؤ القيس والأعشى .

وكان الفرزدق أقْوَلَ أهل الإسلام فى هذا الفنّ ، وكان جرير مع إفراطه فى الهجاء يعف عن ذكر النساء ، كان لا يشبب إلا بامرأة يملكها .

---

(١) عجزه : * ولم يأت بالحق الذى هو ناصع *
(٢) تأله : تنسك وتعبد .
(٣) أراد : يستعلن بها .

١٦ ـ قال ابن سلاّم : فلما راجعت العرب روايةَ الشعر ، وذكر أيامها ومآثرها ، استقلّ بعضُ العشائرِ شعرَ شعرائهم ، وما ذَهب من ذكر وقائعهم . وكان قومٌ قلّتْ وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يَلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ؛ فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعدُ ، فزادوا فى الأشعار ، وليس يُشكل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ، ولا ما وَضع المولدون ، وإنما عَضَل[1] بهم أن يقول الرجلُ من أهل بادية من ولدَ الشعراء ، أو الرجلُ ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعضَ الإشكال .

١٧ ـ وكان أوّلَ من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حَمّادٌ الراوية . وكان غير موثوقٍ به ، كان ينحل شعر الرجل غيرَه ويزيد فى الأشعار .

١٨ ـ أخبرنا أبو عُبيدة عن يونس قال : قدم حمادٌ البصرةَ على بلال بن أبى بُرْدة ، فقال : ما أطرفتنى شيئًا ، فعاد إليه فأنشده القصيدةَ التى فى شعر الحُطيئة مديحَ أبى موسى ، فقال : ويحك ! يمدح الحُطيئة أبا موسى ! لا أعلم به وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دَعها تذْهب فى الناس .

١٩ ـ وأخبرنا ابنُ سلاّم قال : سمعتُ يونس يقول : العجبُ لمن يأخذ عن حماد ! وكان يكذب ويلحن ويَكسر .

* * *

٢٠ ـ ثم اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضَى من أهل العلم على رهط أربعة من فحول الإسلام ، اجتمعوا على أنهم أشعر الإسلاميين طبقةً ، ثم اختلفوا فيهم بعدُ .

وسنسوق اختلافَهم واتفاقهم ، ونسمى الأربعة ، ونذكر الحجة لكل واحد منهم . وليس تبدئتنا[2] واحداً فى الكتاب لُحكم له . ولا بُدّ من مبتدأ . ونذكر من شعرهم الأبياتَ التى تكون فى الحديث والمعنى .

---

(١) عضل به الأمر : استغلق واشتد .

(٢) بدأه تبدئة : قدمه تقدمة .

٢

الطبقة الأولى من الإسلاميين

ذكر الفرزدق

١ ــ أخبرنا أبو خليفة الفضلُ بن الحباب ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن سلام ، قال : سمعتُ يونس بن حبيب [١] يقول :

ما شَهِدْتُ مشْهداً قط ذُكر فيه جريرٌ والفرَزْدق وأجمع أهلُ المجلس على أحدهما .

٢ ــ وكان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط ، وكان المفضل [٢] يقدمه تقدمةً شديدة .

٣ ــ قال ابنُ سلام : وأخبرني أبو قيس عن عكرمة بن جرير أنّ جريراً قال : نَبعةُ [٣] الشعر الفرزدقُ .

٤ ــ وقال ابنُ دَأب ، وسئل عنهما فقال : الفرزدقُ أشعرُ عامةً وجرير أشعرُ خاصة .

٥ ــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا محمدُ بن سلام : أنشدنا يونس للفرزدق حين طلق النَّوارَ [٤] :

ندِمْتُ ندامةَ الكسَعيّ لما ... غدَتْ مني مطلَّقة نوَار [٥]
وكانت جنَّةً فخرْجتُ منها ... كآدَم حين أخرجه الضرار [٦]

---

(١) هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى . إمام نحاة البصرة . كان مولده سنة ٨٠ ومات سنة ١٨٢ .

(٢) هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبى . راوية عالم بالأدب . من أهل الكوفة . له كتاب المفضليات . توفى سنة ١٦٨ .

(٣) النبعة : واحة النبع ، وهو شجر يطول ويعلو .

(٤) هى بنت أعين بن صعصعة ، وكانت ابنة عم الفرزدق .

(٥) الكسعى : رجل يضرب به المثل فى الندامة . كان راعياً فرمى بعد ما أظلم الليل عيراً فأصابه ، وظن أنه أخطأ ، فغضب وكسر قوسه . ثم ندم من الغد حين نظر إلى العير مقتولا وسهمه فيه .

(٦) الضرار : المخالفة والعصيان .

وكنت كفاقئٍ عينيه عمداً فأصبحَ ما يضيء له نهارُ
ولو ضَنَت يَداى بها ونفسى لكانَ علىَّ للقدَر الخيار
وما فارقتها شِبعًا ولكن رَأيت الدهرَ يأخذ ما يعار

٦ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابن سلام : قال : أخبرنى أبو يحيى الضبى قال :

لما هرب الفرزدق من زياد حين استعان عليه بنو نهشل فى هجائه إياهم أتى سعيداً ، يعنى ابن العاصى ، وهو على المدينة أيامَ معاوية ، فاستجاره فأجاره ، وعنده الُحطيئةُ وكعب بن جُعيل ، فأنشده الفرزدق :

ترَى الغُرَّ الجحاجح من قُريش إذا ما الأمرُ فى الحدثان غالاَ(١)
بنى عمِّ النبىِّ ورَهطَ عَمرو وعثمانَ الألى غلبوا فَعالا(٢)
قيامًا ينظرون إلى سعيد كأنهمُ يرون به هلالا

فقال الحطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تُعلَّل به منذُ اليوم أيها الأمير ! فقال كعب بن جعيل : فضلْه على نفسك ولا تفضله على غيرك . فقال : بلى والله ، أفضله على نفسى وعلى غيرى ، أدركتَ منْ قبلك وسبقت من بعدك ، ثم قال له الحطيئة : يا غلام ، لئن بقيتَ لتبرزنّ علينا .

٧ — قال ابن سلاّم : وكان الفرزدق قد رعى غنماً لأهله — يعنى فى صغره — فذهب الذئبُ منها بكبش ، فقال :

تَلومُ على أن خالط الذئبُ ضأنها فألوَى بكبش وهو فى الرّعى راتع(٣)
وقد مرّ حولٌ بعد حول وأشهر مررْنَ عليه وهو ظمآن جائع
فلما رأى الإقدام حزْمًا وأنه أخو الموت مَنْ سُدتْ عليه المطالع

(١) الغر : جمع أغر ، وهو الأبيض الغرة . ويراد به الشريف . والجحاجح : جمع جحجاح ، وهو السيد الكريم . والحدثان : نوائب الدهر . وغال : أصاب بشر .

(٢) بنو عمرو ، يريد بنى هاشم وبنى عدى وبنى أمية .

(٣) ألوى بالشيء : ذهب به وأتلفه . والرعى : المرعى . ورتعت الماشية : أكلت ما شاءت وجاءت وذهبت فى المرعى .

أغارَ على خوف وصادَفَ غِرةً فلاقى التى كانت عليها المطامع (١)
وما كنت مذياعًا ولكــنّ همتى سوى الرعى مفطومًا وإذا أنا يافع (٢)
أبيتُ أسوم النفس كلّ عظيمة إذا وطئتْ للمكثرين المضاجع (٣)

فكان ذلك أول ما علم به من شعره .

٨ – قال ابن سلام : وقال الفرزدق يعاتب قومه :

جزَى الله عنى فى الخطُوب مجاشعًا جزاء كريم عالم كيفَ يصنع (٤)
يرِقون عظمى ما استطاعوا وإننى لأبنى لهم بنيانَ مجــد وأرفع (٥)
وإنى لتنهــانى عن الجهل فيهم إذا كدتُ، خلاتٌ من الحلم أربع (٦)
حيَــاءٌ وبقْيــا وانتظــارٌ وأننى كريمٌ وأعطى ما أشاء وأمنع (٧)
فإن أعف أستبقى ذنوب مجاشع فإن العصا كانت لذى الحلم تقرع (٨)

٩ – أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابنُ سلام ، قال : أخبرنى محمدُ بن جعفر الزئبقى قال : أتى الفرزدق الحسنَ فقال : إنى قد هجوتُ إبليس فاسمعْ . فقال : لا حاجة لنا بما تقول . قال : لتسمعن أو لأخرُجن فأقول للناس : إنّ الحسن ينهى عن هجاء إبليس . فقال الحسن ، رضى الله عنه : اسكت فإنك عن لسانه تنطق !

١٠ – أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابنُ سلاّم ، قال : سمعتُ سلمة بن عياش قال :

حُبِستُ فى السجن فإذا فيه الفرزدق ، حبسه مالكُ بن المنذر بن الجارُود ،

---

(١) الغرة : الغفلة .
(٢) المذياع : المضياع . اليافع : الغلام إذا شب .
(٣) أسوم النفس : أكلفها وأجشمها . ووطأ : مهد .
(٤) مجاشعاً : يعنى رهطه بنى مجاشع بن دارم .
(٥) يرقون عظمى ، أى يضعفوننى ويحطون من شأنى .
(٦) الجهل : أى الغضب والطيش . وخلات : جمع خلة ، وهى الخصلة .
(٧) بقيا : أى أبقى على ما بينى وبينهم من صلة فأرعاها . وأعطى وأمنع ، أى فى السماحة والأنفة .
(٨) ذو الحلم : هو عامر بن الظرب العدوانى ، وكان حكيما من حكماء العرب يقضى بينهم حتى كبر فكان يغفل ، فأقام أحد بنيه ، حتى إذا غفل قرع له بالعصا ، فينتبه . والمثل يضرب للرجل ينبه فينتبه .

وكان يريد أن يقول البيت فيقولُ صَدْرَه فأسبقه إلى القافية ، ويجيء بالقافية فأسبقه إلى الصدر . قال لى : ممن أنت ؟ قلت : من قريش . قال : من أيهم أنت ؟ قلت : من بنى عامر . قال : لئامٌ والله أذلة ، جاورتهم فكانوا شر جيران . قلت : أفلا أخبرك بأذلّ منهم وألأم ؟ قال : بلى . قلت : بنو مجاشع . قال : وَيلك ! ولِمَ ؟ قلتُ : أنت شاعرهم وسيدهم ، جاءك شُرَطىّ مالك حتى أدخلك السجن ؛ لم يمنعوك . قال : قاتلك الله !

١١ — أخبرنا أبو خليفة قال : أخبرنا ابنُ سلاّم قال : حدثنى شعيْب ابن صَخر عن محمد بن زياد ، وكان فى ديماس[١] الحجاج زمانًا ، حتى أطلقه سليمان حين قام ، قال : انتهيتُ إلى الفرزدق وهو ينشد بمكة بالردْم[٢] مديحَ سليمان بن عبد الملك :

وكم أطلقتْ كفّاك من قَيد بائس ومنْ عُقدة ما كان يُرْجى انحلالها
كثيراً من الأيدى التى قد تكنّعت فككت وأعناقًا عليها غِلاَلها[٣]

فقلت : أنا والله أحدهُم . فأخذ بيَدى وقال : أيها الناس ، سَلُوه ، فوالله ما كذبت قط .

١٢ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلام قال : أنشدنى يونس النحوى وعبد القاهر السلمى للفرزدق ، حين عُزل مَسلمةُ عن العراق بعد قتله يزيدَ ابن المهلب ، واستُعمل عُمرُ بن هبيرة :

ولّتْ بمَسلمةَ الركابُ مودّعًا فارْعَىْ فَزَارةُ لا هَنَاك المرْتَعُ[٤]
فسدَ الزمانُ وبدلتْ أعلامه حتى أميةُ عن فَزارة تنزع[٥]

---

(١) الديماس : السرب المظلم تحت الأرض ، وبه سمى سجن الحجاج الذى أقامه بواسط .

(٢) الردم : موضع بمكة .

(٣) تكنعت : أى ضمها القيد فتقبضت . وغلالها ، أى أغلالها ، الواحد غل ، وهو كالقيد يوضع فى العنق واليد .

(٤) فزارة : رهط عمر بن هبيرة ، لا هناك : دعاء عليهم ، أى لامتعت بالحياة ونغصها الله عليك .

(٥) الأعلام : ما يوضع على الطريق يستدل به ، الواحد علم . وتنزع أمية عن فزارة ، أى تقول برأيها وتأخذ به . يعجب من ذلك لخسة فزارة عنده .

ولقد علمتُ إذا فزارةُ أمِّرتْ   أنْ سوف تطمع فى الإمارة أشجع (١)
والخَلقُ ربك ما هُم ، ولمثلهم   فى مثل ما نالت فزارةُ تطمع
نزع ابنُ بشر وابن عمرو قبله   وأخو هراةَ لمثلها متوقعُ

ابن بشر : عبدُ الملك بن بشر بن مروان ، كان مسلمةُ أمَّره على البصرة . وابنُ عمرو : سعيدُ بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان على خراسان . وأخو هراة : سعيدُ بن عبد العزيز بن الحكم بن أبى العاصى .

١٣ — وقال إسماعيلُ بن عمار الأسدىّ حين عزل ابن هبيرة وأمَّر خالدٌ القسرى .

عجِب الفرزدقُ من فزارة أنْ رأى   عنها أميةَ فى المشارق تنزِعُ
بكت المنابرُ مِن فزارةَ شجوَها   فاليومَ من قسر تضجُّ وتجزعَ (٢)
وبنو أميةَ أضرعونا للعدى   لله درُّ ملوكنا ! ما تصنْع (٣)

وقال قوم : إنْ هذا البيتَ للفرزدق ، ومَن أنشده له قال :

* وملوكُ خندفَ أضرعونا للعدىَ *

١٤ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم ، قال : حدثنى جابر بن جندل قال :

قيل لابن هبيرة : مَن سيد أهل العراق ؟ قال : الفرزدق ، هجانى ملكًا ومدحنى سُوقة (٤) .

١٥ — وقال لخالد بن عبد الله حين قدم العراق ، أميرًا لهشام :

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مطية   أتتنا تخطى مِن دمشقَ بخالد (٥)
وكيف يؤم الناسَ من كانت أمه   تدين بأنّ الله ليس بواحد (٦)

---

(١) أشجع : قبيلة ، جعلهم دون فزارة حقارة .
(٢) بكى شجوه : أى نفس عن نفسه ببكائه .
(٣) أضرعه : أذله .
(٤) السوقة : خلاف الملك ، لأن الملك يسوقهم ويحكمهم .
(٥) المطية : الناقة .
(٦) كانت أمه رومية .

وقال :

لَعمرِى لئن كانت بجيلةُ زانها   جرير لقد أخزى بجيلةَ خالدُ(١)

فلما قدم العراقَ أميراً أمَّرَ على شُرْطة البصرة مالكَ بن المنذر . فكتب إليه خالد : أن احبس الفرزدقَ ، فإنه هجا أميرَ المؤمنين بأبيات — قالها الفرزدق حين حفَرَ خالدٌ النهرَ الذى سماه المبارَك :

أهلكتَ مالَ اللهِ فى غــير حقه   على نهرك المشئوم غــيرِ المبارَك

وتَضرِبُ أقــوامًا بَرَاءً ظهورَهم   وتَترك حــقَّ اللهِ فى ظهر مالك(٢)

أإنفــاقَ مالِ اللهِ فى غير كُنْهه   ومنعًا لحــق المرملات الضرائك(٣)

وكان عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر يدَّعى على مالك فِرْيةً(٤) فأبطلها خالد .

١٦ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا محمد بن سلاّم قال : حدّثنى أبو يحيى قال : قال الفرزدقُ لابنه لبَطة ، وهو محبوس : اشخَصْ إلى هشام — ومدحَه بقصيدة ، وقال لابنه : استعِنْ بالقيسية ولا يمنعْك منهم هجائى لهم ، فإنهم سيغضَبون لك . وقال :

أنقتل فيكُمْ أن قتَلنــا عدوَّكم   على دينكم ، والحربُ بادٍ قَتامها(٥)

فغيِّرْ أمــيرَ المؤمنين ، فإنهــا   يمانيــةٌ حمقــاءُ أنتَ هشامها(٦)

---

(١) هو جرير بن عبد الله البجلى ، صحابى . قدم المدينة سنة عشر ومعه مائة وخمسون من قومه فأسلموا وبايعوا .

(٢) براء : جمع برىء .

(٣) كنهه : حقه ووجهه . والمرملات : اللاتى نفد زادهن ، فكأنهن ألصقن بالرمل . والضرائك : الفقيرات البائسات ، جمع ضريكة وضريك .

(٤) كان مالك بن المنذر ذكر يوما عبد الأعلى بن عبد الله وافترى عليه . فقال عمر بن يزيد الأسدى : تفترى على مثل عبد الأعلى .

(٥) الدين : الطاعة . والقتام : الغبار . يريد أنهم جاهدوا عدوهم ليدينوا لهم ، فإذا عمالهم يقتلونهم.

(٦) اليمانية : أهل اليمن . وكان الذى قتل عمر بن يزيد هو مالك بن الجارود ، بأمر خالد بن عبد الله القسرى . وهو من يعرب بن قحطان ، من اليمن .

فأعانته القيسية وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إذا ما كان فى مُضَرَ نابٌ (١) أو شاعر أو سيد وثبَ عليه خالد فحبسه .

١٧ — وقال الفرزدق أبياتًا كتب بها إلى سَعيد بن الوليد الأبرش الكلبىّ :

إلى الأبرش الكلبى أسندتُ حاجةً ... تواكَلَهــا حيـّــا تميم ووائل

فدونَــكم يابن الوليــد فإنهــا ... مفضلةٌ أصحابهــا فى المحافل

ودونكها يابنَ الوليــد ، فقمْ بها ... قيــامَ امرئٍ فى قومه غيرِ خامل

فكلَّم له هشامًا ، وأمر بتخليته .

١٨ — وكان حِلْفٌ قديم بين كلب وتميم فى الجاهلية ، وذلك قولُ جرير :

تميمٌ إلى كلب وكلبٌ إليهمُ ... أحق وأوْلى من صُداءَ وحميرا (٢)

١٩ — وقال الفرزدق :

أشَــدٌّ حبال بين حيين مِرةً ... حبالٌ أمرتْ من تميم ومن كلب (٣)

فليس قضــاعىٌّ لدينا بخائف ... ولو أصبحت تغلى القدورُ من الحرْب

٢٠ — قال محمد بن سلام : وحدّثنى عبد القاهر قال : قال عُمر بن يزيد الأسَيْدىّ — وسمعت يونس يقول : ما كان بالبصرة مولد مثله — قال :

دخلتُ على هشام وعنده خالدُ بن عبد الله القسرىّ يتكلم ويذكر اليمنَ وطاعتها ، فأكثر من ذلك فصفقت تصفيقةً دوّى البهوُ منها . فقلت : ما رأيتُ كاليوم خطَلاً ! والله إنْ فُتحتْ (٤) فتنةٌ فى الإسلام إلاّ باليمن ، لقد قتلوا أمير المؤمنين عثمان ، ولقد خرج ابنُ الأشعث على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وإن سيوفنا تقطر من دماء بنى المهلب . فلما نهضتُ تبعنى رجلٌ من بنى مروان حضر ذاك ، فقال : يا أخا تميم ، وَرِيت بك زِنَادى (٥)، قد شهدْتُ مقالتك ،

---

(١) ناب القوم : سيدهم وكبيرهم .

(٢) صداء وحمير ، من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وجعل كلبا أولى بنزار أو تميم . لأن خندف بنت عمران ، أم مدركة جد قريش ، وطابخة جد بنى تميم قوم جرير ، من كلب . وأم خندف ضرية بنت ربيعة بن نزار .

(٣) المرة : قوة الحبل . وأمر الحبل : فتله فأجاد ، يريد العهود والمواثيق .

(٤) أى ما فتحت .

(٥) الزند : العود الأعلى الذى يقتدح به النار . والزندة : العود الأسفل الذى فيه الفرضة . ووريت : اتقدت وخرجت نارها . كناية عن أن به قوته ونجحه .

واعلم أنّ أمير المؤمنين موليه العراقَ ، وإنها ليست لك بدار .

فلما وَلى خالدٌ استعمل على أحداث البصرة[١] مالكَ بن المنذر . وكان لعمر مُكرِمًا ولحوائجه قضّاءً إلى أن وجَدَ عليه[٢] . وكان عُمر لا يملك لسانه ، فخرج من عنده وقد سأله حاجةً فقضاها فقال : كيف رأيتَ الفَسَّاء[٣] سخرنا به منذُ اليوم .

وقال قائلون : إنّ خالداً كتب إليه فيه ، فأخذه وشَهد عليه ناسٌ من بنى تميم وغيرهم ، فضرب به مالكٌ حتى قتله تحت السياط .

وكان عَمرو بن مسلم الباهلىّ[٤] أعان عليه ، وكانت حُميدة بنت مسلم عند مالك بن المنذر ، وأعان عليه بشير بن عبيد الله بن أبى بكرة ، وكان يخاصم هلالَ بن أحوز فى المِرْغاب[٥] خصومةً طويلة ، وكان عُمر[٦] يعين على بشير ، فقال الفرزدق :

لَحا الله قومًا شاركوا فى دمائنا وكُنا لهم عَوْنًا على العثَرات
فجاهرَنا ذُو الغِش عَمرو بن مسلم وأوْقد ناراً صاحبُ البَكَرات[٧]

يعنى بشيراً .

٢١ ــ وأخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابنُ سلام قال : حدثنى خلاد بن يزيد عن مسلم بن قُتَيبة قال :

رآنى بشير بن عبيد الله وأنا أخاصم بعضَ أهلى وأنا شاب ، فقال لى :

---

(١) أحداث البصرة : ما يحدث فيها ، يريد الشرطة .

(٢) وجد عليه : غضب عليه .

(٣) مالك بن المنذر بن الجارود من عبد قيس ، وكانوا يسكنون البحرين ويكثر أهلها من أكل التمر فيفعلون ذلك .

(٤) هو أخو قتيبة بن مسلم .

(٥) المرغاب : نهر بالبصرة ، حفره بشير .

(٦) هو عمر بن يزيد الأسدى .

(٧) يريد بالذين شاركوا من شهدوا على عمر بن يزيد الأسيدى : صاحب البكرات : هو بشير بن أبى بكرة . وكان جده نفيع بن الحارث تدلى يوم الطائف من الحصن ببكرة فأسلم . فكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرة . وأراد بإيقاده النار : مخاصمته فى نهر المرغاب التى انتهت بقتل عمر بن يزيد التميمى .

يابْنَ أخى ، إنى أراك ثَبْتَ المروءة ، فإياك والخصومات ، فإنها تذهب المروءة . فرأيته بعد ذلك يخاصم هلاَل بن أحوز فى المِرْغاب خصومةً طويلة ، فقلت له : أتذكر شيئًا قُلْتَه ؟ قال : نعم . قلتُ: فما بالك تخاصم؟ قال : يابن أخى ، إنى أخاصم فى عِدْل [1] الخلافة وأنت تخاصم فى ضَحْضاح [2] لا يوازى أخمصك .

وكانت عاتكةُ بنتُ الفرات بن معاوية البكائى ، وأمها المُلاَءة بنت أوْفى الحَرشىّ ، أخت زُرارة عند عُمر بن يزيد ، فخرجتْ إلى هشام وأعانتها القَيْسِية على مالك ، فحمل مالك .

٢٢ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلام : فحدّثنى محمد بن الحارث قال : قال له هشام : يابن اللّخْناء[3] ، قتلتَ سيدك ؟ قال : إن أمى التى تُلخن[4] حملت أباك على ركائبه إلى الشام . يعنى مَرْوان ، وكان لجأ أيام الجمل إلى المسامعة[5] جريحاً ، فداووْه ثم حملوه ، وأم مالك بَحْرية بنت مالك بن مسمع ، فألقى فى السجن وقد مرض وبه بَطَن[6] فمات فى مرضه . فقال الفرزدق :

ستعلمُ عبدُ القيْس أنْ زال مُلكُها على أى حال يستمر مَريرُها[7]

فأجابه النمَيرى بقصيدة يقولُ فيها :

وكان كعَنْز حينَ قامت لحتفِها إلى مُدْية مدفونة تستثيرُها[8]
وكان يجير الناسَ مِنْ سيف مالك فأصبح يَبْغى نفسَه مَنْ يجيرها

٢٣ — وقال الفرزدق :

تَصرَّم منى وُدُّ بَكْر بن وائل وما كان منى وُدهمْ يتَصرَّمُ[9]

---

(١) عدل الخلافة : ما يعادلها ويوازنها .
(٢) الضحضاح : الماء القليل يبقى فى الغدير يبلغ الكعبين أو دونهما .
(٣) ابن اللخناء : كلمة تستعمل فى السب الشديد .
(٤) تلخن : أى تلخنها . فتقول لها لخناء .
(٥) المسامعة : قبيلة من تيم اللات . ينسبون إلى أبيهم مسمع .
(٦) البطن : داء البطن .
(٧) استمر : قوى واشتد . والمرير : العزيمة والأمر .
(٨) الحتف : الهلاك . وتستثيرها : أى تكشف عنها الثرى .
(٩) تصريم : تقطع .

قوارصُ تأتيـنى وتحتقـرونهـا ... وقد يمـلأ القطرُ الإناء فيفعـَم(١)

وأجابه أبو العـَطاف :

لعمـرى لئن كان الفرزدقُ عاتبـًا ... وأحدَثَ صرْمـًا ، للْفرَزدق أظلم(٢)
لقد وسَّطتك الدارَ بكرُ بنُ وائل ... وضَمـَّتْك للأحشاء إذ أنْتَ مُجْرِم(٣)
ليـالى تمنى أن تكـون حـَمامةً ... بمكـة يؤويك الستارُ المحرم(٤)
فإنْ تـَنْأ عنا لا تـَضِرْنا وإن تـَعـُدْ ... تجدْنا على العهد الذى كنت تعلم(٥)

يعنى حين هرب الفرزدقُ من زياد .

---

(١) القوارص : الكلمات المؤذية ، الواحدة : قارصة . وفعم القطر الإناء ملأه .

(٢) الصرم : القطع .

(٣) وسطتك : أنزلتك وسطها ، وهو أكرم مكان بها . وضمتك للأحشاء ، أى حنت عليك ، كما تحنو الأم على رضيعها فتضمه إلى أحشائها .

(٤) آواه يؤويه : حاطه وحفظه ومنعه . والستار المحرم : ستار الكعبة .

(٥) نأى : بعد . ولا تضرنا : لا تسؤنا .

ذكر جرير

١ ـــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلام قال . سألتُ بشاراً العُقَيلىّ عن الثلاثة ، فقال : لم يكن الأخطلُ مثلَهما ، ولكنّ ربيعةَ تعصَّبَتْ له وأفرطت فيه . فقلت : فجريرٌ والفرزدق ؟ قال : كان جرير يُحْسِن ضروباً من الشعر لا يُحسنها الفرزدق . وفضّل جريراً عليه .

٢ ـــ وقال العلاء بن حَريز العَنْبرى ، وكان قد أدرك الناسَ وسمع ، قال : كان يقال : الأخطلُ إذا لم يجئْ سابقًا فهو سُكَيْت [١] . والفرزدقُ لا يجىء سابقًا ولا سُكَيْتًا ، فهو بمنزلة المصَلى [٢] . وجريرٌ يجىء سابقًا وسُكيتًا ومصَليًا .

٣ ـــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم قال : وأخبرنى أبان بنُ عثمان الكوفىّ قال : سُئل الأخطل عن جرير بالكوفة ، فقال : دعُوا جريراً أخزَاه الله ، فإنه كان بلاءً على من صُبَّ عليه . وذكر من قوله :

ما قادَ من عَرَب إلىّ جوادَهم إلا تركتُ جوادَهم محسورا [٣]
أبقَتْ مُرَاكضَةُ الرهان مجرّبًا عند المَواطن يرزَقُ التيسيرا [٤]

٤ ـــ أخبرنا أبو خليفة : قال ابن سلام : قال مسلمة بن مُحارب :

كان الفرزدقُ عند أبى فى مَشرُبة [٥] له ، فدخل رجلٌ فقال : ورَدَت اليومَ المربَد [٦] قصيدةٌ لجرير تناشدها الناسُ ؛ فانتُقع [٧] لونُ الفرزدق . قال : ليستْ فيك يا أبا فراس . قال : ففِيمنْ ؟ قال : فى ابن لَجأ التيمى ، قال : أفحفظتَ منها شيئًا ؟ قال : نعم ، علِقْتُ منهـا ببيتين . قال : ما هما ؟ قالَ :

---

(١) السكيت : الذى يجىء فى آخر الحلبة . وتشدد كافه .

(٢) المصلى : الذى يجىء بعد السابق .

(٣) جوادهم : أى شاعرهم المحامى عنهم . ومحسوراً : كليلا قد هده الإعياء .

(٤) المراكضة : المسابقة فى الركض . والتيسير : اللين والانقياد والسهولة يريد ما يسهل له السبق فى مواطن الرهان .

(٥) المشربة : الغرفة .

(٦) المربد : موضع سوق الإبل .

(٧) انتقع لونه : تغير .

لئن [غمرتْ تيمٌ زمانًا بغِرَّة ... لقد حُدِيتْ تيمٌ حُداءً عَصبصَبا (١)
فلاَ يضْغمَنَّ الليثُ عُكْلاً بغرة ... وعُكْلٌ يشمونَ الفريسَ المنيَّبا (٢)

فقال الفرزدق : قاتلُه الله ! إذا أخذ هذا المأخذَ لا يقام له .

٥ ــ أخبرنا أبو خليفة أخبرنا ابنُ سلام قال أخبرنى يونس قال : كان الفرزدقُ يتضوّر (٣) ويجزع إذا أنشد لجرير ؛ وكان جرير أصبرهما .

٦ ــ أخبرنا أبو خليفة أخبرنا ابنُ سلام قال : وأخبرنى أبو البَيداء قال : قالَ الفرزدق : إنى وإياه لنَغترف من بَحْر واحد ، وتضطرب دِلاؤه (٤) عند طول النهزِ (٥) .

٧ ــ قال ابن سلام : وذاكرتُ مروانَ بن أبى حَفْصَة جريراً والفرزدق فقال : أحكم فى الثلاثة بشعر ، فإن الكلام يرْويه كلٌّ قوم بأهوائهم ، فقال :

ذهب الفرزدق بالفَخار ، وإنما ... حُلْو الكلام ومُرُّه لجرير
ولقد هجا فأمضّ أخطلُ تَغْلبِ ... وحوَى اللهى بمديحه المشهور (٦)
كلٌّ الثلاثة قد أجاد فمدْحـه ... وهجاؤه قد سار كلَّ مَسير

وسألت الأسَيْدى أخا بنى سلامة عنهما فقال :

بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح ، ونسيب ، وهجاء . وفى كلها غَلَب جرير . فى الفخر فى قوله :

إذا غضبتْ عليك بنــو تميمٍ ... حسبتَ الناس كلهم [غِضابا

---

(١) عمرت : عاشت وبقيت طويلا . وبغرة ، أى ناعمة البال بعيدة عن النوائب . وحديت : سيقت كما تساق الإبل . وعصبصب : شديد مجتمع الشر . أراد ما جاءهم من الهجاء فأزعجهم بعد استقرار .

(٢) الضغم : العض الشديد . وعكل ، هم بنو عوف بن عبد مناف . والفريس : المفترس . والمنيب : الذى أنشبَ فيه الذئب نابه . وعادة الغنم إذا شمت موضع أنياب الذئب أن ينضم بعضها إلى بعض . جعلهم كالغنم عجزاً وجبنا . وهو يحذر عكلا أن تفعل فعل الغنم فى اجتماعها على الفريس فتجتمع على تيم لنصرها ، فينال منهم الذئب ، إذ الليث يترك الجريح ويخطف السليم .

(٣) يتضور : يضطرب ويتلوى.

(٤) الدلاء : جمع دلو .

(٥) النهز : الضرب بالدلو فى الماء الممتلىء . يريد وصف جرير بالضعف فى الغوص على المعانى .

(٦) امض : أوجع . واللهى : جمع لهوة ، وهى العطية .

وفى المدح قوله :

ألستم خيرَ من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح [١]

وفى الهجاء قوله :

فغُضّ الطَّرْف إنك من نُمَير   فلا كعبًا بلغتَ ولا كِلابا [٢]

وفى النسيب قوله :

إنّ العيون التى فى طَرْفها حَوَرٌ   قَتلننا ثم لم يُحيين قَتْـلانا

وإلى هذا يذهب أهل البادية .

٨ ــ أخبرنا أبو خليفة قال : أخبرنا ابن سلام قال : قال أبو الغرّاف : كان الخَطَفَى ذا إبل ومال ، فلما وُلِد جرير لعطية كان يَنحله من إبله وماله ، فولد للخطفى صبيةٌ ، فرجع فيما كانَ نحل جريراً ، فقال :

ألاَ حىّ رهبى ثم حَىّ المَطاليـا   لقد كانَ مأنوسًا فأصبح خاليا [٣]

عفاالرسمُ إلاّ أن تذكرَ أو ترى   ثمامًا حوالىْ مَنْصَبِ الخَيم باليا [٤]

إذا ما أراد الحىُّ أن يتحملوا   وحَنَّت جمال الحى حنَّت جماليا [٥]

وإنى لمغـرورٌ أعلل بالمنى   غداةَ أرجّى أن مالكَ ماليا

وليست لسيفى فى العِظَام بقيـةٌ   وللسيفُ أشوَى وقعةً من لسانيا [٦]

ووفد جريرٌ بعد ذلك إلى يزيدَ بن معاوية ، وهو خليفة ، وجرير حدثٌ فأنشدهما :

وإنى لعَفٌّ الفقر مُشتركُ الغِنى   سريعٌ إذا لم أرْضَ دارى انتقاليا

---

(١) أندى : أسخى.

(٢) يهجو الراعى . وهو من بنى نمير بن عامر بن صعصعة . وكعب هو ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأخوه كلاب بن ربيعة بن صعصعة . يثنى على بنى عمومته ويذم قومه بنى نمير .

(٣) رهبى : موضع فى ديار بنى تميم قوم جرير . والمطالى : ماء قريب من حمى ضرية . ومأنوس : به سكانه .

(٤) عفا : درس وامحى . والرسم : ما بقى من آثار الدار . والثمام . نبت ضعيف قصير لا يطول . ومنصب : حيث ينصب الخيام وتضرب .

(٥) يتحملوا : يرفعوا أحمالهم للرحيل .

(٦) بقية : أى أن سيفه مستأصل لا يبقى على شىء . وأشوى : أضعف وأهون . أى أن لسانه أمضى من سيفه وأعظم أثراً .

قال : كذبتَ ، ذاكَ جرير . قال : فأنا جرير . قال : والله لقد فارق أمير المؤمنين معاوية الدنيا وهو يرى أنّ هذا البيتَ لى .

٩ — أخبرنا أبو خليفة قال ابن سلام : أخبرنى أبان بن عثمان قال :

تنازع رجلان فى عسكر المهلّب فى جرير والفرزدق ، وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه . فقال : لا أقول فيهما شيئًا — وكره أن يعرّض نفسه — ولكنْ أدُلكما على منْ يهون عليه سخطهما : عبيدة بن هلال ، وهو مولى بنى قيس ابن ثعلبة ، وهو يومئذ فى عسكر قَطرىّ (١) ، فأتياه فوقفا حِيالَ العسكر فدعواه . فخرج يجرُّ رمحه ، وظن أنه دعى للبراز . فقالا له : الفرزدقُ أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنةُ الله ؟ قالا : نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد ،

قال : من يقول :

وطوَى القِيادُ مع الطِّـراد بطونها ... طىَّ التجارِ بحضرمَوْتَ برودا (٢)

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما .

١٠ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا محمد بن سلام . قال : أخبرنى أبو رَجاء الكلْبىّ قال :

كان لأمامةَ امرأة جرير ، ابن أخ ذو إبل يقال له : عصيدة ! لِقصر فى يده . فلم تزل به امرأته حتى زوّجه ابنته ، فعتبَ عليه ، فقال :

وغرّتنـا أمامـة فافتحلْنا ... عصيدةَ إذ تُنخلت الفحول (٣)

إذا ما كان فحلُكَ فَحْلَ سوء ... خلجتَ النّسْلَ أولؤم الفصيل (٤)

١١ — أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام : أخبرنا أبو الغرّافَ قال : دخل جريرٌ على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة ، وعنده ابن الرّقاع العاملىّ ،

---

(١) هو قطرى بن الفجاءة ، بطل الخوارج وشاعرها .

(٢) طوى : أضمر . والقياد : حبل تقاد به الدابة . والطراد ، حمل الفرسان بعضهم على بعض فى الحرب . البرود : جمع برد ، وهو الثوب .

(٣) افتحل : اختار فحلا كريماً . وتنخل : تخير .

(٤) خلج : انتزع ، يريد إذا كان الزوج زوج سوء فأولى أن يفرق بينه وبين زوجته وإلا جاء ولده لئيما سيئاً مثله .

فقال الوليد لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : هذا رجلٌ من عاملة ، قال : الذين يقول الله جلّ ثناؤه : (عاملةٌ ناصبةٌ . تَصْلى ناراً حاميــة) .

فوثب العاملىّ إلى رِجْل الوليد فقبلها ، وقال : أجرْنى منه . فقال الوليد لجرير : لئن سميته لأسرجنَّك ولألجمنَّك وليركبنك فتعيرك بذلك الشعراء. فكنى جريرٌ عن اسمه ، واسمه عدىّ ، فقال :

إنى إذا الشاعر المغرور حرّبنى ... جارٌ لقبر على مرّان مرموسِ (١)
قد كان أشْوس أبـَّاء فأوَرَثنــا ... شَغَباً على الناس فى أبنائنا الشوس (٢)
أقْصرْ فإنَّ نِزاراً لا يفاخرُهم ... فَرْعٌ لئيم وأصلٌ غيرُ مغرُوس (٣)
وابنــا نِزار أحَلاَّنى بمنزلــة ... فى رأس أرْعَن عادىّ القَدامِيس (٤)
وابن اللبــون إذا ما لُزَّ فى قرَن ... لم يستطعْ صَولة البزلِ القناعيس (٥)

* * *

١٢ — أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام قال : حدثنى شعيب بن صَخْر ، عن هارون بن إبراهيم . قال : رأيتهما فى مسجد دِمشق ، والفرزدق فى عِصابة

(١) حربنى : أغضبنى أشد الغضب . ومران : موضع على أربع مراحل من مكة إلى البصرة ، فيه قبر تميم بن مر بن أد ، سلف جرير . وأراد بقوله « جار لقبر على مران » أنه فى جوار بنى تميم إذا غضب غضبوا له . ومرموس : عليه التراب قد سوى بوجه الأرض .

(٢) الشوس : جمع أشوس ، وهو الذى ينظر بإحدى عينيه ، ويميل بوجهه فى شق العين التى ينظر بها ، يفعله المرء من الكبر والتيه والغضب . والشغب : تهييج الحرب .

(٣) نزار : جد تميم ، من عدنان . وعاملة : قوم عدى بن الرقاع ، من كهلان . وغير مغروس . أى غير ثابت .

(٤) ابنا نزار : ربيعة ومضر . وأرعن : شامخ . وعادى : قديم ، نسبة إلى عاد . والقداميس : جمع قدموس ، وهى الصخرة العظيمة . يعنى أنهم سادة أقوياء منذ القدم .

(٥) ابن اللبون : ولد الناقة إذا استكمل سنتين وطعن فى الثالثة . فصارت أمه لبونا ، أى ذات لبن . ولزه : شده وألصقه . والبازل : البعير استكمل الثامنة وطعن فى التاسعة وعندها يكون مستكمل القوة . القناعيس : جمع قنعاس ، وهو الجمل العظيم الطويل السنام . يريد أن ابن اللبون إذا ما قرن ببازل لم يطق ما يطيقه البازل وضعف وفتر .

من خِندف ، والناس عنقٌ على جرير ، قيسٌ وموالى بنى أمية ، وهم يسلمون عليه ويسألونه : يا أبا حَزْرة[١] ، كيف كنتَ فى مسيرك ؟ وذلك لمديحه قيساً وقوله فى العجم :

فيجمَعنا والغرَّ أولادَ سارة أبٌ لا نبالى بعدَه منْ تعذرا[٢]

قال أبو خليفة : سمعت عمارة بن بلال يقول : وافته فى يومه مائة حلة من بنى الأحرار[٣] .

١٣ ــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم . وحدّثنى أبو اليَقْظان أخبرنا جويرية بن أسماء . قال :

قلتُ لنُصَيب مولى عبد الملك : يا أبا مِحْجن ، مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : أخو بنى تميم . قلت : ثم من ؟ قال : أنا . قلت : ثم من ؟ قال : ابنُ يَسار النسائى . فلقيتُ إسماعيل بن يَسار النسائى فقلت : يا أبا فائد ، من أشعر الناس ؟ قال : أخو بنى تميم . قلت : ثم من ؟ قال : أنا . قلت : ثم من ؟ قال : نُصَيب فقلت : إنكما لتتقارضان الثناء . قال : وما ذاك ؟ قلتُ : سألتُه فقال فيك مثلَ ما قلتَ فيه . قال : إنه والله شاعرٌ كريم . ولا أظنه إلاّ بدأ بابْنِ يَسار قبل نُصَيب .

* * *

١٤ ــ أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا محمد بن سلام ، قال : أخبرنى أبو الغَرّاف قال :

نُعى الفرزدقَ لجرير ، وهو عند المُهاجرِ بن عبد الله باليمامة ، فقال :

مات الفرزدقُ بعد ما جَدَّعْته ليت الفرزدقَ كان عاش قليلا[٤]

فقال المهاجرُ : بئس ما قلتَ ! تهجو ابن عمك بعد ما مات ! لو رثيته كان أحسن بك ! قال : والله إنى لأعلم أن بقائى بعده لقليل ، وإن كان نجمى موافقاً

---

(١) أبو حزرة : كنية جرير ، كنى بولده حزرة بن جرير .
(٢) سارة : امرأة إبراهيم عليه السلام . ويريد بأولادها : العجم . وتعذر : تخلف .
(٣) بنو الأحرار : الفرس .
(٤) جدعه : أى أذله.

لنجمه فلأرثينّه . قال : بعد ما قيل لك ! لوكنت رثيته ما نسيتك العرب .

١٥ — قال ابن سلام : فأنشدنى معاوية بن أبى عمرو بلجرير يرثى الفرزدق :

فلا ولدتْ بعد الفرزدق حامل ولا ذاتُ حَمل من نِفاس تعلَّتِ [١]

هو الوافدُ المأمونُ والراتقُ الثأى إذا النعل يومًا بالعشيرة زَلت [٢]

* * *

١٦ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا محمد بن سُلاّم ، قال : حدّثنى أبو الغراف ، قال : الذى هاج بين جرير والراعى ، وهو عُبَيْد بن حُصَين ، أن الراعى كان يُسأل عن جرير والفرزدق فيقول : الفرزدق أكرمهما وأشعرهما . فلقيه جريرٌ فاستعاذه من نفسه ، وطلب إليه ألاّ يدخلَ بينهما ، وقال : أنا كنتُ أولى بعونك ، إنى لأمدحكم وإنه ليهجوكم . قال : أجل ، ولستُ لمساءتك بعائد . ثم بلغ جريراً أنه عاد فى تفضيل الفرزدق عليه ، فلقيه بالبصرة وجرير على بغلة ، فعاتبه وقال : استعذْتُك فزعمتَ أنك غير داخل بينى وبين ابن عمى . قال : والراعى يعتذر إليه ، وأقبل ابنه جَنْدل ، وكان فيه خَطَل وعُجْب ، فقال لأبيه : إنى لأراك تعتذر إلى ابن الأتان [٣] ، والله لنفضلنّ عليك ولنروينّ هجاءك ولنهجونك من تلقاء أنفسنا . وضرَب وَجه بغلته ، وقال :

ألم تر أن كلْب بنى كُلَيب أراد حياضَ دِجْلة ثم هابا [٤]

فانصرف جريرٌ مُحفَظًا مغضبًا ، فقال الراعى لابنه : أما والله ليهجونى وإياك : فليته لم يجاوِزْنا ، ولكن سيذكر نسوتك . وعلم الرّاعى أنْ قد أساء فندم. فتزعم بنو نمير أنه حلف ألا يجيبه سنةً غضبًا على ابنه ، وأنه مات فى السنة . ويقول غيرهم : إنه كَمِدَ لما سمعها [٥] فمات .

(١) تعلت المرأة من نفاسها : سلمت وصحت .

(٢) الوافد : الذى يفد إلى الملوك ، يعنى أنه رئيس قومه . والمأمون : الموثوق به . والراتق : المصلح . والثأى : الفساد . أى إذا زلت بقومه أقدامهم أقال عثرتهم .

(٣) الأتان : أنثى الحمار .

(٤) يعنى أنه لا يستعيذك إلا خوفاً ، ولو استطاع أن يخوض فى أعراضنا لخاض .

(٥) سمعها ، أبيات أى جرير التى ستأتى .

١٧ — وكان جرير ، يوم جرى هذا بينهما بالبصرة ، نازلاً على امرأة من بنى كليب ، فبات فى عِلية [١] لها وهى فى سُفْل دارها ، فقالت المرأة : فباتَ ليلته لا ينام ، يتردد فى البيت حتى ظننتُ أنْ قد عَرَض له جِنى ، حتى فُتح له :

أقلّى اللومَ عاذلَ والعتابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

حتى قال :

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميم حسبتَ الناس كلهم غضَابا

ثم أصبح بالمِرْبد فقال : يا بنى تميم ، قَيدوا ! أى اكتبوا . فلم يُجِبْه الراعى ، ولم يهجهُ جريرٌ بغيرها .

١٨ — فقال لى بعض رُواة قيس وعلمائها : كان الراعى فَحلَ مضر ، فضغَمه [٢] الليث ، يعنى جريرا .

* * *

١٩ — وقال أبو البَيْداء :

مرّ راكب يتغنى :

وَعاوٍ عَوى من غير شىء رميتُه بقافية أسبابها تَقْطُر الدما [٣]

خَروج بأفواه الرواةِ كأنها قرَا هُنْدُوانىّ إذا هُزّ صَمّما [٤]

فسمعه الراعى ، فأتبعه رسولاً ، فقال : من قال البيتين ؟ قال : جرير : قال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنَوْا فيه شيئًا ! وإنما يعنى جريرٌ البَعيثَ ، وكذلك كان اعتراض البعيث جريرا فى غير شىء .

* * *

(١) العلية : الغرفة .

(٢) ضغمه : أهوى إليه فملأ فه منه وعضّه عضا شديداً .

(٣) أسبابها : أى أبياتها .

(٤) خروج : كثيرة الخروج . لأنهم يكثرون من إنشادها استحساناً لها والقرا : الظهر . والهندوانى : السيف ، ينسب إلى الهند . وصمم : مضى فى الضريبة .

٢٠ ـ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم ، قال : حدثني أبان بن عثمان قال :

كان سُرَاقةُ البارقيّ شاعراً ظريفاً تحبه الملوك ، وكان قاتلَ المختارَ[1] ، فأخذه وأمر بقتله ، فقال : والله لا تقتلني حتى تَنْقُضَ دَمشق حجراً حجراً فقال المختار لأبي عَمْرة[2] : من يُخْرِج أسرارنا ؟ قال : مَنْ أسرك ؟ قال : قومٌ على خَيل بلق لا أراهم في عسكرك. قال : فأقبل المختارُ على أصحابه فقال : إنّ عدوّكم يرَى من هذا ما لا ترَوْن . قال : إني قاتلك . قال : والله يا أمين آل محمد إنك تعلم أنّ هذا ليس باليوم الذى تقتلني فيه . قال : ففي أيّ يوم أقتلك ؟ قال : يومَ تضع كرسيك على باب مدينة دمشق فتدْعوني يومئذ فتضرب عنقي . فقال المختار لأصحابه : يا شرطة الله ، من يذيع حديثي ؟ ثم خلّى عنه . فقال سُرَاقة وكان المختار يكنى أبا إسحاق :

ألاَ أبلغ أبا إسحاق أني ... رأيتُ البُلْقَ دهماً مصمتات[3]
كفرتُ بوَحيكم وجعلتُ نذْراً ... عليّ قِتالكم حتى الممات
أرى عينَيّ ما لم ترْأياه ... كلاَنا عالمٌ بالترّهات[4]

ثم قَدم سراقةُ بعد ذلك العراقَ مع بشر بن مَرْوان ، وكان بشرٌ من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان مُمَدّحاً، مدحه جرير والفرزدق والأخطل وكثير وأعشى بني شيبان ، وكان يغرى بين الشعراء ، وهو أغرى بين جرير والأخطل فحمل سراقة على جرير حتى هجاه ، وقال[5] :

أبْلغْ تميماً غثها وسمينها ... والقولُ يَقْصِدُ تارةً ويَجُورُ[6]

---

(١) هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، كذاب ثقيف . تشيع وادعى النبوة، وقتل سنة ٦٧ من الهجرة .

(٢) هو أبو عمرة كيسان مولى عرينة ، وكان المختار ولاه حرسه .

(٣) رأيت : علمت . والبلق : جمع أبلق ، وهو الفرس فيه سواد وبياض والدهم : جمع أدهم ، وهو الفرس الشديد السواد . وأدهم مصمت، أي أسود خالص السواد .

(٤) الترهات : أي الأباطيل ، الواحدة : ترهة .

(٥) أي سراقة .

(٦) الغث : المهزول الضعيف الساقط . والقصد : الاستقامة . والجور : العدول عن الجادة .

أن الفرزدق بَرَّزَتْ حَلَبَاتــه عفوًا وغُودر فى الغُبار جريرُ[١]

فقال جرير فى قصيدته التى قال فيها :

يا صاحبىّ هل الصباحُ منيرُ أم هلْ للوم عواذلى تَفْتيرُ[٢]

يا بِشر ، إنك لم تزل فى نعمة يأتيك من قِبَل المليك بشير

قد كان حقك أن تقولَ لبارق يا آل بارقَ فيمَ سُبَّ جرير

ثم نزَعا ، فمرَّ جريرٌ بسراقة بمنًى ، والناس مجتمعون على سُراقة وهو ينشد ، فَجهره[٣] جماله واستحسن نشيدَه . فقال له جريرٌ : من أنت ؟ قال : بعضُ من أخزاه اللهُ على يديك . قال : أما والله لو عرفتك لوهبتك لظَرْفك .

* * *

٢١ ــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم . قال : قال أبو الغرّاف : قال جرير :

ألمْ يَنْهَ عنى الناسَ أنْ لستُ ظالمًا بريئًا وأنى للمُلاَحين مِتْيح[٤]

---

(١) برز : سبق . والحلبات : خيل الرهان . وعفوا ، بلا جهد .

(٢) تفتير : سكون بعد حدة .

(٣) جهره : راعه بحسنه .

(٤) الملاحون : المخاصمون . والمتيح : الرجل يعرض فى كل شىء ويدخل فيما لا يعنيه .

ذكر الأخطل

١ ـ أخبرنى أبو خليفة : أخبرنا محمد بن سلام ، قال : حدّثنى عامر بن عبد الملك المسمعىّ ، قال :

لما بلغَ الأخطلَ تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدرْ إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتينى بخبرِهما . فلقيهما فاستمع ، ثم أتى أباه فقال : جريرٌ يَغْرِف من بحر ، والفرزدق يَنْحِتَ من صَخْرَ . فقال الأخطل : فجريرٌ أشعرهما . فقال :

إنى قضيتُ قضاءً غيرَ ذى جَنَفٍ ... لمَّا سمعتُ ولمــا جاءنى الخبرُ (١)
أنّ الفرزدق قد شالتْ نعــامَتُه ... وعَضَّه حَيَةٌ من قومــه ذَكَرُ (٢)

ثم قدم الأخطلُ الكوفة على بشر بن مرْوان ، فبعث إليه محمدٌ بن عُمَيْر ابن عطارد بدارهمَ وحُملان وكسوة وَخمر . وبلغنى أنّ الذى بعث إليه بهذا شَبَّةُ ابن عِقال المجاشعى ، وقال للأخطل : فَضّل شاعرنا عليه وسُبه . فقال الأخطل :

اخسأ كليبُ إليكَ إن مجاشعًا ... وأبا الفوارس نهشلاً أخَوان (٣)
قومٌ إذا خطرتْ عليك قُرومُهم ... جعلوك بينَ كلاكل وجِرَان (٤)
وإذا وَضعتَ أباك فى ميزانهم ... رَجحوا وشال أبوك فى الميزان (٥)

فقال جرير :

ياذا العبَاية إنّ بشْرا قد قضى ... ألاّ تَجوزُ حكومةُ النشوان (٦)

---

(١) الجنف : الميل والجور .
(٢) شالت نعامته : ذهب عزه ودرس أمره . وحية ذكر : شجاع شديد .
(٣) اخسأ : اذهب وابتعد منى لحقارتك .
(٤) القروم : جمع قرم ، وهو هنا السيد الكريم المقدم . والكلاكل : جمع كلكل ، وهو الصدر . والجران : باطن العنق من مذبح البعير إلى منحره .
(٥) شال : ارتفع من خفته .
(٦) الحكومة : الحكم . والنشوان : الذى أخذته نشوة الخمر . يعرض بالأخطل لأنه كان يشرب .

٢ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابن سلاّم ، قال : وحدّثنى أبو عبيدة النحوى قال : لما أتى الأخطلَ قولُ جرير :

جاريتَ مُطَّلِعَ الرهان بسنّه   رَوْقٌ شبيبته وعمرك فانى (١)

قال الأخطل : صَدق ابنُ المراغة ! وقد أُدِيل منى حين أقول لنابغة بنى جعدة :

لقد جارى أبو ليلى بقَحْمٍ   ومنْتَكِث على التقريب وانى (٢)

إذا دَخَلَ الخبَارَ أكبَّ فيه   وخرَّ على الجحافل والجِرَانِ (٣)

* * *

٣ — أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابنُ سلاّم ، قال : حدّثنى أبو يحيى الضبيّ قال :

كان عبدُ الرحمن بن حسان ويزيد بن معاوية يتقاولان ، فاستعلاه (٤) ابن حسان ، فقال يزيدُ لكعب بن جُعَيل : أجبه عنى واهْجه . فقال : والله ما تلتقى شفتاى بهجاء الأنصار ! ولكنْ أدلك على الشاعر الفاجر الماهر ، فتى مِنَّا يقال له : غِيَاث بن الغَوْث ، نصرانىّ .

٤ — وكان كَعْب سماه الأخطل ، سمعه ينشد هجاء فقال : يا غلام ، إنك لأخطل اللسان (٥) .

٥ — قال أبو يحيى : قال كعب بن جعيل :

إنى قد هجوتُ نفسى ببيتين ، وضممتُ عليهما (٦) ، فمن أصابهما فهو

---

(١) مطلع : أصلها ، مضطلع ، فأدغم ، وهو الضابط للأمر القوى عليه المتحمل له ، وروق الشباب : أوله وأفضله .

(٢) أبو ليلى : كنية النابغة الجعدى . والقحم : الهرم المسن الفانى . ومنتكث ، إذا كان سميناً فهزل ، أى ضعيف قد انتكثت من الكبر قواه ، أى انتقضت وتشعثت . والتقريب : عدو للفرس . والوانى : الضعيف المتعب .

(٣) الخبار : ما استرخى من الأرض وتحفر ، أى صارت فيه حفر . وأكب : أكثر النظر إلى الأرض مخافة العثار ولم يمض مستقيما على وجهه . والجحافل : جمع جحفلة وهى من الفرس بمنزلة الشفة من الإنسان .

(٤) استعلاه : غلبه وقهره وعلا عليه .

(٥) من الخطل ، وهو السفه وفحش القول .

(٦) ضممت عليهما : أخفيتهما .

الشاعرُ . فقال الأخطل :

سُميتَ كعبًا بِشَرّ العِظام ... وكان أبوك يسمّى الجُعَل[١]
وإنّ محلَّك من وائـل ... محَلُّ القُرَادِ مِن اسْتِ الجَمَلْ

قال : هما هذان !

قال أبو يحى :

فأرسل إليه يزيد فقال : اهجهم . فقال . كيف أصنع بمكانهم ؟ أخاف على نفسى . قال : لك ذِمةُ أمير المؤمنين وذمتى . وذلك حين يقول :

ذهبتْ قريش بالسماحة والندى ... واللؤمُ تحت عمائم الأنصار

فجاء النعمانُ بن بشير الأنصارىّ إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، بُلغ منا أمرٌ ما بُلغ منا مثله فى جاهلية ولا إسلام ! قال : ومن بلغ ذاك منكم ؟ قال : غلامٌ نصرانىّ من بنى تَغْلب . قال : ما حاجتك ؟ قال : لسانه . قال : ذلك لك .

وكان النعمان ذا منزلة من معاوية . وكان معاوية يقول : يا معشر الأنصار ، تستبطئونى وما صحبنى منكم إلا النعمان ، وقد رأيتم ما صنعتُ به . وكان ولاّه الكوفة وأكرمه .

وأخبر الأخطل فطار إلى يزيد ، فدخل يزيد على أبيه فقال :

يا أمير المؤمنين ، هجونى وذكروك . فجعلتُ له ذمتك وذمتى على أن ردّ عنى . فقال معاويةُ للنعمان : لا سبيلَ إلى ذمة أبى خالد . فذاك حين يقول الأخطل :

أبا خالد دافعتَ عنى عظيمةً ... وأدركتَ لحمى قبل أن يتبددا[٢]
وأطفأتَ عنى نارَ نُعْمان بعدما ... أعَدّ لأمر فاجر وتَجَرّدَا[٣]

---

(١) الجعل : دويبة سوداء ، شبيهة بالخنفساء .

(٢) عظيمة : أى نكبة عظيمة .

(٣) تجرد للأمر : جد فيه .

ولما رأى النعمانُ دونى ابنَ حُرَّة طَوى الكشحَ إذ لم يستطعنى وعردا (١)

* * *

٦ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابن سلام قال : حدثنى أبو الحصين المدنى قال :

بينا الأخطلُ قد خلا مع صاحب له بخميرة (٢) لهما فى نزهة (٣) إذ طرأ عليهما طارئ لا يعرفانه ولا يستخفّانه ، فشرب شرابهما وثقل عليهما . فقال الأخطل :

وليس القذى بالعود يسقط فى الخمر ولا بذُباب خطْبُه أيسرُ الأمرِ (٤)
ولكنَّ شخصًا لا نُسرُّ بقربه تَرامى به الغيطان من حيثُ لا ندرى (٥)

* * *

٧ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلام ، قال : حدثنى أبانُ بن عثمان البجلى ، قال : مر الأخطلُ بالكوفة فى بنى رُؤاس ، ومؤذنهم ينادى بالصلاة ، فقال له بعضُ شبابهم : يا أبا مالك ألاَ تدخل فتصلى ؟ فقال :

أصلّى حيثُ تدركنى صلاتى وليس البرُّ وَسْطَ بنى رُؤاس

* * *

٨ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابنُ سلاّم ، قال : قال أبو يحيى الضبى : اجتمع الفرزدقُ وجريرٌ والأخطلُ عند بشر بن مروان ، وكان يُغْرِى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير . فقال : أعفنى أيها الأمير . قال : احكم بينهما . فاستعفاه بجهده فأبى إلا أن يقولَ ، فقال : هذا حكم مشئوم

---

(١) دونى ، أى يدفع عنى . والكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفى . وطوى الكشح : عارض وتولى . وعرد : أحجم ونكل .

(٢) خميرة : تصغير خمرة ، للتقليل.

(٣) نزهة : أرض بعيدة عن الريف نائية عن المياه .

(٤) القذى : ما يقع فى العين أو فى نواحى الإناء فيعلق به ويشوبه .

(٥) ترامى به : تقاذفته حتى رمته إلينا . والغيطان : الأرض المنخفضة المطمئنة .

ثم قال : الفرزدقُ يَنْحت من صخر ، وجرير يَغْرِف من بحر . فلم يرْضَ بذلك جريرٌ ، وكان سببَ الهجاء بينهما . فقال جرير :

يا ذا العَبَاية إنَّ بشراً قد قضى ... ألا تجوزَ حكومةُ النَّشوان
فدَعوا الحكومةَ لستُمُ من أهلها ... إنَّ الحكومةَ فى بنى شَيبان
قتلوا كُلَيبكم بلِقْحة جارِهم ... يا خُزْرَ تَغْلِبَ لستم بهِجَان (١)

فقال الأخطل :

ولقد تقايستُم إلى أحسابكُم ... وجعلتم حَكَماً من الصَّلتان (٢)
فإذا كليب لا تساوى دارماً ... حتى يساوى حزرم بأبان (٣)
وإذا جُعلتَ أباك فى ميزانهم ... رَجَحُوا وشالَ أبوك فى الميزان (٤)
وإذا وَردت الماء كان لدارم ... عَفَواته وسهولةُ الأعطان (٥)

* * *

٩ ــ أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابن سلام : حدثنى أبو الغرّاف ، قال : تناشدا عند الوليد بن عبد الملك ، فأنشد الأخطلُ كلمةَ عمرو بن كلثوم :

* ألاَ هُبى بصَحْنِك فاصبحِينا *

قال : فتحرّك الوليد فقال : مغِّرْ (٦) يا جرير . يريد قصيدةَ أوْس بن مغراء السعدىّ :

ماذا يهيجُك من رَبْع بفَيْحانا ... قَفْرٍ توهَّمتَ منه اليوم عِرفانا (٧)

---

(١) كليبكم : هو كليب بن ربيعة التغلبى ، قتله جساس بن مرة . واللقحة : الناقة القريبة العهد بالنتاج . يشير إلى حرب البسوس التى كانت بين بكر وتغلب . والخزر : جمع أخزر . وهو الضيق العين ، وذلك مما يذم عندهم . والهجان : الكرماء ، أو البيض . والعرب تمدح بالبياض .

(٢) المقايسة : أن توازن بين شىء وشىء . والصلتان ، هو العبدى ، وكان قضى بن جرير والفرزدق بشعره .

(٣) حزرم : جبيل فى ديار بنى أسد . وأبان : جبل ضخم .

(٤) شال : خف فلم يثقل به الميزان .

(٥) عفوة الماء : صفوه وخيره ، والأعطان : جمع عطن ، وهو مبرك الإبل حول الورد يقول : لعزهم ينالون خير الماء وألين المبارك .

(٦) مغر : أى أنشدنا قول أوس بن مغراء ، شاعر مضر .

(٧) فيحاء : موضع فى ديار بنى سعد .

منا النبيُّ الذى قد عاش مؤتمنًا   وصاحباه وعُثمانُ بنُ عفانا
تحالف الناسُ مما يعلمون لنا   ولا نحالِفُ إلاّ اللهَ مولانا
محمدٌ خيرُ من يمشي على قدَم   وكان صافيــةً لله خلصانا

فقال الأخطل : أعليّ تعصبَ يا أمير المؤمنين ! وعليّ تعين ! وأنا صاحب عبد الرحمن بن حسان ! وصاحب قيس ، وصاحبُ كذا !

وكان الأخطلُ مستعلياً قيسًا فى حربهم ، فقال :

إنّ السيوفَ غُدوُّها ورَوَاحهُــا   تركتْ هوازنَ مثلَ قَرْن الأعضب (١)

وكان يونس ينشد هذا البيتَ « غدُوّها ورَوَاحهـَا » جعله ظرفًا .

* * *

١٠ — وقال الأخطل :

لقد خُبِّرْتُ والأنباء تَنمِى   لقد نجّاك يا زُفرُ الفِرارُ (٢)

إلى أن قال :

ألا أبلغ الجحّافَ هل هو ثائرٌ   بقَتْلى أصيبتْ من سُليم وعامرِ (٣)

فجمع لهمَ الجحّافُ السلمى ، وهو أحدُ بنى فالج بن ذَكْوان ، وولِد بالبصرة هو وزفر بن الحارث ، وكانا عثمانيين ، فلما ظهر عليٌّ بن أبى طالب على أهل البصرة ، خرجا إلى الشام فسادا أهلها . وزُفر من بنى نُفَيل بن عمرو بن كلاب ، من وَلد يزيد بن الصَّعِق ، وهو سيدٌ شريف ، وله يقول القُطامىّ حين أسره فمنّ عليه :

مِنَ البيض الوجوه بنى نُفَيْل   أبتْ أخلاقُهم إلا ارتفاعا

فجمع لهم الجَحّاف جمعًا فأغار على البِشْر ، وهى منازل تغلب ، فأسرف

---

(١) الأعضب : المكسور القرن .

(٢) تنمى : تذيع . وزفر هو ابن الحارث الكلابى الشاعر ، وكان فراره يوم مرج راهط فى وقعة كانت بين الضحاك بن قيس ، ومروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ . فقتل الضحاك وانهزم أصحابه ، وكان منهم زفر .

(٣) هو الجحاف بن حكيم السلمى . وسليم ، أخو هوازن ، وعامر بن صعصعة ، من هوازن . يحرضه على ما وقع فى مقتل عمير بن الحباب السلمى فى يوم الحشاك ، من حروب قيس وتغلب .

فى القتل فيهم ، فاستحذى الأخطل ، فقال :

لقد أوقع الجحافُ بالبِشْر وَقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعول (١)
فإلا تغيرْها قريشٌ بملكها ... يكُنْ عن قريش مستمازٌ ومزْحل (٢)

فقال : إلى أين ؟ لا أمّ لك ؟ قال : إلى النار . فوثب عليه جريرٌ عند استخذائه ، فقال :

فإنك والجحّافَ حين تحضّه ... أردْت بذاكَ المكثَ والوردُ أعجلُ
سما لكم ليلاً كأنّ نجومَه ... قناديل فيهن الذُّبال المفتّل (٣)
فما ذَرَّ قَرْن الشمس حتى تبينوا ... كراديسَ يهديهنَّ وَرْدٌ محجّل (٤)
وما زالت القتلى تمجُّ دماءها ... معَ المد ، حتى ماء دجلةَ أشكل (٥)
فإلا تعلَّقْ منْ قريش بذمّة ... فليس على أسياف قيس معوَّل
بكى دوَبلٌ لا يرْقئ الله دمعه ... ألا إنما يبكى من الذل دوبل (٦)

١١ ـ أخبرنا أبو خليفة قال : قال ابن سلام : قال أبو الغرّاف : قال الأخطل : والله ما سمتنى أمى َدوْبلاً إلا يومًا واحداً ، فمن أين سقط إلى الخبيث ؟

١٢ ـ وقال الجحاف يجيب الأخطل :

أبا مالك هل لمتنى مذْ حضضتنى ... على القتل أمْ هل لامنى لك لائم

١٣ ـ ولقى الجحّاف الأخطلَ فقال : أبا مالك ، كيف رأيتَ ؟ قال : رأيت شيخًا فاجراً .

١٤ ـ وقال لى أبانٌ الأعرج : أدرك الجحّاف الجاهليةَ ؟ فقلت له : لم تقول ذاك ؟ قال : لقوله :

---

(١) المعول : المعتمد والمفزع .

(٢) مستماز ، أى انفصال . ومزحل ، أى بعد .

(٣) سما له : ارتفع من بعيد . والذبال : جمع ذبالة ، وهى الفتيلة .

(٤) قرن الشمس : أول شعاعها . وذر : طلع . والكراديس : قطع الخيل المتفرقة ، الواحد كردوس. ويهديهن : يقودهن ويتقدمهن . والورد ، الفرس فيه حمرة تضرب إلى صفرة . والمحجل : الذى فى قوائمه بياض .

(٥) تمج : ترمى وتقذف . والمد ، أى مد دجلة حين يفيض ماؤه ، وأشكل : فيه بياض وحمرة .

(٦) الدوبل : الصغير من ولد الخنازير وبه نبز الأخطل .

شَهِدنَ مع النبي مسوَّماتٍ حنينًا وهى داميةُ الكلامِ[1]
نعرض للطعان إذا التقينا وجوهًا لا تعرَّض لِلِّطام

فقلت له : إنما عَنَى خيلَ قومه بنى سُلَيم .

وذكرتُ ذلك لعبد القاهر بن السرى فقال : جدى قيس بن الهيثم أعطى حكم بن أمية جاريةً ولدت له الجحَّاف فى غرفة فى دارنا — لا أحسبه إلا قال : رأيتها .

* * *

١٥ — وروى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار قال : رأيت الجحَّاف يطوف بالبيت فى أنفه خِزَام ، وهو يقول : اللهم اغفر لى ، ولا أراك تفعل . فقلت : من هذا ؟ قالوا : الجحَّاف . وكان بعد ذلك يتألَّه ويُظهِر التوبة .

* * *

١٦ — ومر عِكْرمة بن رِبعى الفيَّاض التيمى بأسماء بن خارجة حين قتلت تغلب عمَيْر بن الُحباب ، فقال عكرمة لأسماء : أبا مالك ، قتلتْ تغلب عميراً فى دارهم ؟ قال : نعم : ومقبلاً غير مدبر ؟ قال : نَعَم . قال : فلا بأس . قال : فلما أدبر عكرمة قال أسماء :

يَدِى لك رَهنٌ من سلَيم بغارة تَشِيب لها أصْداغ بكر بن وائل
وأنْ يتركوا رْهط الفَدَوْكس عُصْبة أيامى يتامى عُرضةً للقبائل[2]

* * *

١٧ — أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب ، أخبرنا ابن سلام ، قال : أخبرنى أبو الغرّاف قال : لما قال جرير :

---

(١) المسومات : الخيل المطهمة . والكلام : الجروح ، والواحد كلم . وحنين : هو يوم حنين ، حين خرج صلى الله عليه وسلم لقتال هوازن ، وكانت سليم على مقدمة الخيل .

(٢) الفدوكس : هو ابن عمرو بن مالك بن جشم . من تغلب ، رهط الأخطل . والأيامى : الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء .

إذا أخذت قيسٌ عليكَ وخندفٌ ... بأقطارها لم تدرِ من أين تسرَح(١)

فلما أنشده الأخطل قال : لا أين ، سدّ والله على الدنيا ! حتى أنشد قوله :

فما لك فى نَجد حَصاة تعدّها ... ومالك فى غورى تهامةَ أبطح(٢)

فقال الأخطل : لا أبالى والله ألا يكون ، فتح لى القول ، ثم قال :

ولكن لنا بَرُّ العراق وبحرُه ... وحيثُ يُرى القُرْقور فى الماء يَسْبحُ(٣)

* * *

١٨ — وفى حديث أبى قيس العنبرىّ عن عكرمة بن جرير ، حين سأل أباه عن الشعراء فقال فى الأخطل : يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر .

* * *

١٩ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا ابن سلام قال : سمعتُ سَلَمة بن عَيَّاش يقول : تذاكرنا جريراً والفرزدق والأخطلَ ، فقال قائل : مَنْ مثلُ الأخطل ؟ إن فى كل بيت له بيتين ، إذ يقول :

ولقد علمت إذا العشار تروحت ... هدج الرئال تكبهن شمالا(٤)

أنا نعجل بالعبيط لضيفنا ... قبل العيال ونقتل الأبطالا(٥)

ولو شاء لقال :

ولقد علِمتُ إذا العشار تروحت ... هَدْجَ الرئال(٦)

أنا نعجّل بالعبيط لضيفنا ... قبلَ العيال

فكان هذا شعراً ، وكان على غير ذلك الوزن .

---

(١) الأقطار : النواحى . وسرح الماشية : سومها وذهابها إلى المرعى . يريد أنها تضيق عليها الخناق فلا تدع لها مجالا للضرب فى الأرض .

(٢) الغور : المنخفض من الأرض . والأبطح : المسيل الواسع فيه دقاق الحصى ، ينزله القوم .

(٣) القرقور : سفينة عظيمة طويلة .

(٤) العشار : الحديثة العهد بالنتاج . وتروحت : أوت بعد غروب الشمس إلى مراحها حيث تبيت ليلا . والهدج : مشى متقارب الخطو . والرئال : أولاد النعام ، الواحد رأل . وتكبهن : تقلبهن . والشمال ، ريح الشتاء الباردة تأتى بالقحط والجدب .

(٥) العبيط : اللحم الطرى السمين ، أى أنا كرماء زمان القحط نؤثر أضيافنا بالطيب ، ونحن فى الحرب شجعان .

(٦) العشار : الإبل مضى على حملها عشرة أشهر .

٢٠ — وقيل للأخطل عند الموت : أتوصى أبا مالك ؟ فقال :

أوصى الفرزدقَ عند الممات بأم جرير وأعيارها[١]

وزار القبورَ أبو مالك برَغْم العداة وأوتَارها[٢]

* * *

٢١ — أخبرنا أبو خليفة . أخبرنا ابن سلاّم قال : فحدّثنى أبانُ بن عثمان قال : لما بلغ الفرزدقَ قولُ الأخطل جعل يحنّ عليه ويقول : سآخذ بوصية أخى .

* * *

٢٢ — أخبرنا أبو خليفة أخبرنا ابن سلاّم قال : حدثنى محمد بن حفص ابن عائشة قال : قال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : خرجتُ معَ أبى إلى الشام ، فخرجتُ إلى دمشق أنظر إلى بنائها ، فإذا كنيسةٌ وإذا الأخطلُ فى ناحيتها ، فلما رآنى أنكرنى ، فسأل عنى فأخبر بنسبى ، فقال : يا فتى ، إنّ لك موضعاً وشرفاً ، وإنّ الأسقُف قد حبسنى ، فأنا أحبّ أن تأتيه تكلمه فى إطلاقى . قال : قلت : نعم . فذهبتُ إلى الأسقف وانتسبتُ إليه ، فكلمتهُ وطلبتُ إليه فى تخليته . فقال : مهلاً أعيذك بالله أن تَكَلَّمَ فى مثل هذا ، فإن لك موضعاً وشرفاً ، وهذا ظالم يشتم أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزلْ به حتى قام معى فدخل الكنيسة ، فجعل يوعده ، ويرفَع عليه العصا ، والأخطلُ يتضرع إليه وهو يقول له : أتعود ؟ فيقول : لا . قال إسحاق : فقلت له : يا أبا مالك تهابك الملوك ، وتكرمك الخلفاء ، وذِكْرُك فى الناس عظيمٌ أمرُه ، وأنت تخضع لهذا هذا الخضوع وتستخذى له ! قال : إنه الدين ، إنه الدين ؟

٢٣ — أخبرنا أبو خليفة : أخبرنا محمد بن سلام : حدّثنى محمد بن الحجاج الأسيدىّ قال :

---

(١) الأعيار : جمع عير ، وهو الحمار .

(٢) الأوتار : جمع وتر ، وهو الثأر .

خرجتُ إلى الصائفة فنزلتُ منزلاً لبنى تغلب ، فلم أجد به طعامًا ولا شرابًا . ولا علفا لدابتى ، شِرًى ولا قِرى ، ولم أجد ظِلاً . فقلت لرجل منهم : أما فى داركم هذه مسجد أستظلُّ بفيئه ؟ قال : ممن أنت ؟ قلت : من بنى تميم . قال : ما كنت أرى عمك جريراً إلا قد أخبرك حين قال :

فينا المساجدُ والإمامُ ولا تَرى　　　فى دار تغلبَ مسجداً معمورا

مقتطفات

من كتاب الشعر والشعراء

لابن قتيبة

٢١٣ – ٢٧٦

ابن قتيبة

هو أبو محمد عبد الله بن قُتَيبة الدِّينَوري ، أحد العلماء الأدباء . ولد فى الكوفة ، وقيل فى بغداد سنة ٢١٣ . وبها نشأ وقد أقام بالدِّينَوَر[1] مدة ولايته القضاء ، فنُسِب إليها .

شب ابنُ قتيبة فى بغداد فأكب على الدرس والتحصيل ؛ حتى صار رأساً فى علوم العربية واللغة والأخبار وأيام الناس وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف ومصنفاته تزيد على الستين فى أنواع العلوم . وكلها مفيدة عظيمة القدْر جليلة النفع . حتى كان أهلُ المغرب يتهمون من لم يكن فى بيته من تأليف ابن قتيبة شىء .

ومن هذه المؤلفات — غير طبقات الشعراء هذا الذى اخترنا منه : غريب القرآن ، وكتاب الأشربة ، وأدب الكاتب ، ومعانى الشعر الكبير ، وكتاب الأنواء ، والمعارف ، وعيون الأخبار ، والإمامة والسياسة .

وكانت وفاة ابن قتيبة فى ذى القعدة سنة ٢٧٦ .

كتاب الشعر والشعراء :

وكتابه هذا جمع فيه المشهورين من الشعراء إلى أوائل القرن الثالث . فذكر الشاعر وزمنَه ومنزلته وقبيلته وصلةَ شعره بحياته ، والحسنَ من أخباره ، والجيد من قوله ، وما أخذ عليه العلماء من الخطأ فى الألفاظ والمعانى ، والمعنى الذى ابتدعه ، والمعنى الذى أخذ عن غيره ، وأورد فيه بعض المحدثين كبشار والعتابى والنمرى والحسن بن هانئ ، ومسلم ، وابن مناذر ، ودِعبل الخزاعى ، فمرد الاختيار عنده للشعر لا للعصر .

وقد تكفل ابن قتيبة فى مقدمته ببسط نهجه فى كتابه هذا ، وكشف عن أسلوبه .

وإليكَ بعض هذه المقدمة ، وبعض ما اخترناه من كتابه :

---

(١) الدينور : من أعمال الجبل ، بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخاً .

المختار من كتاب الشعر والشعراء

١

من المقدمة

هذا الكتاب ألـّفته في الشعر ، أخبرتُ فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومَن كان يُعرف باللقب أو الكُنْية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ، ويستجاد من شعره ، وما أخذتْه العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون . وأخبرتُ فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يُختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، إلى غير ذلك ، مما قدمته في هذا الجزء الأول .

وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء ، الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاجُ بأشعارهم في الغريب والنحو ، وفي كتاب الله عزّ وجلّ ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم . فأما منْ خَفِيَ اسمه ، وقلّ ذكره وكَسَدَ شعره . وكان لا يعرفه إلا بعضُ الخواصّ فما أقلّ من ذكرتُ من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلاّ القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أخباراً ، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجةَ بك إلى أن أسمِّي لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان ، أو نسب أو نادرة ، أو بيت يستجاد أو يستغرب .

ولعلك تظن — رحمك الله — أنه يجب على من ألف مثلَ كتابنا هذا ألاّ يدَعَ شاعراً قديماً ولا حديثاً إلاّ ذكره ودَلّك عليه ، أو تُقَدِّر أن يكون الشعراء بمنزلة روَاة الحديث والأخبار ، والملوك والأشراف ، الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدَد .

والشعراء المعروفون بالشعر في قبائلهم وعشائرهم ، في الجاهلية والإسلام ،

أكثرُ من أنْ يحيط بهم مُحيط ، أو يقف من وراء عددِهم واقف ، ولو أنفدَ عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهودَه فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعرَ قبيلة ، حتى لم يفته منها شاعرٌ إلاّ عرفه ، ولا قصيدةٌ إلاّ رَواها .

حدّثنى سَهلُ بن محمد(١) عن الأصْمعى(٢) عن كِرْدين بن مِسْمع(٣) قال :

جاء فتيان إلى أبى ضَمضَم بعد العشاء ، فقال لهم : ما جاء بكم يا خبثاء ؟ قالوا : جئناكَ نتحدث . قال : كذبتم ، بل قلتم كبرَ الشيخ ، وتبلغته السن(٤) عسى أن نأخذ عليه سَقطةً . فأنشدهم لمائة شاعر ، كلهم اسمهُ عَمرو .

قال الأصمعىّ : فعددتُ أنا وخلفٌ الأحْمر(٥) ، فلم نقدر على أكثرَ من ثلاثين .

فهذا ما حفظه أبو ضَمضَم ، ولم يكن بأرْوى الناس . وما أقرب أن يكون مَن لا يعرفه من المسمَّين بهذا الاسم أكثرَ ممن عرفه .

هذا إلى مَن سقط شعرهُ من شعراء القبائل ، ولم يحملْه إلينا العلماء والرواة .

حدثنى أبو حاتم عن الأصمعى قال :

كان ثلاثةُ إخوة من بنى سعد لم يأتوا الأمصارَ ذَهب رجزُهم ، يقال لهم : نُذَير ، ومُنذِر ، ومنتذر . ويقول إنّ قصيدة رُؤْبة التى أولها :

* وقاتمُ الأعماقِ خاوى المختَرَقْ *

لمُنذَير .

ولم أعرض فى كتابى هذا إلا لمن كان الأغلبُ عليه الشعر ، فقد رأيتُ بعضَ مَنْ ألف فى هذا الفنّ كتاباً ، يذكر من الشعراء من لم يُعرَف بالشعر

(١) هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى البرى . إمام فى اللغة والشعر . مات سنة ٢٤٨ .
(٢) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب . إمام فى الشعر والغريب . مات سنة ٢١٦ .
(٣) كان إخبارياً .
(٤) تبلغته السن ، أى أدركه الكبر وبلغ أرذل العمر .
(٥) هو خلف بن حيان الأحمر . معلم الأصمعى . مات فى حدود سنة ١٨٠هـ .

ومَن لم يقل منه إلاّ النَّبْذ[١] اليسير ، كابن شُبْرمة القاضى[٢] ، وسليمان بن قَتَّة المُحدث . ولو قَصدنا لذكر أمثال هؤلاء فى الشعر لذكرنا أكثر الناس ، لأنه قلّ أحدٌ له أدنى مُسكة من أدب ، وأدنى حظٍّ من طبع ، إلاّ وقد قال من الشعر شيئًا ، ولاحتَجنا أن نذكر صَحابةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقومًا كثيراً منْ حَملة العلم ، ومن الخلفاء والأشراف ، ونجعلهم فى طبقات الشعراء . ولم أسلكْ ، فيما ذكرته من شعرِ كل شاعر مختارًا له ، سبيلَ منْ قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرتُ إلى المتقدّم منه بعين الجلالة لتقدّمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرتُ بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيتُ كُلاًّ حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيتُ من علمائنا مَن يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويَضعه موضع متخيره ، ويُرْذل الشعرَ الرصين ، ولا عيبَ له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائلَه .

ولم يقصُر الله الشعرَ والعلمَ والبلاغَة على زَمن ، ولا خصّ به قومًا دون قوْم ، بل جَعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كلّ دهر ، وجعل كل قديم حديثًا فى عصره ، وكلّ شريف خارجيًّا[٣] فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّونَ محدَثين . وكان أبو عَمرو بن العلاء يقول : لقد نَبغ هذا المحدَث وحسن ، حتى لقد هممتُ بروايته .

ثم صار هؤلاء قُدَماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون مَن بعدهم لمن بعدنا ، كالخرَيمى ، والعتابىّ ، والحسن بن هانئ وأشباههم . فكل من أتى بحسَن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يَضَعْه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثةُ سنه ؛ كما أن الردىّ إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف ، لم يرْفعه عِندنا شرفُ صاحبه ولا تقدمه .

وكان حقٌّ هذا الكتاب أن أودعه الإخبارَ عن جلالة قدْر الشعر وعظيم

---

(١) النبذ : الشىء القليل .

(٢) هو عبد الله بن شبرمة . مات سنة ١٤٤ .

(٣) الخارجى : الذى يخرج بنفسه من غير أن يكون له قديم .

خَطَرِه ، وعمن رفعه الله بالمديح وعمن وَضعه بالهجاء ، وعما أودعته العربُ من الأخبار النابهة ، والأحساب الصحاح ، والحكم المضارِعة(١) لحكم الفلاسفة ، والعلوم فى الخيل ، وفى النجوم وأنواعها ، والاهتداء بها ، والرياح وما كان منها مُبشراً أو حائلاً(٢) ، والبروق وما كان خُلّباً(٣) أو صادقاً ، والسحاب وما كان منها جَهاماً(٤) أوماطراً ، وعما يبعث منه البخيلَ على السماح والدّنىء على السموّ ، والجبانَ على اللقاء . غير أنى رأيتُ ما ذكرتُ من ذلك فى كتاب «العرب» كثيراً كافياً فكرِهتُ الإطالةَ بإعادته ، فمن أحب أن يعرفَ ذلك ليستدلّ به على حلو الشعر ومرّه ، وعظيم نَفعه وَضرّه ، نظَر فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

٢

أقسام الشعر

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله :

تدبرت الشعر فوجدته أربعةَ أضرُب : ضربٌ منه حسنَ لفظهُ وجادَ معناه ، كقول القائل(٥) فى بعض بنى أمية :

فى كفه خيزُرانٌ ريحهُ عبقٌ ... من كفّ أرْوَعَ فى عِرْنينه شممُ(٦)
يُغضِى حياءً ويُغضَى من مَهابته ... فلا يكلمُ إلا حين يبتسمُ(٧)

لم يقل أحدٌ فى الهيبة أحسنَ منه . وكقول أوْس بن حجر :

---

(١) المضارعة : المشابهة .

(٢) المبشر من الرياح : التى تهب بالسحاب وتبشر بالغيث . والحائل : التى لا خير فيها . بمنزلة الحائل من الإبل التى لا تحمل .

(٣) الخلب : الذى لا مطر فيه .

(٤) الجهام : السحاب الذى فرغ ماؤه .

(٥) هو الحزين الكنانى يمدح عبد الله بن عبد الملك بن مروان.

(٦) الخيزران : كل فرع لين يتثنى . والأروع : الكريم الجميل . والعرنين : ما تحت مجتمع الحاجبين إلى الأنف . والشمم : الارتفاع .

(٧) يغضى : يطبق جفنيه .

أيتهـــا النفس أجملى جـَزعا   إن الذى تحذَرين قد وَقعا(١)

لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسنَ منه . وكقول أبى ذُؤَيب :

والنفسُ راغبـــةٌ إذا رغـّبتها   وإذا تردُّ إلى قليـــل تقنع

وقال : حدّثنى الرياشى (٢) عن الأصمعىّ أنه قال : هذا أبرع بيت قالته العرب .

وكقول حُميد بن ثور :

أرَى بَصرِى قد رابنى بعد صِحة   وحسبُك داءً أنْ تصح وتسلما(٣)

لم يقل أحدٌ فى الكِبر أحسنَ منه .

وكقول النابغة :

كِلينى لهمٍّ يا أميمـــةَ ناصبِ   وليل أقاسيه بطىء الكواكب(٤)

لم يبتدئ أحدٌ من المتقدّمين بأحسن منه ولا أغربَ .

ومثلُ هذا فى الشعر كثير ، وليس للإطالة فى هذا المعنى وجه ، وستراه عند ذكر أخبار الشعراء .

وضرْب منه حسُنَ لفظه وحلاَ ، فإذا أنت فتشتَه لم تجد هناك طائلاً ، كقول القائل :

ولمـــا قضينا منْ مِنًى كل حاجة   ومسَّحَ بالأركان من هو ماسح
وشُدّت على حُدْب المهارِى رحالنا   ولم يَنظُر الغادى الذى هو رائحُ(٥)
أخذْنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالتْ بأعناق المطىّ الأباطحُ(٦)

---

(١) أجملى جزعاً : لا تفرطى فى الحزن والأسى .

(٢) هو العباس بن الفرج الرياشى اللغوى النحوى. قتله الزنج بالبصرة سنة ٢٥٧هـ .

(٣) رابنى : وجد عندى ريبة . يعنى ضعف بصره مع كبر سنه .

(٤) كلينى: دعينى . وهم ناصب : ذو نصب وتعب . وبطىء الكواكب : أى طويل ، كأن كواكبه تغور ببطء .

(٥) الحدب : جمع أحدب . وهو الذى خرج ظهره . يصف نوقا قد هزلت من السير فبان حدبها . والمهارى : الإبل المنسوبة إلى مهرة : قبيلة .

(٦) الأباطح : جمع الأبطح ، وهو الوادى المتسع . وسيلان الأباطح بأعناق المطى ، كناية عن كثرة الإبل .

وهذه الألفاظ أحسنُ شيء مَطالعَ ومخارجَ ومقاطعَ ، فإذا نظرتَ إلى ما تحتها من المعنى وجدته :

« ولما قضينا أيامَ منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء[1] ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح » .

وهذا الصنف فى الشعر كثير . ونحوٌ منه قولُ المعلوط :

إنَّ الذين غَدَوْا بلبك غادَرُوا   وشَلاً بعينك لا يزال معينـــا[2]

غَيَّضْنَ من عَبَرَاتهن وقلن لى   ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا[3]

ونحوه قول جرير :

إن العيـــونَ التى فى طرفها حَوَرٌ   قتلننـــا ثم لم يحـــيين قتلانا

يَصْرَعنَ ذا اللب حتى لا حراكَ به   وهنّ أضْعفُ خلق الله أرْكانا

وضربٌ منه جادَ معناه ، وقصُرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتبَ المـــرء الكريمَ كنفسه   والمرْء يُصْلحه الجليسُ الصالحُ

هذا وإن كان جيِّد المعنى والسبك فإنه قليلُ الماء والروْنق .

وكقول النابغة للنعمان :

خَطاطيفُ حُجْنٌ فى حبال متينة   تمدُّ بها أيد إليكَ نَوازع[4]

قال أبو محمد :

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظَه جياداً ولا مبيِّنةً لمعنـــاه ، لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيفَ عُقْف يمد بها ، وأنا كدلو تمدّ بتلك الخطاطيف . وعلى أنى أيضًا لستُ أرى المعنى حسنًا .

وكقول الفرزدق :

والشيبُ يَنهض فى الشَّباب كأنــه   ليـــلٌ يصيحُ بجانبيــه نهـــار

---

(١) الأنضاء : المهزولة ، الواحد : نضو .

(٢) الوشل : قليل الدمع وكثيره .والمراد هنا الكثير . والمعين : الظاهر الجارى .

(٣) غيضن : أى سيلن حتى نزفنها .

(٤) حجن : جمع أحجن ، وهو المعوج .

وضربٌ منه تأخر لفظه وتأخر معناه ، كقول الأعشى فى امرأة :

وفُوهــا كأقاحيَّ غذاهُ دائمُ الهطل
كما شِيبَ برَاح با ردٌ من عَسلَ النحل

وكقوله :

إنّ محَــلاّ وإن مرْتحَـلاَ وإنّ فى السفر ما مضَوْا مهلاَ (١)
استأثرَ الله بالــوفــاء وبالـ حمْــدِ وولّى الملامة الرجلا

وهذا شعرٌ منحول لا أعرفُ فيه شيئًا يستحسن إلا قوله :

يا خيرَ من يركبُ المطى ولاَ يشرَبُ كأسًا بكفِّ مَنْ بخلاَ .

يريد أن كلّ شارب يشرب بكفه ، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف منْ بخل . وهو معنى لطيف .

وكقول الخليل بن أحمد العرُوضىّ :

إن الخليطَ تصَــدَّعْ فطرْ بدائك أوقعْ
لولا جـَوارٍ حسانٌ حــوُر المدامع أرْبعْ
أمّ البنين وأسمــا ءُ والربابُ وبوزَع
لقلتُ للرَّاحِلِ ارْحلْ إذا بدا لكَ أوْ دَعْ

وهذا الشعر بين التكلف ردىءُ الصنعة .

وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعى وشعر ابن المقفَّع وشعر الخليل ، خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودَهم طبعًا ، وأكثرَهم شعراً ، ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا « أمّ البنين » و« بوْزع » لكفــاه .

قال أبو محمد : وقد يقدح فى الحسن قبحُ اسمه ، كما ينفعُ القبيح حسنُ اسمه ، ويزيد فى مهانة الرجل فظاعةُ اسمه ، وترَدُّ عدالةَ الرجل بشاعةُ كنيته ولقبه .

---

(١) أى إن لنا محلا فى الدنيا ومرتحلا عنها فى الآخرة . والسفر : المسافرون . أراد الراحلين عن الدنيا . والمهل : بالتحريك : التقدم . أى من مضى فقد تقدمنا ونحن على أثره .

تقدَّم رجلان إلى شُريح ، فقال أحدُهما : ادعُ أبا الكوَيفر يشهد . فرده شريح ولم يسألْ عنه . وقال : لو كنتَ عدلاً لم ترضَها .

وسأل عُمر رجلاً أراد أن يستعينَ به على أمرعن اسمه ، فقال : ظالم بن سرّاق. قال : تظلم أنت ، ويسرق أبوك ! ولم يستعنْ به .

وقال الرشيدُ للمفضَّل الضّبيّ : اذكر لى بيتًا يحتاجُ إلى مقارعة الأذهان فى إخراج خبيئه ، ثم دَعنى وإياه . فقال له المفضل : أتعرف بيتًا أوله أعرابىّ فى شَمْلته ، هابٌّ من نومته ، كأنما صَدر عن رَكب جَرَى فى أجفانهم الوَسن فظلّ يستفزُّهم بعنجهية(١) البَدْو ، وتعجرُف الشدْو ، وآخرُه مدنىّ رَقيق ، قد غُذِى بماء العقيق ؟ قال : لا أعرفه . قال : هو بيت جميل بن مَعْمر :

* ألاَ أيها الركب النيامُ ألاَ هُبُّوا *

ثم أدركته رِقّة الشوق فقال :

* أسائلكم هَلْ يقتلُ الرجلَ الُحب *

قال له صدقت ، فهل تعرف أنت الآن بيتًا أولهُ أكثمُ بن صَيفىّ فى أصالة الرأى ، ونُبل العظَة ، وآخره أبُقْراط فى معرفته بالدّاء والدواء ؟ قال : قد هولتَ علىّ ، فليتَ شعرى ، بأىّ مَهر تُفترع عروسُ هذا الخدْر ؟ قال : بإنصافك وإنصاتك . وهو بيتُ الحسن بن هانئ :

دَعْ عنك لَومى فإنّ اللومَ إغراءُ ... وداونى بالتى كانتْ هى الداء

وسمعتُ بعضَ أهل الأدب يقولُ : إنّ مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فشكا وبكى ، وخاطب الربعَ ، واستوقف الرفيق ليجعلَ ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، إذْ كانَ نازلةُ العَمَد(٢) فى الحلول والظّعن ، على خلاف ما عليه نازلةُ المدَر(٣) ؛ لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء إلى ماء ، وتتبعهم مساقطَ الغيث حيث كان . ثم وصَل ذلك بالنسيب

---

(١) العنجهية : الكبر والعظمة .

(٢) نازلة العمد : أى الذين يسكنون البيوت التى ترفع على عمد ، و يعنى الخيام .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . يريد البيوت المشيدة .

فشكا شدةَ الشوق وألمَ الوَجد والفراق ، وفرْط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ، ويَصرفَ إليه الوُجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأنّ النسيب قريب من النفوس ، لائطٌ(١) بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغَزَل وإلْف النساء ، فليس يكاد يخلو أحدٌ من أن يكونُ متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسَهم ، حلال أو حرام . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق ، فرَحل فى شعره ، وشكا النصبَ والسهر ، وسُرَى الليل وحرّ الهجير ، وإنضاء الراحلة(٢) والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء ، وذِمام(٣) التأميل ، وقرَّر عنده ما ناله من المكارة فى المسير بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضَّله على الأشباه ، وصَغَّر فى قدْرِه الجزيل .

فالشاعرُ المجيد مَن سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعَل واحداً منها أغلبَ على الشعر ، ولم يُطِلْ و يملّ السامعين ، ولم يَقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد .

فقد كان أحدُ الرجاز أتى نَصر بن سَيار وإلى خراسانَ لبنى أمية ، فمدحه بأرجوزة تَشْبِيبُها مائةُ بيت ، ومديحها عشرةُ أبيات ، فقال نصر : والله ما تركت كلمةً عذْبة ، ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلتَه عن مديحى بتشبيبك ، فإن أردتَ مديحى فاقتصد فى النسيب . فأتاه فأنشده :

هل تَعرِف الدارَ لأم الغَمْرِ   دَعْ ذا وحبرْ مِدْحةً فى نصرِ

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ! ولكن بين الأمرين .

وقيل لعقَيل بنُ عُلَّفة : لِمَ لا تطيلُ الهجاء ؟ فقال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق !

وقيل لأبى المهوّش الأسدىّ : لم لا تطيلُ الهجاء ؟ قال : لم أجد المثلَ السائر إلا بيتاً واحداً .

---

(١) لائط : لاصق .
(٢) الراحلة : ماتركب من الإبل . وإنضاؤها : إهزالها .
(٣) الذمام : الحق والحرمة .

وليس لمتأخر الشعراء أن يخْرجَ عن مذهْب المتقدمين فى هذه الأقسام : فيقفَ على منزل عامر ، أو يبكى عند مشيّد البنيان ، لأن المتقدمين وقفُوا على المنزل الداثر ، والرسم العافى أو يرْحلَ على حمار أو بغْل ، فيصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير أو يرد على المياه العذبة الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى[١] . أو يقطع إلى الممدوح منابت النرْجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جرَوْا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة[٢] .

قال خلفٌ الأحمر : قال لى شيخٌ من أهل الكوفة : أما عجبتَ أن الشاعر قال :

* أنبتَ قيصُوما وجثجاثا *

فاحتُمِل له وقلتُ أنا :

* أنبتَ إجاصًا وتفاحا *

فلم يُحتمَل لى .

وليس له أن يقيس على اشتقاقهم فيطلقَ ما لم يطلقوا .

قال الخليل بن أحمد أنشدنى رجل :

* ترافعَ العزُّ بنا فارفنععا *

فقلت : ليس هذا شيئًا . فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

* تقاعس العزّ بنا فاقعنسسا *

* * *

ولا يجوز لى ؟ !

ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ، فالمتكلف هو الذى قوّم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظرَ بعد النظر ، كزهير والحطيئة . وكان الأصمعى يقول : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه

(١) الأواجن : جمع آجن ، وهو الماء المتغير لطول المكث . الطوامى : التى ارتفع ماؤها .
(٢) الحنوة : نبات سهلى طيب الريح . والعرارة : نبت طيب الريح أيضا .

ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحولى المنقح . وكان زهير يسمى قصائده الحوليات .

* * *

وللشعر دواع تحث البطىء ، وتبعث المتكلف ، منها الطرب ، ومنها الطمع ، ومنها الغضب ، ومنها الشوق .

وقيل للحطيئة : مَن أشعرُ الناس ؟ فأخرج لسانًا دقيقًا ، كأنه لسان حية ، فقال : هذا إذا طمع .

وقال أحمد بن يوسف لأبي يعقوب الخُرَيمىّ : مدائحك فى محمد بن منصور ابن زياد — يعنى كاتب البرامكة — أشعرُ من مراثيك فيه وأجود . قال : كنا إذ ذاك نقول على الرجاء ، ونحن اليوم نقول على الوفاء ، وبينهما بوْن بعيد . وهذه عندى قصةُ الكميت فى مدْحه بنى أمية وآل أبى طالب فإنه كان يتشيعُ وَينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أجودُ من شعره فى الطالبيين ، ولا أرى عِلّةَ ذلك إلاّ قوةَ أسباب الطمع ، وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة .

وقيل لكثير : كيف تصنع يا أبا صخر إذا عسرُ عليك الشعرُ ؟ قال : أطوف فى الرباع المُخْلية(1) ، والرياض المعشِبة ، فيسهل علىّ أرْصَنُهُ ، ويُسرع إلىّ أحسنُه .

ويقال : ما استُدعِىَ شاردُ الشعر بمثل الماء الجارى ، والشرف العالى ، والمكان الخضِر الخالى .

وقال عبدُ الملك لأرْطاة بن سُهيّة : هل تقولُ اليوم شعراً ؟ قال : كيف أقولُ وأنا لا أشرب ، ولا أطربُ ، ولا أغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه .

وقيل للشّنفرى حين أسِرَ : أنشدْ . فقال : الإنشاد على حال المسرّة ! ثم قال :

---

(١) الرباع : المنازل . الواحد ربع . والمخلية : الخالية .

فلا تَــدْفننى إن دفنى محرَّم عليكم ولكنْ خامرىأمَّ عامر(١)
إذا حَـمَـلوا رَأسى وفى الرأسأ كثرى وغُـودرَ عند الملتقى ثمَّ سائرى
هنالكَ لا أرْجو حياةً تسرُّنى سَميرَ الليالى مبسَـلاً بالجرائر(٢).

وللشعر أوقاتٌ يبعُد فيها قريبه ، ويَستصعبُ فيها ريِّضُه ، وكذلك الكلام المنثور فى الرَّسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذَّرُ على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب ، ولا يُعرف لذلك علةٌ إلا مِن عارض يعرِض على الغريزة : من سُوء غذاءٍ ، أو من خاطر غمٍّ .

وكان الفرزدقُ يقول : أنا أشعرُ تميم عند تميم ، وربما أتتْ علىّ ساعةٌ ونزْعُ ضرْسٍ أهونُ علىّ من قول بيت .

وللشعر أوقاتٌ يُسرعُ فيها أتيُّه(٣) ، ويُسْمِح فيها أبيه ، منها أولُ الليل قبل تَغشِّى الكرى ، ومنها صَدْرُ النهار قبل الغَدَاء ، ومنها يومُ شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى المجلس وفى المسير .

ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ، ورسائل الكاتب .

وقالوا فى شعر النابغة الجعدى : خِمار بواف ، ومُطرف بآلاف(٤) .

ولا أرى غيرَ الجعدىّ فى هذا الحكم إلا كالجعدىّ ، ولا أحسب أحداً من أهل المعرفة والتمييز نَظَر بغين العَدْل ، وترك طريقَ التقليد ، يستطيع أن يقدّم أحداً من المتقدمين المكثرين على أحد ، إلاّ بأن يرى الجيد فى شعره أكثرَ منه فى شعر غيره .

ولله دَرُّ القائل : أشعرُ الناسَ من أنتَ فى شعره حتى تفرُغ منه .

وقال العتبىّ : أنشدَ مرْوان بن أبى حفصة لزُهير ، فقال : هذا أشعـــرُ الناس ! ثم أنشد للأعشى فقال : بل هذا أشعر الناس ! ثم أنشد لامرئ القيس ،

---

(١) أم عامر : هى الضبع . وخامرى : استترى ، أتاك ما تحذرين منه . وهو مثل يضرب للمخدوع . (٢) سمير الليالى : أبد الدهر . والمسبل : المسلم ، قد أسلمه قومه .

(٣) أتيه : أى السهل الجارى .

(٤) الخمار : النصيف . والوافى : الدرهم التام غير الناقص . والمطرف : الرداء من خز مربع . يريد أنه يجمع بين الغث والسمين .

فكأنما سمع به غناءً على شراب ، فقال : امرؤ القيس والله أشعرُ الناس .

وكلّ علم محتاجٌ إلى السماع ، وأحوجُه إلى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة ، واللغات المختلفة ، والكلام الوَحشىّ ، وأسماء الشجر والنبات ، والمواضع والمياه ، فإنك لا تفـَصلُ فى شعر الهـُذَليين — إذا أنت لم تسمعه — بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . وأشباه هذا . لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة ، كما يلحق مشتق الغريب .

وقرئ يومًا على الأصمعىّ فى شعر أبى ذُؤيب :

* بأسفل وادى الدير أفرد خشفها[1] *

فقال أعرابى حضر المجلس للقارئ : ضَلَّ ضَلالُك أيها القارئ ! إنما هى « ذات الدبر » وهى ثـَنية[2] عندنا . فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد .

وليس كل الشعر يُختار ويحفظ على جـَودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب :

منها الإصابةُ فى التشبيه ، كقول القائل فى وصف القمر :

بـَدَأنَ به وابـنُ الليالى كأنه ... حُسامٌ جلـَتْ عنه القيونُ صَقيل[3]
فما زلتُ أفنى كلَّ يوم شبابه ... إلى أن أتتكَ العِيسُ وهو ضئيل

وكقول الآخر فى مغنّ :

كأن أبا الشُّموس إذا تغنَّى ... يحاكى عاطسًا فى عـَين شمس
يلوكُ بلـَحيه طورًا وطورًا ... كأنّ بلـَحيه ضَرَبانَ ضرْس[4]

وقد يحفظ ويختار على خفة الروىّ ، كقول الشاعر :

أيا تملكُ يا تملِى ... صِلِينى وذَرِى عذْلى
ذرينى وسلاحى ثُـ ... ـم شدى الكف بالغزل

وقد يختار ويحفظ لأنّ قائلهُ لم يقل غيره ، أو لأنّ شعره قليلٌ عزيز ؛ كقول عبد الله بن أبى بن سـَلول المنافق :

---

(١) الخشف : ولد الظبية . (٢) الثنية : الطريق فى الجبل . أو هى الجبل نفسه .
(٣) القيون : جمع قين . وهوا لحداد . (٤) اللحى : منبت اللحية .

متى ما يكنْ مولاكَ خصمكَ لا تزلْ تذِلُّ ويعلوكَ الذين تصارعُ
وهل ينهضُ البازِى بغير جناحه وإنْ قصَّ يوماً ريشه فهو واقعُ

وقد يختار ويحفظ ؛ لأنه غريبٌ فى معناه ، كقول القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون لـه فى الأرض آثارُ

وقد يختار ويحفظ أيضاً لنبل قائله ، كقول الرشيد :

النفسُ تطمع والأسبابُ عاجزةٌ والنفسُ تهلك بين اليأس والطمع

وكقول عبد الله بن طاهر :

أميلُ مع الذمام على ابن عمى وأحملُ للصديق على الشقيق(١)
وإن ألفيتنى ملكاً مطاعاً فإنك واجدى عبدَ الصديق
أفرّق بين معروفى ومَنّى وأجمع بين مالى والحقوق

وهذا الشعر شريف بنفسه وبصاحبه .

والمتكلَّف من الشعر وإن كان جيداً محكماً ، فليس به خفاء على ذوى العلم ، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدّة العناء ، ورَشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذْف ما بالمعانى حاجةٌ إليه ، وزيادة ما بالمعانى غِنى عنه ، كقول الفرزدق فى عُمر بن هبيرة لبعض الخلفاء :

أولَيتَ العراقَ ورافِديه فزاريّاً أحذّ يدِ القميص(٢)

يريد أنه خفيفُ اليد بالخيانة ، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص. ورافداه : دِجْلة والفرات .

وكقول الآخر :

مِن اللواتى والتى واللاتى زَعمنَ أنى كبرَتْ لِداتى

وكقول الفرزدق :

وعَضُّ زمانٍ يابن مرْوانَ لم يدَعْ من المال إلا مُسحَتا أو مُجلَّفُ(٣)

فرفع آخر البيت ضرورةً ، وأتعب أهلَ الإعراب فى طلب العلة ، فقالوا

(١) الذمام : العهد . (٢) أحذ : مقطوع .
(٣) المسحت : المهلك . والمجلف : الذى بقيت منه بقية .

وأكثروا ، ولم يأتوا بشيء يُرْتضَى . ومنْ ذا يخفى عليه من أهل النظر أنّ كلّ ما أتوا به احتيالٌ وتمويه ؟

وقد سأل بعضُهم الفرزدقَ عن رَفعه هذا البيت فشتمه ، وقال : علىّ أنْ أقولَ وعليكم أن تحتجوا !

وقد أنكر عليه عبدُ الله بن أبى إسحاق الحَضْرمى قولَه :

مُستقبلينَ شَمالَ الشأم تضربنـا ... بحاصبٍ من نديف القطن منثور
عـلى عَمائمنـا تُلْقى ، وأَرْحلُنا ... على زَوَاحفَ تُزْجَى مخُّها ريرُ[1]

مرفوع . فقال : ألاَ قلت :

* على زواحفَ نزْجيها محاسيرِ *

فغضب ، وقال :

فلو كان عبدُ الله موْلى هجوته ... ولكنّ عبدَ الله مولى مواليـَا

ومثل هذا كثير فى شعره على جودته .

وتتبين التكلُّفَ فى الشعر بأن ترى البيتَ فيه مقرونًا بغير جاره ، ومضمومًا إلى غير لِفْقِه ؛ ولذلك قال عُمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك . قال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقولُ البيتَ وأخاه ، ولأنك تقول البيتَ وابن عمه .

وقال عبد الله بن سالم لرُؤبة : مُتْ يا أبا الجحاف متى شئتَ . قال رؤبة : وكيف ذاك ؟ قال : إنى رأيتُ ابنك عُقبة ينشد شعراً له أعجبنى . قال رؤبة : نَعَم ، ولكن ليس لشعره قِرَان . يريد أنه لا يقارنُ البيتَ بشبهه .

والمطبوع من الشعراء مَنْ سمح بالشعر ، واقتدر على القوافى ، وأراك فى صَدْر البيت عجُزَه ، وفى فاتحته قافيتَه ، وتبينتَ على شعره رونقَ الطبع ، ووشْى الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحَّر[2] .

وقال الرياشىّ : حدّثنى أبو العالية عن أبى عمران المخزومىّ ، قال : أتيتُ مع أبى واليًا على المدينة من قريش ، وعنده ابن مُطَير ، وإذا مطرٌ جَوْدٌ[3]

---

(١) رير : رقيق . (٢) يتزحر : يخرج الكلام فى جهد وعسر.
(٣) الجود : الغزير.

فقال له الوالى : صِفْ لى هذا المطر . قال : دَعنى أشرفْ عليه . فأشرف عليه ثم نزل فقال :

كثرتْ لكثرة قَطْره أطباؤه ... فإذا تحلّب فاضت الأطْباء[١]

وله رَبابٌ هيدَبٌ ، لرَفيقه ... قَبْلَ التعبّق دِيمةٌ وَطفاء[٢]

* * *

والشعراء أيضًا فى الطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسُر عليه الهجاء ؛ ومنهم من تتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل .

وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء ! فقال : إنّ لنا أحلامًا تمنعنا من أن نَظلم ، وأحسابًا تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانيًا لا يُحسن أن يهدم !

وليس هذا كما ذكر العجاج ، ولا المثلُ الذى ضربه للهجاء والمديح بشكل ، لأنّ المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كلٌّ بان بضرْب بانيًا بغيره . ونحن نجد هذا بعينه فى أشعارهم كثيراً . فهذا ذو الرمة أحسنُ الناس تشبيهًا ، وأجودهم تشبيبًا ، وأوْصفهم لرَمل وهاجرة وَفلاَة وماء وقُراد وحَيَّة ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانَه الطبع ، وذاك أخَّره عن الفحول ؛ فقالوا فى شعره : أبعار غزْلان ونُقَط عرُوس[٣] .

وكان الفرزدق زِيرَ نساء وصاحبَ غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب .

وكان جريرٌ عفيفًا عزْهاةً[٤] عن النساء ، وهو مع ذلك أحسنُ الناس تشبيبًا .

وكان الفرزدق يقولُ : ما أحوَجه مع عفته إلى صلابة شعرى ، وما أحوجنى إلى رقة شعره لما تَرَوْن .

---

(١) الأطباء : لذوات الحوافر والسباع كالأثداء للنساء . شبه السحب بها .

(٢) الرباب : السحاب الأبيض . والهيدب : الدانى المتدلى . والرفيف : التلألؤ . والتبعق : اندفاع المطر . والديمة : الدائم من المطر . والوطفاء : الحثيثة .

(٣) نقط العروس : هى ما تنقط به العروس خدها من السواد ، تتحسن بذلك .

(٤) العزهاة : العازف المبتعد .

٣

حسان بن ثابت الأنصارى

هو حَسان بن ثابت بن المنذر الأنصارىّ. ويكنى: أبا الوليد، وأبا الحسام. وهو جاهلى إسلامىٌّ متقدمُ الإسلام، إلا أنه لم يشهد مع النبىّ صلى الله عليه وسلم مشهداً، لأنه كان جبانًا. وكانت له ناصيةٌ يُسدلها بين عينيه. وعاش فى الجاهلية ستين سنة، وفى الإسلام ستين سنةً. وماتَ فى خلافة معاوية، وعَمِى فى آخر عُمره.

قال الأصمعى: الشعرُ نَكِدٌ، بابه الشرّ، فإذا دخل فى الخير ضعف، هذا حسَّان بن ثابت فحلٌ من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلامُ سقط شعره.

وقال مرةً أخرى: شعرُ حسان فى الجاهلية من أجود الشعر، فقُطع مَتْنه فى الإسلام لحال النبى صلى الله عليه وسلم.

وكان حسان يفد على ملوك غَسان بالشأم، وكان يمدحهم. ومن جيد شعره قوله فيهم:

أولادُ جَفنةَ حولَ قبر أبيهم ... قبرِ ابن ماويةَ الكريم المُفْضِل
يُغشَوْنَ حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يَسألون عن السواد المقبل(١)

وابنُ ماوية: وهو الحارثُ الأعرج بن أبى شمر الغسانىّ وكانِ أثيراً عندهم.

ولما سار جبلةُ بنُ الأيهم إلى بلاد الروم ورَدَ على ملك الروم رسولُ معاويةَ فسأله جَبَلَةُ عن حسان، فقال له: شَيخ كبير قد عَمى. فدَفع إليه ألفَ دينار، وقال: ادفَعْها إلى حسان. قال: فلما قدمْتُ المدينةَ ودخلتُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتُ فيه حسان بن ثابت، فقلت له: صديقك جبلةُ يقرأ عليك السلامُ. قال: فهات ما معكَ. فقلت: يا أبا الوليد؛

---

(١) يغشون: أى يجيئهم ذوو الحاجات. وتهر: تصوت. والهرير: دون النباح. والسواد الشخص.

كيف علمتَ ؟ قال : ما جاءتنى منه رسالةٌ قط إلاّ ومعها شيء .

ووُلد لحسان عبد الرحمن ، ابن أخت ماريةَ أمّ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت تُسمَّى سيرين . وكان عبد الرحمن بن حسان شاعراً وكان له ابنٌ يقال له : سعيد بن عبد الرحمن .

وكانت لحسَّان بنتٌ شاعرةٌ . وأرِقَ حسانُ ذاتَ ليلة فعنّ له الشعر فقال :

مَتاريكُ أذْنابِ الأمور إذا اعترت أخذْنا الفروعَ واجتثثنا أصولها[١]

ثم أجبلَ[٢] فلم يَجد شيئًا . فقالت له بنتُه : كأنك قد أجبلتَ يا أبهْ ؟ قال : أجل . قالت : فهل لكَ أن أجيزَ عنك ؟ قال : وهل عندكِ ذلك ؟ قالت : نعم . قال : فافعلى . فقالت :

مَقاويلُ بالمعروف خُرْسٌ عن الخنا كرامٌ يعاطونَ العشيرةَ سُولَها[٣]

فحمىَ الشيخُ فقال :

وقافية مثل السنان رُزِئتها تناولتُ من جو السماء نزولها[٤]

فقالت :

براَها الذى لا يُنطق الشعرُ عنده ويَعجزُ عن أمثالها أنْ يقولها[٥]

فقال حسان : لا أقول بيتَ شعر وأنت حية . قالت : أوَ أؤَمِّنك ؟ قال : وتفعلين ؟ قالت : نعم ، لا أقول بيتَ شعر ما دُمتَ حيًّا .

وانقرض وَلدُ حسان فلم يبقَ له عقب .

وقال حسان ، أو ابنه عبد الرحمن : قلت شعراً لم أقل مثله . وهو :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيدُ

---

(١) متاريك : تاركون . واجتث : انتزع واستأصل .

(٢) أجبل : انقطع فلم يستطع المضى .

(٣) الخنا : الفحش .

(٤) رزئتها : أصبت بها .

(٥) براها : خلقها .

٤
خنساء بنت عمرو*

هى تُماضر بنت عَمرو بن الشَّريد. وكان دُرَيد بن الصمة خطبها، وذلك أنه رآها تهْنَأ(١) إبلاً لها ، فهويها فردَّته وقالت : أترانى تاركةً بنى عمى كأنهم عوالى الرماح ومُرْتثةً(٢) شيخَ بنى جُشَم ؟ فى ذلك يقول دُرَيد :

حَيوا تماضرَ واربْعوا صَحبى ... وقفوا فإنّ وُقوفكم حسبى(٣)
أخُناسُ قد هام الفؤادُ بكم ... وأصابه تبْلٌ من الحب(٤)
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم هانئ أيْنُق جرْب
متبَذلاً تبدو محاسنُه ... يضَع الهِناء مواضعَ النقب(٤)

فخطبها رَوَاحةُ بن عبد العُزىّ السُّلمى، فولدتْ له عبدَ الله، وهو أبو شَجرة ثم خلَف عليها مِرْداسُ بن أبى عامر السلمىّ ، فولدت له زيداً ومعاوية ، وعَمراً .

وهى جاهلية كانت تقول الشعر فى زمن النابغة الذبيانى ، وكان النابغة تُضرَب له قبة حَمراء من أدَم بسوق عُكاظ ، وتأتيه الشعراء فتَعرِض عليه أشعارها . فأنشده الأعشى أبو بَصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته، فقال لها النابغةُ: والله لولا أنّ أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلتُ إنك أشعر الجنّ والإنس . فقال حسان : والله لأنا أشعرُ منك وَمن أبيك ومن جدك . فقبض النابغةُ على يده ثم قال : يابن أخى ، إنك لا تحسن أن تقول مثلَ قوْلى :

فإنك كالليل الذى هو مُدْركى ... وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

* توفيت ٢٤ هـ . (١) تهنأ : تطلى بالهناء وهونوع من القطران .

(٢) المرتث : الجريح يحمل من المعركة وهو ضعيف قد أثقلته الجراح . أرادت أنه أسن وضعف وقرب من الموت ، فهو بمنزلة من حمل من المعركة وقد أثبتته الجراح لضعفه .

(٣) أربعوا : أقيموا واطمئنوا . (٤) تبله الحب : أسقمه .

(٥) النقب : المواضع المتفرقة من الجرب . الواحدة : نقبة .

وكان أخوها صَخر بن عمرو شريفًا في بني سُليم . وخرج في غَزاة فقاتل فيها قتالا شديداً ، وأصابه جُرح رَغيب(١) . فمرض من ذلك ، فطال مرضه وعاده قومُه ، فكانوا إذا سألوا امرأته سَلمى عنه ، قالت : لا هو حيّ فيُرجى ، ولاميت فينسى . وصَخر يسمع كلامها ، فشقّ عليه . وإذا قالوا لأمه : كيف صَخر اليوم ؟ قالت : أصبح صالحًا بنعمة الله. فلما أفاق من علته بعض الإفاقة قال: ناولوني سيفي لأنظر كيفَ قوّتي . وأراد قتلها . وناولوه ، فلم يطق السَّيفَ . ففي ذلك يقول :

أرى أمَّ صَخر ما تمل عيادتي ... وملَّتْ سُليمى مَضجعي ومكاني

فأيّ امرئٍ ساوَى بأمٍّ حليلةً ... فلاَ عاشَ إلاّ في أذى وهَوان

ثم نُكِس بعد ذلك من طعنته فمات . فكانت أخته خنساء ترثيه . ولم تزل تبكيه حتى عَميتْ .

ودخلت خنساءُ على أم المؤمنين عائشة ، وعليها صِدَار(٢) لها من شَعَر ؛ فقالت لها عائشةُ رضي الله عنها : يا خنساء ، إنَّ هذا لقبيح ، قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فما لبستُ هذا ! قالت : إنّ له قصةً . قالت : فأخبريني . قالت : زَوجني أبي رجلاً ، وكان سيداً معطاء ، فذَهب ماله ، فقال لي : إلى مَنْ يا خنساء ؟ قلت : إلى أخي صَخر . فأتيناه ، فقسَم ماله شَطرين ، فأعطانا خيرَهما . فجعل زَوْجي أيضًا يُعطي ويحمل(٣) حتى نفِدَ ماله ، فقال : إلى منْ ؟ فقلت : إلى أخي صَخر .فأتيناه ، فقسم ماله شَطرين ، فأعطانا خيرَهما فقالت امرأته : أما ترْضَى أن تعطيها النصْف حتى تعطيها أفضل النصيبين ! فأنشأ يقول :

والله لا أمنحُهـا شِرَارَهَا ... ولو هلكتُ مزّقتْ خمارَها

* وجَعلتْ من شعر صِدَارَها *

---

(١) رغيب : واسع .

(٢) الصدار : ثوب ، وكانت الثكلى تلبس صداراً من صوف .

(٣) يحمل : يتكفل ويضمن .

فذلك الذى دَعانى إلى أن لبستُ هذا حين هلك .

وكانت تقف بالموْسم فتسوم هَوْدَجها بسُومة[١] وتعاظم العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صَخر ومعاوية ، ابنى عَمرو ، وتنشدهم فتبكى الناس ، وكان أبوها يأخذ بيدى ابنيه : صَخر ومعاوية ، ويقول : أنا أبو خيرَىْ مضر ، فتعترف له العربُ بذلك .

ثمّ قالت الخنساء بعد ذلك : كنت أبكى لصَخر من القتل ، فأنا أبكى له اليومَ من النار .

ومما سبَقتْ إليه قولها :

أشمّ أبلجُ تأتمُّ الهداةُ به   كأنه علمٌ فى رأسه نارُ[٢]

وفيها يقول :

مثل الرّدينىّ لم تَكبر شبيبتُه   كأنه تحتَ طىّ الثوب أسوار[٣]

٥

عنترة بن شداد العبسى *

هو عنترةُ بن عَمرو بن شَدّاد بن عمرو بن قُرَاد بن مخْزوم بن عوْف ابن مالك بن غالب بن قُطيعة بن عبس بن بَغيض .

وقال ابن الكلبي : شداد جده أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه فنسب إليه . وإنما هو عنترة بن عَمرو بن شداد .

وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنترة نشأ فى حجره فنُسب إليه دُون أبيه . وإنما ادّعاه أبوه بعد الكبر ، وذلك أنه كان لأمَة سوداء يقال لها : زَبيبة ، وكانت العربُ فى الجاهلية إذا كان للرجل منهم وُلد من أمةٍ استعبده .

(١) السومة : العلامة . وتسوم هودجها ، أى تجعل على مركبها علامة .

(٢) أشم : أى ذو أنفة . وأبلج : طلق الوجه . والعلم : الجبل .

(٣) الردينى : الرمح . والأسوار : واحد الأساور ، وهم الفرس المقاتلون .

* جاهلى .

وكان لعنترة إخوةٌ من أمه عَبيد .

وكان سببُ ادّعاء أبى عنترة إياه أنّ بعضَ أحياء العرب أغاروا على قوم من بنى عبس ، فأصابوا منهم فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عَمًّا معهم ؛ وعنترةُ فيهم ، فقال له أبوه : كُرَّ يا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسِن الكر . إنما يحسن الحلاَب والصرّ[١] . فقال : كرّ وأنت حرّ . فكرّ وقاتل يومئذ فأبلى ، واستنقذ ما كان بأيدى عدوّهم من الغنيمة . فادّعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسَبه .

وهو أحد أغربة[٢] العرب ، وهم ثلاثة : عنترة ، وأمه زَبيبة سوْداء ؛ وخُفاف بن عُمير الشَّريدىّ ، من بنى سُلَيم ، وأمه نَدْبة ، وإليها ينسب ، وكانتَ سوداء ، والسليك بن عُمير السعدىّ وأمه سُلكة ، وإليها ينسب ، وكانت سوداء .

وكان عنترة من أشدّ أهل زَمانه وأجودهم بما ملكتْ يده . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سابَّه رجلٌ من بنى عَبس فذكر سوادَ وسواد أمه وإخوته ، وعيَّره بذلك وبأنه لا يقول الشعر . فقال له عنترة : والله إن الناس ليترافدون بالطُّعمة[٣] فما حضرْتَ مَرْفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط . وإن الناس لَيُدْعَوْن فى الغارات فيعرفون بتسويمهم[٤] فما رأيناك فى خيل مُغيرة فى أوائل الناس قطّ . وإن اللَّبسَ ليكونُ بيننا فما حضرتَ أنت ولا أبوك ولا جدُّك خُطة فَيصل[٥] . وإنما أنت فقعٌ نبتَ بقرْقر[٦] وإنى لأحْتَضِرُ البأس وأوفى المغنم ، وأعفّ عن المسألة ، وأجود بما ملكتْ يدى ، وأفصل الخطة الصَّمعاء[٧] ،

---

(١) الصر : شد الضرع برباط . وكانت العرب إذا أرسلوا الحلابات إلى المراعى صروها ، فإذا رجعت عشية حلوها وحلبوها .

(٢) أغربه العرب : سودانهم ، شبهوا بالأغربة فى لونهم .

(٣) الترافد : التعاون والتواصل . والطعمة : الطعام ، والدعوة إليه .

(٤) بتسويمهم أى بإعلامهم أنفسهم فى الحرب بعلامة .

(٥) اللبس : أى الأمر الملتبس الغامض والشيء المتنازع عليه . وفيصل : فصل فى الخصومات .

(٦) الفقع : الرخو من الكمأة ، وهو أردؤها . والقرر : الأرض المطمئنة اللينة . وهو مثل . يقال : أذل من فقع بقرقر . لأن الدواب تدفعه بأرجلها ولا أصول له ولا أغصان .

(٧) الصمعاء : الماضية .

وأما الشعر فستعلم ! فكان أولُ ما قال قصيدة :

* هل غادَرَ الشعراءُ من متردَّم[١] *

وهى أجود شعره . وكانوا يسمونها المذْهبَة .

وكان عنترة قد شَهِد حرب داحس والغبراء[٢] فحسن فيها بلاؤه ، وحُمدت مشاهدُه .

قال أبو عبيدة : إنّ عنترةَ بعد ما تأوّت[٣] عبس إلى غطفان بعد يوم جبلةَ[٤] وحَملت الدماءَ احتاجَ — وكان صاحبَ غارات فكبر فعجز عنها ، وكان له بكرٌ على رجل من غطفان ، فخرج قِبَله يتجازاه ، فهاجتْ رائحة من صَيف[٥] وهبت نافحةٌ وهو بين شرْج وناظرة[٦] فأصابت الشيخَ فهرأتْه[٧] فوجدوه ميتًا بينهما .

قال أبو عبيدة : وهو قتل ضمضمًا المرىَّ أبا حُصين بن ضَمضَم ، وهرم ابن ضَمضم ، فى حرب داحس والغبراء . وفى ذلك يقول :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدُرْ للحرب دائرةٌ على ابنَىْ ضَمضم

الشاتمَــى عِرضى ولم أشتمهما والناذِرَين إذا لم ألقهما دَمى

ومما سبق إليه ولم يُنازَعْ فيه قوله :

إنى امرؤ من خير عَبس مَنصباً شَطرى وأحمى سائرى بالمنصُلِ

يقول : النصف من نسبى فى عبس ، وأحمى النصف الآخر ، وهو نسبه فى السودان ، بالسيف ، فأشرّفه أيضًا .

ومن حسن شعره قوله :

بكرتْ تخوّفنى الُحتوفَ كأننى أصبحتُ عن غرَض الحتوف بمعزِل

---

(١) متردم : مستصلح . أى هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلاوقد سبقونا إليه .
(٢) داحس والغبراء : فرسان ، كانت بسببهما الحرب بين عبس وذبيان أربعين سنة .
(٣) تأوت : عادت .
(٤) هو يوم شعب جبلة ، من أعظم أيام العرب . وكان قبل الإسلام بنحو خمسين عاماً .
(٥) الصيف : المطر يجىء فى الصيف .
(٦) شرج وناظرة : ماءان لعبس .
(٧) هرأته : اشتد عليه حتى قتلته .

فأجبتُهـــا إن المنيـــة مَنهلٌ   لا بد أن أسقى بذاك المنهل
فاقنَىْ حياءَكِ لا أبالك واعلمى   أنى امرؤٌ سأموتُ إن لم أقتلِ [١]

ومن إفراطه قوله :

وأنا المنيـــة فى المواطن كلها   والطعنُ منِّى سابق الآجال

وفى هذه يفخر بأخواله من السودان ، يقول :

إنى لتُعرَفُ فى الحُروب مواطنى   فى آل عبس مَشهدى وَفعالى
منهم أبى حقـًّا فهمْ لى والدٌ   والأمُّ من حام فهمْ أخوالى

٦

أبو العتاهية*

هو إسماعيلُ بن القاسم ، مولًى لعنزَة . ويكنى أبا إسحاق وأبو العتاهية لقبٌ ، وكان جَرَّاراً [٢] ، ويرمى بالزندقة .

وحدثنى شيخٌ من قدماء الكتاب أنه كان له ابنتان يقال لأحدهما : لله ، وللأخرى : بالله . ورأيته ُ يستعظم ذلك . وكان له ابن شاعر ناسك .

وكان أحد المطبوعين ، وممن يكاد يكون كلامه كله شعراً .

وكان لسرعته وسُهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به من أعاريض الشعر وأوزان العرب . وقعد يوما عند قَصار ؛ فسمع صوت المدقة ، فحكى ذلك فى ألفاظِ شعره ، وهو عِدّةُ أبيات فيها :

للمنـــون دائـــرا   تٌ يُدِرْنَ صرفها
هـــن ينتقيننـــا   واحـــداً فواحـــدا

وحبسه الرشيدُ ، فكتب إليه من الحبس بأبيات فيها :

(١) اقنى حياءك : الزميه .   * توفى سنة ٢٠٥ .
(٢) الجرار : صانع الجرار ، وهى الآنية من خزف .

تفديكَ نفسى من كل ما كرهت نفسُك إن كنتُ مذنبا فاغفر
ياليتَ قلبى مصَوَّرٌ لك ما فيه لتستيقن الذى أضْمِرْ

فوقع الرشيدُ فى رُقعته : لا بأس عليك . فأعاد عليه رُقعة بأبيات ، فيها :

كأنّ الخلق رُكّبَ فيه رُوحٌ له جسد وأنتَ عليه راسُ
أمينَ الله ، إن الحبسَ بأسٌ وقد وقعتَ : ليس عليكَ باس

فأمر بإطلاقه .

وكتب إليه من الحبس :

إنما أنت رحمة وسلامة زادك الله غبطة وكرامهْ
قيل لى : قد رَضيت عنى فمن لى أنْ أرى على رضاك علامهْ
وحقيقٌ ألاّ يُراعَ بسوء من رآك ابتسمتَ منه ابتسامهْ
لو توجعتَ لى فروَحت عنى روح الله عنك يومَ القيامهْ

وكان جَعلَ أمره إلى خادم له يقال له : ثابت ، فكتب إليه :

كفتنى العنايةُ من ثابت بتثمير ما كان من غرْسه
وكان الشفيعَ إلى غيره فصار الشفيع إلى نفسه

وكان أبو العتاهية أتى أحمدَ بن يوسف الكاتب . فحُجب عنه ، فقال :

متى يَظفر الغادى إليك بحاجة ونصْفك محجوبَ ونصفك نائمُ

وبعث إلى بعض الملوك بنعل ، وكتب إليه :

نعلٌ بعثتُ بها لتلبسها تَسعى بها قدَمٌ إلى المجد
لو كان يَحسنُ أن أشرّكها خدّى جعلت شراكها خدى(١)

وسمع بقول جميل :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حبِّ قاتله قبلى

فأخذه كاه فقال :

يا من رأى قبلى قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتلِ

وسمعه رجلٌ ينشد :

فانظر بطَرفك حيث شئـ ـت فلن ترى إلا بخيلاَ

(١) الشراك : سير النعل . وشركها : جعل لها شراكاً .

فقال له : بخّلت الناسَ جميعاً ! قال : فأكذبني بسخيّ واحد .

ومما يستحسن من شعره قوله :

ما أنا إلا لمن بغاني ... أرى خليلي كما يراني
لستُ أرى ماملكتُ طرفي ... مكانَ مَن لا يرى مكاني
من ذا الذي يرتجي الأقاصي ... إن لم ينلْ خيرَه الأداني
فلي إلى أن أموتَ رِزْقٌ ... لو جهدَ الخلق ما عداني
لا ترتجِ الخيرَ عند منْ لا ... يصلُح إلاّ على الهوان
فاستغن بالله عن فلان ... وعن فلان وعن فلان
ولا تدعْ مكسبا حلالاً ... تكونُ منه على بيان
فالمالُ من حلّه قِوامٌ ... للعِرض والوجه واللسان
والفقرُ ذُلٌّ عليه بابٌ ... مفتاحه العجزُ والتواني
ورزْق ربي له وجوهٌ ... هن من الله في ضمان
سبحانَ من لم يزل عليا ... ليس له في العلوّ ثاني
قضَى على خلقه المنايا ... فكل شيء سواه فاني
يا ربّ لم نبك من زمان ... إلاّ بكينا على الزمان

ويستحسن له قوله :

وعظتْكَ أجداثٌ[1] صُمتْ ... ونعتك أزمنةٌ خُفُتْ
وأرتك قبرَك في القبو ... ر وأنت حيٌّ لم تمتْ

وشعره في الزهد كثيرٌ حسنٌ رقيق سهل .

ومات سنة ٢٠٥ .

ومما يستحسن له من شعره قصيدته التي أولها :

أتته الخلافةُ منقادة ... إليه تجررُ أذيالها
فلم تكُ تصلح إلاّ له ... ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيرُه ... لزُلزلت الأرْض زِلزالها

---

(١) الأجداث : القبور .

٧

دريد بن الصمة *

هو دُرَيد بن الصِّمَّة ، من جُشَمَ بن معاوية بن بكر بن هَوازن بن منصور ابن عِكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان ، ويكنى أبا قرة ، وهوازن أخو سُليم ابن منصور .

وكان دُريد من فخذ من جُشَمَ يقالُ لهم بنو غَزِيَّة .

وأمه رَيحانة بنت معدى كرب ، أخت عمرو بن معدى كرب ، وعمرو خاله . وهو أحدُ الشجعان المشْهورين وذوى الرأى فى الجاهلية .

وشَهِد يومَ حُنين مع هوازن ، وهو شيخٌ كبير ، فى شِجار له يقادُ به — والشجار : مَركب دون الهودج مكشوف الرأس — فقال : بأىّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعم مجال الخيل ، لا حزَن ضرس(١) ، ولا سَهل دَهس(٢) . ثم قال لمالك بن عوف : مالى أسمعُ بكاء الصغير ، ورُغاء البعير ، ونُهَاق الحمير ، ويُعارَ الشاء . فقال مالك : يا أبا قرّة ، إنى سُقت مع الناس أموالهم وذراريهم ، وأردتُ أن أجعلَ خلفَ كل رجل أهلَه وماله يقاتل عنه ، فانقضَ(٣) به دُريد ، ثم قال : رُوَيعى ضأن والله ! وهل يُردّ المنهزم شيء ! وقال : هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه . وقال :

يا ليتنى فيها جَذَع ... أُخُبُّ فيها وأضَع (٤)
أَقُود وَطفاء الزمَع ... كأنها شاةٌ صَدَع (٥)

وقتل دُريد يومئذ فيمن قتل من المشركين .

---

* توفى سنة ٨ .

(١) الحزن : الأرض الغليظة الصعبة . والضرس : الخشن .

(٢) الدهس : اللين السهل .

(٣) انقض به ، أى نقر بلسانه فيه ، كما يزجر الحمار ، فعله استجهالا له .

(٤) الجذع : الصغير السن . يريد : ليتنى فيها شاب . والخبب والوضع : ضربان من السير السريع .

(٥) الوطفاء : الطويلة الشعر . والزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة . والصدع : الوسط بين العظيمة والحقيرة .

ومن جيد شعره قوله :

أمرتهم أمْرى بمنعَرَج اللوى فلم يستبينوا الرشدَ إلاّ ضحى الغد
فلما عصَونى كنتُ منهم وقد أرى غَوَايتهم وأننى غيرُ مهتدى
وهل أنا إلاّ من غَزِيّة إن غوَتْ غويتُ وإن ترْشد غزيةُ أرْشد
تنادَوْا فقالوا أرْدَت الخيل فارسًا فقلتُ أعبدُ الله ذلكم الردى(١)
فإن يكُ عبد الله خلَّى مكانه فما كان وقافًا ولا رَعِشَ اليد
وطيَّب نفسى أننى لم أقلْ له كذَبتَ ولم أبخل بماملكتْ يدى

وقوله :

أبى القتلُ إلاّ آل صِمَّة أنهم أبوْا غيره والقَدْرُ يجرى إلى القدر(٢)
فإما ترَينـا لا تزَال دماؤنا لدَى واتر يسعى بها آخرَ الدهر
فإنا للَحمُ السيف غير نَكيرة ونُلحمهُ حينًا وليس بذى نُكر
قَسمنابذاك الدهرَ شطرَين بيننا فما ينقضى إلاّ ونحنُ على شَطر

قال : وكان عبدُ الله بن الصمَّة أخو درَيد أغار على إبل لعبس وفزارَة ، ومعه درَيد، بعد أن أشار عليه دُريد ألاّ يفعل ، فخالفه . فخرجتْ عليهم الخيل فاستحرّ(٣) القتالُ فى بنى جُشَم ، وقتل عبد الله بن الصمة وصرع دُرَيد ، فقال ابن خَرْشاء العبسىّ : أما أنا فأشهد أن درَيداً حىٌّ . فقال له الربيع بن زياد : وما علمك بذلك ؟ قال : أرى عرْقًا ينبض فيه ، فَدعنى أبقرُه بالرُّمح . فنهاه . فقال : أما والله ليملأنها عليك عامًا قابلاً شرًّا . ثم إنّ الربيع أمر بحمله حتى بلغه مأمنه ، وكانت للبريد عنده يدٌ متقدّمة . فجازاه بذلك .

ثم إنّ هوازَنَ عقَدَتْ له رياسة عبد الله أخيه . فخرج بهم ، فلقى جماعة عبَس وذبيان ، فقتل منهم زُهاء مائة قتيل، وأسر ذُؤَاب بن أسماء بن زَيد بن قارب ، قاتِل عبدِ الله بن الصِّمة ، وبعث به إلى أمه رَيحانة لتقتلَه بعبد الله . فلم يصلْ إليها حتى قتل . وفى ذلك يقول دُريد :

---

(١) أردت : أهلكت . والردى : الهالك . وعبد الله ، هو أخوه . وسيأتى حديثه .
(٢) القدر : القضاء . (٣) استحر : اشتد .

قتلنا بعبدَ الله خيرَ لِدَاته ‖ ذُؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارب

وكانت أمّ دُرَيد حضَّضته بشعر لها على الطلب بثأر عبد الله أخيه ، فقال :

ثَكِلتُ دريداً إن أتتْ لك شتوةٌ ‖ سوى هذه حتى تدورَ الدوائرُ
وشيبَ رأسي قبلَ حين مشيبه ‖ بكاؤُك عبدَ الله والقلبُ طائر
إذا أنا حاذرتُ المنيةَ بعده ‖ فلاَ وألتْ نفسٌ عليها أحاذر(١)

٨

القطامىّ

هو عُمير بنُ شيَيم ، من بنى تغلب ، وكان حسنَ التشبيب رقيقه .

وكان يمدح زُفر بن الحارث الكلابىّ وأسماء بن خارجة الفزارىّ . وكان زُفر أسَره فى الحرب التى كانت بين قيس وتغلب ، فأرادت قيسٌ قتله فحال زُفر بينهم وبينه ، ثم منَّ عليه ووهب له مائةَ ناقة وردّه إلى قومه فقال :

أأكفُر بعد رَد الموت عنى ‖ وبعد عطائك المائة الرتاعا(٢)
فلو بيدىْ سواكَ غداةَ زلتْ ‖ بى القدَمان لم أرْجُ اطلاعا
إذنْ لهلكتُ لو كانت صغارٌ ‖ من الأخلاق تُبتَدع ابتداعا

ويُتمثَّل من هذه القصيدة بقوله :

ومعصيةُ الشفيق عليك مما ‖ يزيدكَ مرَّةً منه استماعا(٣)
وخير الأمر ما استقبلتَ منه ‖ وليس بأنْ تتَبَّعه اتباعا

وقال أيضًا :

مَن مبلغ زُفَر القيسىّ مدحته ‖ عن القطامىّ قولاً غير إفناد(٤)
إنى وإن كان قومى ليس بينهم ‖ وبين قومكَ إلا ضرْبةُ الهادى(٥)

---

(١) لا وألت : لا نجت .
(٢) الرتاع : التى ترتع وترعى .
(٣) وذلك لما وقع بك من سوء .
(٤) الإفناد : الكذب .
(٥) الهادى : العنق ، أو مقدمة .

مُنْن عليك بما أوليتَ من حسن — وقد تعرضَ منى مَقتلٌ باد
فإنْ قدرتُ على يوم جَزيتُ به — والله يجعل أقواماً بمرصـاد

ومما يتمثل به من شعره :

والناس مَن يلق خيراً قائلون له — ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل(١)
قدْ يدْرك المتأنى بعضَ حاجته — وقد يكون مع المستعجل الزللُ

وقوله :

كذاك وما رأيتُ الناسَ إلاَّ — إلى ما جرَّ غاويهم سِراعا
تراهم يَغمِزون من استركُّوا — ويجتنبونَ من صدق المِصاعا(٢)

٩

ذو الإصبع العدوانى *

هُو حرْثان ، من عَدْوان بن عَمرو بن قيس عيلان ، وكان جاهليًّا ، وسمى ذا الإصبع لأن حيةً نهشته فى إصبعه فقطعها .

وهو القائل :

لىَ ابنُ عم على ما كان من خُلق — مخالفٌ لىَ أقليه ويَقْليِنى(٣)
أزْرَى بنا أنَّنا شالتْ نعامتنا — فخالنى دونَه ، بل خلْتُه دُونى(٤)
إنَّك إلا تدعْ شتمى ومَنقصتى — أضْربك حيثُ تقول الهامة اسقونى(٥)
إنى لعمرىَ ما بَيْتى بذى غَلَق — على الصديق ولا خيرى بممنون

---

(١) الهبل : الشكل ، يقال : هبلته أمته ، أى ثكلته .

(٢) استركوا : استضعفوا . المصاع : المقاتلة والمجالدة بالسيوف .

* شاعر جاهلى .

(٣) أقليه : أبغضه .

(٤) أزرى بنا : حط وهون . والنعامة : الجماعة . وشالت : خفت . وشالت نعامة القوم : ذهب عزهم وتفرقوا .

(٥) كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول : اسقونى ! اسقونى ! فإذا أدرك بثأره طارت .

ولاَ لسانى على الأدْنى بمنبسط ... بالفاحشات ولا فـَتـْكى بمأمون
عنى إليكَ فما أمى براعيـــة ... تـَرْعى المخَاض َ(١) ولا رأبى بمغبون
لا يخرج الكرهُ منى غير مأبية ... ولا ألِـينُ لمن لاَ يبتغى لينى(٢)

وهو القائل :

عـَذيرَ الحىّ من عـَدْوا ... نَ كانوا حيةَ الأرْض(٣)
علاَ بعضهمُ بعضــًا ... فلم يـُرْعوا على بعض(٤)
ومنهمْ كانت السادا ... تُ والموفون بالقرْض
ومنهـــم حـَكـَمٌ يقضى ... فلاَ يـُنقـَض ما يقضى
إذا ما وَلـَدوا أشْبـَوا ... بسرّ الحسب المحْض(٥)

١٠

الكميت *

هو الكـُمـَيـْت بن زيد، من بنى أسد ، ويكنى أبا المستهل ، وكان معلماً . وكان أصمّ أصْلخَ(٦) لا يسمع شيئًا ، وكان بينه وبين الطرِمّاح(٧) من المودّة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين ، على تباعد ما بينهما فى الدين والرأى ، لأن الكميتَ كان رافضيًّا ، وكان الطرماحُ خارجيًّا صُفـْريـًّا(٨) . وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرّماح قـَحطانيًّا عصبيًّا . وكان الكميت متعصبًا لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصّب لأهل الشام .

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق . (٢) المأبية : مايكره ويعاف .

(٣) عذير الحى : أى هات عذراً لما بينهم من التباعد والتباغض والقتل . ولم يرع بعضهم على بعض ، بعد أن كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد . (٤) لم يرعوا : لم يبقوا .

(٥) أشبوا : ولدوا كل ذكى كيس . وسرالحسب : خالصه . * توفى سنة ١٢٦ .

(٦) أصلخ : شديد الصمم . (٧) الطرماح : شاعر إسلامى توفى سنة ٨٠ .

(٨) من أتباع المهلب بن أبى صفرة الخارجى .

وكان الكميت شديدَ التكلف فى الشعر ، كثيرَ السرقة ، قال امرؤ القيس ابن عابس الكندىّ ، وكانت له صحبة :

قفْ بالديار وقوفَ حابسْ ... وتأىَّ إنك غيرُ آيس[1]
ماذا عليكَ من الوقو ... ف بهامدِ الطللينِ دارس
لعبتْ بهنّ العاصفا ... تُ الرائحات مِن الروامس[2]

أخذه الكميت كلَّه غيرَ القافية ، فقال :

قِفْ بالديار وقوف زائرْ ... وتأىَّ إنك غير صاغرْ
ماذا عليك من الوُقو ... ف بهامدِ الطللين دائر
درَجت عليه الغاديا ... ت الرائحات من الأعاصر

وكذلك سائر الأبيات بعد هذا إلا القليل ، أخذه غيرَ القافية .

ووقف الكميت على الفرزدق وهو ينشد ، والكميت يومئذ صبى ، فقال له الفرزدق : يا غلام ، أيسرك أنى أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبى فلا أريد به بدلا ولكن يسرنى أن تكون أمى . فحَصِر[3] الفرزدق يومئذ وقال : ما مرَّ بى مثلُها قط !

ويستجاد قولُه فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم :

يقولون لم يورَثْ ولولا تُراثه ... لقد شركتْ فيه بَكيلٌ وأرْحب[4]
ولانتشلت عضوَين منها يُحابرٌ ... وكان لعبد القيس عُضْوٌ مؤرَّب[5]
فإن هى لم تصْلحْ لحىٍّ سِواهُمُ ... إذنْ فذوُو القربْى أحقُّ وأقرَب
فيالكَ أمراً قد أشتَّتْ وُجوهه ... وداراً ترى أسبابها تتقضبُ[6]
تبدّلت الأشرارَ بعدَ خيارها ... وجُدَّ بها من أمة وهى تلعبُ

---

(١) تأى : تلبث وانتظر .
(٢) الروامس : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار .
(٣) الحصر : ضيق الصدر والعى فى المنطق .
(٤) بكيل وأرحب : قبيلتان .
(٥) يحابر : قبيلة . مؤرب ، أى لازم لافكاك له .
(٦) أشتت : تفرقت . تتقضب : تتقطع .

وقال يَصِف هشامَ بن عبد الملك :

مصيبٌ على الأعواد يوم رُكوبه ... لما قال أفيهـا مخطئ حين ينزل[١]

ومن جيد شعره قوله :

ألاَ لا أرى الأيام يُقضَى عجيبها ... لطول ولا الأحداث تَفنى خطوبها
ولا عِــبرُ الأيام يَعــرِف بعضَها ... ببعض من الأقوامِ إلاّ لبيبها
ولم أرَ قــولَ المرء إلا كنبْلِه ... له وبــه مَحْــرومُها ومُصيبها
وما غُيِّب الأقوام عن مثل خـُطة ... تَغيَّبَ عنهـا يومَ قيلت أريبها
وأجهلُ جهلِ القوْم ما فى عدوهم ... وأردأ أحــلامِ الرجال غريبها
وما غَبنَ الأقــوامَ مثلُ عقولهم ... ولا مثلـَهــا كَسبـًا أفاد كسوبُها
وهل يَعدُوَنْ بين الحبيب فراقـَه ؟ ... نعم ، داءُ نفس أنَ يبين حبيبها
ولكن صَبراً عن أخ عنــك صابر ... عزاءٌ إذا ما النفس حَنَّ طرُوبها
رأيت عذَابَ الماء إنْ حيلَ دونها ... كفاكَ لمــا لا بدّ منه شَرُوبها
وإنْ لم يكن إلاّ الأسنـّةَ مرْكبٌ ... فلا رَأى للمضطر إلا رُكوبها

وابنه المستهلّ هو القائل لبنى العباس :

إذا نحن خِفنا فى زَمانِ عدُوِّكم ... وخفناكم إنّ البــلاء لراكدُ

---

(١) الأعواد : المنابر .

المختار من كتاب
طبقات الشعراء لابن المعتز
٢٤٩ ـــ ٢٩٦

ابن المعتز

أبو العباس عبد الله بن المعتز ، ولد فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٢٤٩ ، قبل مقتل جده المتوكل على الله بأربعين يومًا ، وولى الخلافة يومًا وليلة فى أواخر ربيع الأول سنة ٢٩٦ بعد أن خُلع المقتدر ، ثم قَبَضَ عليه المقتدر ، وقتله ثانى شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٦ .

تأدب على أبى العباس ثعلب والمبرد ، واختص بصحبة أبى سعيد محمد بن هبيرة الأسدى النحوى المعروف . وكان له عُشَراء ممتازون منهم أبو بكر محمد ابن يحيى الصولى ، ومحمد بن القاسم بن خلاد البصرى .

نشأ نشأة أدبية ، وامتاز شعره بالسهولة والوضوح والجدّة ، ومدْح الشىء وذّمه ، مع الإجادة فى كلا الحالين ، واحتفل بالبديع غير أنه لم يُسرف فيه إسراف أبى تمام، وعُنى بإجادة التصوير فى استيعاب تام. ويبدو شعره فى الوصف كأنه فنٌّ جديد . وصف فيه دنياه ودنيا قومه ، ووصفَ الرياض والأمطار ، والدُّور والقصور ، والخمر والغناء والنبيذ ، والديارات والحانات . وسار فى الغزل على أسلوب القدماء . وكان يكنى عمن أحب من النساء بهند وبثنة وسلمى وأترجة . كما كنى بشرّ وشرّة . وشرّير وشرّيرة ، للذى ناله من أذى وحرمان من وصالهن .

ومع أن منزلته ترفعه عن المدح ، إلا أنه آثَر أن يكون كواحد من الناس لم تتوثّق صلتُه بالخلفاء ، إلى حدٍّ أنهم كانوا يُقْصونه عن أبوابهم ؛ فحمل نفسَه على مدحهم ؛ مدَحَ المعتمد، وعمل فى المعتضد أرجوزة أرّخ فيها لأعماله وقالها ، بعد موته . ومدح المكتفى. وكما مدح الخلفاء مدح الوزراء من أبناء وهب والفرات .

ولابن المعتز هجاءٌ مقْذع ، ناب فى بعض الأحيان ، ممتلئٌ سخرية ومجُونا ، ولا سيما فى هجائه المغنّين والقيان ، وله أشعارٌ فى الحكمة والشكوى ، والشيب والشباب ، والزُّهد والعتاب ، وله أراجيزُ فى كل غرض ؛ غير أنه كان الأعم فى طرديّاته .

وقد عَزَوا لابن المعتز موشَّحة يرجح أنها نسبت إليه .

ولابن المعتز فضل السبق إلى وضع كثير من قواعد وأسس فن النقد الأدبى الذى بُنِى عليه فيما بعد علم البلاغة العربية ؛ وكذلك يُعزَى إليه فضل وضع كتاب البديع الذى كان كالنواة التى نبتت منها دَوحة هذا الفن الوارفة الظلال .

ومع أنّ ابن المعتز قد ألف كتاباً فى سرقات الشعراء، فقد عثر له فى سرقات فى شعره نفسه .

ولابن المعتز نثر فنى رائع فى فنون عدة، ورسائلُ إخوانيات، وأوصاف الأشياء والأحداث، فى أسلوب موجز قوى ، وله فصولٌ قصار تجرى مجرى الحكم والأمثال .

أما أخلاق ابن المعتز وطباعه فقد ورث عن أبيه حِدّة الذهن ، وزاد هذه الموهبةَ مضاءً وقوة مؤدبوه الذين تولَّوه صبيًّا ويافعًا .

وكان ممازحًا ظريفًا جواداً يحيط به أصدقاؤه والندماء والظرفاء . وكان وفيًّا لهم . وكأنه لم يُضعْ يومًا دون أن يعمل وأن يكتسب ، وأن ينشد وينقد ويحقق ، ولكن مَقتله قد عصف ببعض ما كتب وأنشد ؛ فلم يبق منه إلا شعره الذى فى الديوان ، وكتابه فى البديع ، وفصول التماثيل ، وسرقات الشعراء ، ثم هذا الكتاب « كتاب الطبقات » .

كتاب طبقات الشعراء :

وقد ألّف ابن المعتز كتَابه « طبقات الشعراء » على نمط ما ألفه أبو عبد الله هارون بن على بن يحي بن أبى منصور المنجم المتوفى سنة ٢٨٨ ، وسماه البارع ، بعد أن اختصره من كتاب له أكبر منه .

وكان ابن المنجم قد جمع فى كتابه مائة وواحداً وستين شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار بن برد .

واقتصر ابن المعتز فى طبقاته على الشعراء الذين أدركوا الدولة العباسية ، مثل إبراهيم بن هَرْمة وابن مَيَّادة ، وأبى نُخَيلة . ومن تلاهم من الشعراء إلى عصره

هو . أى من امتدت بهم الحياة إلى ما بعد سنة ١٣٢ ، ومن عاشوا ما بين هذه السنة وبين سنة ٢٩٦ .

على أنه لم يَستوفِ كلَّ شعراء تلك الحِقبة ؛ فقد أغفَل منهم نفراً ، مثل دِيك الجن ، وابن الرومىّ ، على ما لهما من الشهرة والإبداع .

وقد سار ابن المعتز فى تراجمه على طريقة ذكر السند ، وروايته بعض الأخبار أما تاريخ المولد وتاريخ الوفاة فلم يكونا من الأمور التى تعنيه .

ولم يثبت ابن المعتز لمن ترجم لهم ما كان مشهوراً من قصائدهم من عامة الناس فى عهده . بل اختار أبياتا منها وأشار إلى مطلعها . أما ما اشتهر بين الخاصة دون العامة ، أو كان من نادر الشعر فقد أثبته . وذلك مثل ما فعل مع أبى الشيص ، وربيعة الرَّقىّ ، وبكر بن النطاح ، والعنبرى الأصبهانى .

وتمتاز طبقات ابن المعتز بانفرادها بتراجم لشعراء لا تجدهم فى غيرها . أو لمن يصعب العثور عليهم فى يُسر ، كما أنها حوت أشعاراً وأخباراً خلتْ منها الكتب الأخرى .

المختار من كتاب
طبقات الشعراء فى مدح الخلفاء والوزراء
لعبد الله بن المعتز

١
من المقدمة

يقول أفقر العباد إلى الله عبدُ الله بن المعتز بالله بن المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن الرشيد هارون بن المهدىّ محمد بن أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

عقَدَ الفكرُ طرفى ليلةً بالنجوم ، لِوارد وَرد علىّ من الهموم ، نفض عن عينى كحل الرقاد ، وألبس مقلتى حُللَ السهاد ، فتأملتُ فخطر علىّ الخاطر فى بعض الأفكار ، أنْ أذكر فى نسخة ما وضعته الشعراء من الأشعار ، فى مَدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بنى العباس ، ليكونَ مذكوراً عند الناس ، متابعًا لما ألفه ابن المنجم قبلى بكتابه المسمى بطبقات الشعراء الثقات . مستعينًا بالله المسهل الحاجات ، وسميته « طبقات الشعراء المتكلمين ، من الأدباء المتقدمين » فكان أول ترجمة « ابن المنجم » بشار بن بُرْد وماله من الأشعار والآثار . فنظرتُ فى ذلك أن أجمعَهم فى هذا الكتاب ، فرأيت الاختصار لأشعارهم عين الصواب . ولو اقتصصتُ جميعَ ما لهم من الأشعار لطال الكتابُ وخرج عن حَدّ الفضل . فاختصرتُ ذلك وذكرتُ ما كان نادًّا من دواوينهم وما لم يُذكر فى الكتب من أشعارهم ، واقتصرتُ على ما كان من مطوّلات قصائدهم وبالله الاستعانة ، ومنه التوفيق ، وإليه المرجع والمآرب ، وما توفيقى إلا بالله ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، ومنه يطلب الطالبون ، وهو حسبى ونعم الوكيل . نعم المولى ونعم النصير !

٢
أخبار ابن يسير الرياشي *

حدّثني جعفر بن إبراهيم بن نصير قال : حدّثني محمد بن عامر الحنفي قال : كان بين أحمد بن يوسف الكاتب (١) وبين محمد بن يسير مودّة ، فكتب إليه يوماً يستزيره ليأنسا ويتمتعا . فأجابه ابن يسير :

أجيء على شرط فإن كنت عاقلا ... وإلا فإني راجعٌ لا أناظـــرُ
ليُسرَجْ لي البرْذَونُ في وقت دُلجتي ... وأنتَ بدُلجاتي مع الصبح خابر (٢)
فأقضي عليـــه حاجتي ثم أنثني ... إليك وحَجَّامٌ إذا جئتُ حاضر
يقصِّر من شَعري ويحتفُّ شاربي ... ومن بعدُ حمامٌ معَدٌ وجامر (٣)

فكتب إليه أحمدُ بن يوسف مجيباً له :

تشرَّطَ لما جـــاء حتى كأنه ... مُغنٍّ مُجيد أو غلام مؤاجر
وأقسمُ لولا حرمةٌ هي بيننا ... للطَّمَ بشـــارٌ قفاه وياسر (٤)

وحدّثني إبراهيمُ بن منصور النحوي قال : حدّثني ابن أبي العلاء قال : فاخَرَ رجلٌ من الجِلَّة (٥) يوماً ابنَ يسير . فقال له الرجلُ : يا هذا ، تفاخرني وقد ركب جدّي إلى الصيد في أربعة آلاف جارية على أربعة آلاف برذون أشهب ، على يد كل جارية بازيّ أبيض يصطاد الطواويس ! قال ابنُ يسير : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إنْ هذا إلا اختلاق ! فحمله الرجلُ على برْذون

* هو ابن يسير الرياشي . يقال : إنه مولى لبني رياش ؛ ويقال : إنه منهم صليبة . وقيل : هو من أسد مولى لهم ، وكان في عصر أبي نواس وعمر بعده حينا .

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح ، الوزير الكاتب ، من أهل الكوفة ، ولي ديوان الرسائل للمأمون ، وكانت وفاته سنة ٢١٣ .

(٢) أسرج الدابة : وضع عليها سرجها . والبرذون : الدابة . والدلجة ، سير السحر .

(٣) يحتف : يزيل عنه الشعر . والجامر : الذي يضفر الشعر ويجمعه .

(٤) بشار وياسر : غلامان كانا له .

(٥) الجلة : أي من العظماء .

أشهبَ فاره[١] ، وأمر له بجارية حسنة ، وكساه ثوبَ خزٍّ طاووسى ، ثم قال : إن كانَ ما قلته باطلاً فما فعلته حق . قال ابن يسير : ما قلتَ أيضًا حق !

ومما يستحسن لابن يسير وسار له فى العرب والعجم قوله :

لولا البُنيةُ لم أجزَعْ من العدَم ... ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُّلَم[٢]
وزَادنى رغبةً فى العيش معرفتى ... ذلَّ اليتيمة يجفوها ذَوُو الرحم
أخشَى فظاظةَ عمٍّ أو جفاءَ أخ ... وكنتُ أخشى عليها من أذَى الكلم
إذا تذكرْتُ بنتى حينَ تندُبنى ... جرت لعبرةِ بنتى عبرتى بدَم
تهْوى بقائى وأهوى موتها شفَقًا ... وَالموتُ أكرمُ نزّال على الحُرَم

وهذه ألفاظٌ — كما سمعتَ — فى عذوبة الماء الزُّلال ، ومعانٍ أرق من السحر الحلال .

ومما يستحسن له قوله :

تخلَّى بِهَمٍّ فى الفؤاد دَخيل ... وأقلقه عزْمُ النوى برَحيل
وأبدى له وَجــهَ المنية بَغتةً ... صدُود حبيب وانحرافُ خليل
وساوَرَه سُقْمٌ وأسهده هــوى ... ورَوْحة واش وابتكارُ عذُول
وأسلمه صبر وبان عــزاؤه ... فصُودف حيًّا فى عِيانِ قتيل
ترى لاطِّراد الدمع فى صحن خده ... أخاديدَ شُقَّت باستنان هَمول[٣]
على بِدْعة لمــا يَرى الله خلقَه ... فصوَّره قــرداً بغــير مثيل
تبدَّى كبدْر لم يمرَّ ببُرْجه ... خسوفٌ ولم يكدر غداةَ أفول[٤]
أماتَ قلوبًا واستمال بأنفس ... تكشَّفنَ منه عن ذَهاب عقول
خليلىَّ إنى قد رضيتُ قليله ... وإن كنتُ لا أرضَى له بقليل

وهذا نمط كما تراه إنما هو السحر الحلال .

---

(١) فاره : نشيط قوى . (٢) حندس الظلم : شدتها .

(٣) اطراد الدمع : تتابعه . والأخاديد : الشقوق والآثار . والهمول ، أى الدمع لفيضانه وسيلانه . واستنانه : جريانه .

(٤) البرج : الواحد من بروج الفلك . والأفول : الغياب .

ومما يستحسن له قوله :

وصاحبُ السَّوء كالداءِ العَيَاء إذا ... ما حلَّ فى الجسم يجْرى من هنا وهنا
يُبْدِى وُيخبر عن عَوراء صاحبه ... وما يرى عنده من صالح دَفنا
فإن يكن ذا فكنْ منه بمعزَلة ... أو مات هذا فلا تشهد له كفنا

ولمحمد بن يسير حكمٌ كثيرة ، ومواعظُ حسنة . وهو أنعتُ الناس للحيوان والطير والشاء ، وما أشبه ذلك .

٣

أخبار أبى يعقوب الخرَيمى *

وكان من نسل الأتراك .

حدَّثنى إبراهيم بن منصور عن إبراهيم بن الحكم قال :

قلتُ لأبى يعقوب : مديحك لأبى الهَيْذَام(١) ولمحمد بن منصور بن زياد فى حياتهما أجود ، أم مراثيك لهما بعد وفاتهما ؟ فقال : يا مجنون ، أين يقع شعر الندم والرعاية من شعر المودة إذا صادفت الرغبة .

وحدَّثنى المبرد قال : كان الخريمى شاعراً مُفْلِقًا مطبوعًا ، مقتدراً على الشعر . وكان يمدح الخلفاء والوُزراء والأشراف ، فيعطى الكثير : وله فى الغزل مُلح كثيرة ، ومحاسن جمَّة . وهو القائل يفتخر :

ثِقِى بجميل الصبر منى على الدهر ... ولا تثقِى بالصبْر منى على الهَجْر
أصابت فؤادى بعد خمسين حجةً ... عيونُ الظباء العفْر فى البلد القَفْر(٢)

---

* هو أبو يعقوب إسحق بن حسان ، كان متصلا بخريم بن عامر المرى وآ له فنسب إليه . وقيل كان اتصاله بعثمان بن خريم . وأصل أبى يعقوب من مرور الشاهجان صفدى ثم نزل الجزيرة والشام وسكن بغداد .

(١) أبو الهيذام : ابن عامر الخريمى ، كان من فرسان العرب ومن قواد الرشيد على بعض جيوشه .

(٢) العفر من الظباء : القصار الأعناق التى تعلو بياضها حمرة .

ومنهـــا :

ولست بنَظَّار إلى جانب الغِنَى إذا كانت العلياء فى جانب الفقـــر
ولـــكننى مـــرُّ العـــداوة واتر كثير ذُنوب الشعر والأَسَل السُّمْر (١)
رمَيتُ بها أرْكان قيس بْن جحـــدر فطحطحتُها قذْفَ المجانيق بالصخر (٢)
إلاّ إنمـــا أبكى على الشعر أننى أرى كلَّ وَطواط يزاحم فى الشعر
ومن دُونـــه بحـــرٌ وليل يلفـــه فما ظنه بالليل فى لجـــة البحر
إليكم إليكمْ عن لؤَىّ بن غالب فإنّ لؤيًّا لا تبيت على الـــوِتْر
دَعوا الحيةَ النضناضَ لا تعرضوا لهـــا فإنّ المنايا بـــين أنيابها الخضر (٣)

ومما يستحسن له قوله :

ارْضَ لى سوءَ ظنونى وحـــراراتِ أنيـــنى
أنت ما تَصْنع بالهجـ ـر كَفَى سوء ظـــنونى
أوَ ما يكفيـــك أنى بكَ مقطـــوعُ القرين

٤

أخبار أبى العمَيثل *

حدثنى ابن أبى شُبرمة قال :

دخل أبو العميثل على طاهر بن الُحسين (٤) ، وقد جلس للناس ، فقبَّل يدَه ، فقال له طاهر : ما أخشنَ شاربك يا أبا العميثل ! فقال : أيها الأمير ، إنّ شوك القنفذ لا يضر ببُرْثن الأسد . فضَحك طاهر وقال : هذه الكلمةُ

(١) الواتر : الذى يطلب بثأره . والأسل : الرماح ، وأجودها السمراء .
(٢) طحطحتها : فرقتها وكسرتها : يريد « الأركان » . والمجانيق ، جمع منجنيق . قاذفة كانت تقذف بها الحجارة والنيران ، من آلات الحرب قديماً أشبه بالمدافع اليوم .
(٣) النضناض من الحيات : القلق الذى لايلبث فى مكانه لشدته ونشاطه .
* هو عبد الله بن خليد — أو خويلد — مولى جعفر بن سليمان بن على . توفى سنة ٢٤٠ .
(٤) هو ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعى . من كبار الوزراء . وهو الذى وطد الملك للمأمون العباسى . وكانت وفاته سنة ٢٠٧ .

أعجبُ إلىّ من قصيدتك . وأعطاه ألفَ درْهم على قصيدته ، وثلاثة آلاف على كلمته .

وحدّثنى محمد بن أبى يونس قال :

كان أبو العميثل أحدَ شعراء طاهر ، وكان يقدمه ويؤثره ، وإنه وَجدَ (١) عليه فى شىء فجفاه وتركه ؛ فقال :

سأترك هذا البابَ ما دام إذْنه ... على ما أرى حتّى تلينَ قليلا
إذا لم أجِدْ يوماً إلى الإذْن سلّماً ... وجدتُ إلى ترْك المجىء سبيلا

فرجع إليه طاهرٌ . ولم يزل إليه محسناً ما عاش .

ومما يُستحسن من شعر أبى العميثل قوله فى الفَضل (٢) والحسن ، ابنى سهل (٣) يذكرهما معاً :

كأن أشكالَ وَجهِ الحزْم بينهما ... ظِلٌّ تلاقى عليه الشمسُ والقمرُ

وله أيضاً :

قد جارَ والله على جارهِ ... والله قد أوصاه بالجار
حتى متى يا سيدى أنتَ لى ... تمزُج إقبالاً بإدْبار
يا من رأى فيمن رأى قبله الـ ... دينار فى راحة دينار

وهذه أبياتٌ فيها من خفة الوزن ما ترى .

---

(١) وجد عليه : غضب .
(٢) هو ذو الرياستين الفضل بن سهل السرخسى . وزير للمأمون ، مات سنة ٢٠٢ .
(٣) هو أبو محمد الحسن بن سهل . وزير المأمون . وهو والد بوران التى بنى بها المأمون . وكانت وفاته ٢٣٦ .

مقتطفات
من كتاب الكامل
للمبرد
٢١٠ ـ ٢٨٥

المبرد

نشأته وحياته :

فى مدينة البصرة ، وفى غـَدَاة عيد الأضحى من سنة ٢١٠ ، ولد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد ، النحوى اللغوى الأديب الأخبارى المفسِّر .

ويذكرون أنه لقب بالمبرّد لأن أستاذه المازنىّ لما صنف كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجاب بأحسن جواب ، فقال له المازنى : قم فأنت المبرد ، أى المثبت للحق .

وتلقى المبرد النحو واللغة والأدب من شيوخ عصره وأئمة دهره ، كالأصمعى وأبى زيد ، وأبى عـُبيدة ، والجرمى ، والمازنى الذى يقول فيه : « لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازنى » .

وصار يتنقل فى مجالس العلم حتى شهر اسمه ، وذاع صوته ، وكان يدرس للناس كتابَ سيبويه ، فإذا أراد مريد أن يقرأ عليه الكتاب يقول له : هل ركبت البحر ؟ إعظامـًا لكتاب سيبويه وتقديراً له .

ومن تلاميذه أبو إسحاق الزجـَّاج ، وأبو على الصفار ، وابن درستويه ، وأبو الحسن الأخفش .

وكان أبو العباس المبرد زعيمَ البصريين فى الوقت الذى كان فيه أحمد بن يحيى ثعلب زعيمَ الكوفيين . وكان المبرد لبقا فصيحـًا كيِّـسا عالى البيان ، ذا حـُظوة عند الخلفاء والأمراء ، ومن هؤلاء الفتح بن خاقان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر ، ولم يكن أبو العباس ثعلب من ذلك فى شىء ، فأدى ذلك إلى قيام منافسة بينهما أشعل نارها أنصارُ كل من الرجلين .

وقيل للمبرد : قد هجاك ثعلب . فقال : بماذا ؟ فقيل بقوله :

أقسمُ بالمبتسمِ العذب ومـُشتكى الصبّ إلى الصبِّ

لو أخذَ النحوَ عن العرب ما زاده إلا عَمى القلب

فقال المبرد متمثِّلا بقول الشاعر :

يشتمُنى عبد بنى مِسمع فصنتُ عنه النفس والعرْضا
ولم أجبْـه لاحتقارى له مَنْ ذا يَعض ُّالكلب إنْ عضّا

وكان المبرد يقول شعراً وسطًا ، شأن أدباء عصره الذين كانوا يشاركون فى فنون القول . ذكر أنه دخل يومًا إلى المتوكل فقال له : يابصرى ، هل رأيتَ أحسن وجهًا ؟ قال : فقلت : لا ، ولا أسمح راحة ! ثم تجاسرت فقلت :

جهَرَت بحلفة لا أتقيها بِشَك ٍّفى اليمين ولا ارتياب
بأنك أحسنُ الخلفاء وجهًا وأسمح راحتين ولا أحابى
وأنّ مطيعك الأعلى جدوداً ومن عصاك يهوِى فى تباب

فقال لى : أحسنت فى حسن طبعك وبديهتك .

وتوفى المبرد فى بغداد سنة ٢٨٥ .

مؤلفاته :

كان أبو العباس من كبار المؤلفين الذين ألفوا فى فنون شتى . ومن أشهر كتبه « الكامل » ، و « المقتضب » فى النحو ، و « الفاضل والمفضول » ، و « التعازى والمراثى » ، و « معانى القرآن » ، ويعرف بالكتاب التام .

كتاب الكامل :

هو أشهر كتب المبرد وأعظمها قيمة . وكان القدماء يعدون الكامل ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والأمالى لأبى على القالى أصولا أربعة للأدب العربى .

وليس كتاب الكامل كتابَ أدب بالمعنى الفنى الحديث ، ولكنه كتابٌ جامع فى فنون العربية ، يتناول مع الأدب البلاغة والنحو والعروض والتاريخ والأنساب ، بل يستطرد أحيانًا إلى مسائل الفقه والعقائد والتفسير إلى غير ذلك من العلوم الإسلامية .

وطبيعة الاستطراد التى بنى عليها هذا الكتاب جعلت أبوابه مختلفة الفصول غير جارية ٍ على نظام ، ففى الباب الواحد يتنقّل بك المبردُ من شعر إلى خطبة إلى وصية ، إلى مسألة فى النحو ، إلى قضية من قضايا التاريخ . وفى ذلك يقول فى بعض أبواب كتابه : « نذكر فى هذا الباب من كل شىء لتكون فيه استراحة للقارئ وانتقال ينفى الملل ، لحسن موقع الاستطراف ، وتخلط ما فيه من الجد بشىء يسير من الهزل ، ليستريح إليه القلب ، وتسكن إليه النفس » .

وكان ذلك منهج كثير من المؤلفين الأوائل ، يرون فى ذلك ترويحًا للقارئ ، ودفعًا للسأم عنه ، ويظهر ذلك بوضوح فى مؤلفات الجاحظ وثعلب وغيرهما .

وكان المبرد حريصًا على أن يتناول كتابه أقصى ما يمكن جمعه من أمهات مسائل العلوم . يقول فى باب التشبيه : « والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له ، وإنما ذكرنا منه شيئًا لئلا يخلو هذا الكتاب من شىء من المعانى » .

وقد امتاز هذا الكتاب بذكر أخبار الخوارج وأدبهم ، وكأنه كان يرى فى ذلك تمجيداً لقبيلته ، فإن المبرد كان من قبيلة الأزد ، وكان لهذه القبيلة أثر كبير فى محاربة الخوارج وكسر شوكتهم ، ومن هذه القبيلة المهلب بن أبى صُفرة الأزدى وأبناؤه ، وكان للمهلب وولده الفضل الأكبر فى مقاومة هؤلاء الخوارج فاتخذ المبرد من ذكر أخبار الخوارج سلمًا للتنويه بالأزد والأزديين .

وإليك بعض النماذج من هذا الكتاب :

١
مقدمة الكتاب

قال أبو العباس :

هذا كتابٌ ألفناه ، يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف[١] ، ومَثَل سائر ، وموعظة بالغة[٢] ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة .

والنيةُ فيه أنْ نفسر كلَّ ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق[٣] ، وأن نشرحَ ما يعرض فيه من الإعراب شرْحًا شافيًا : حتى يكونَ هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا ، وعن أن يرجعَ إلى أحد فى تفسيره مستغنيًا .

وبالله التوفيقُ والحول والقوة ، وإليه مَفزعُنا[٤] فى دَرْك كل طَلبة[٥] ، والتوفيقُ لما فيه صلاحُ أمورنا من عمل بطاعته ، وعَقْد برضاه[٦] ، وقولٍ صادق يرفعهُ عملٌ صالح ، إنه على كل شىء قدير .

٢
من حكم الأخبار وبارع الآداب

١ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار فى كلام جرَى :

إنكم لَتكثُرون عند الفزَع ، وتقلُّون عند الطمع .

الفزع فى كلام العرب على وجهين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذعر والآخر الاستنجاد والاستصراخ .

(١) مرصوف ، أى محكم الأجزاء جيد البناء .
(٢) بالغة : تنتهى إلى غايتها ، وهى التأثير .
(٣) مستغلق : مبهم .
(٤) المفزع : الالتجاء .
(٥) الطلبة : اسم ما يطلب ويتمنى .
(٦) العقد : التصميم ، والاعتقاد .

٢ — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ألا أخبركُم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالسَ يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقـًا الموطـَّئون أكنافـًا[١] ، الذين يألفون ويـُؤلفون . ألا أخبركـُم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفيهقون[٢] .

٣ — ومما يؤثر من حكيم الأخبار وبارع الآداب ، ما حـُدِّثنا به عن عبدالرحمن ابن عوف ؛ وهو أنه قال :

دخلت يومـًا على أبى بكر الصّديق — رضى الله عنه — فى علته[٣] التى مات فيها ، فقلت له : أراك بارئـًا[٤] يا خليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما إنى على ذلك لشديدُ الوَجع ، ولما لقيتُ منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ من وَجعى ، إنى وليتُ أموركم خيركم فى نفسى فكلكم ورِمَ أنفهُ[٥] أن يكون له الأمرُ من دونه . والله لتتخذُنَّ نضائد الديباج[٦] وستورَ الحرير ، ولتألمنَّ النومَ على الصوف الأذْرَبى[٧] . كما يألمُ أحدُكم النوم على حسك السعدَان[٨] ، والذى نفسى بيده لأنْ يقدَّم أحدُكمْ فتضربَ عنقه فى غير حدّ خيرٌ له من أن يخوضَ غمرَات الدنيا[٩] . يا هادىَ الطريق جرُتْ[١٠] . إنما هو الفجر أو البَجْرُ[١١] !

---

(١) التوطئة : التسهيل : والتمهيد . والأكناف : الجوانب ، أراد لين الجانب .
(٢) الثرثارون : الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق . والمتفيهق : الثرثار .
(٣) العلة : المرض يعتل له الجسم بعد صحة .
(٤) برأ المريض يبرأ ويبرؤ ، وبرؤ يبرؤ ، وبرئ يبرأ : شفى ونقه .
(٥) ورم أنفه : أنف وتكبر .
(٦) نضائد : جمع نضيدة ، وهى الوسائد ، والديباج : الإبريسم ، وهو الحرير ، يريد أنهم ستفتح عليهم المدن ، ويغنمون غنما عظيما .
(٧) الأذربى : المنسوب إلى مدينة أذربيجان ، من بلاد إيران .
(٨) الحسك : الشوك . والسعدان : نبت كثير الشوك .
(٩) المراد بالحد : الحد الدينى كالقصاص . وغمرات الدنيا : مزدحماتها. يحذرهم من انغماسهم فى تيار المطالب الدنيوية .
(١٠) جرت : عدلت عن الطريق المستقيم ولم تهتد إليه .
(١١) يقول : إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء لحقك البجر وهو الشر .

فقلت : خفِّض عليك(١) يا خليفةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنّ هذا يهيضُك إلى ما بك(٢) ، فوالله ما زلتَ صالحًا مصلحًا . لا تأسَ على شيء فاتكَ من أمر الدنيا . ولقد تخلّيتَ(٣) بالأمْر وحدك فما رأيتَ إلاّ خيراً .

٣
وصية أبي بكر

ومما رُوى لنا عنه رضى الله عنه ، حيث عهِدَ عند موته ، وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدُّنيا وأول عَهده بالآخرة ، فى الحال التى يُؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر .

إنى استعملتُ عليكم عُمرَ بن الخطاب ؛ فإنْ برّ وعدَل فذلك علمى به ورَأيى فيه ، وإنْ جارَ وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردتُ ، ولكل امرئ ما اكتسب ، وسيعلمُ الذين ظلموا أى مُنْقَلَب ينقلبونَ .

٤
أول خطبة لعمر

ومما يؤْثَر من هذه الآداب ويقدم قولُ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى أول خطبة خطبها . حدثنا العتبىّ(٤) قال : لم أرَ أقل منها فى اللفظ ، ولا أكثر فى المعنى .

حَمدَ اللهَ وأثنى عليه — وهو أهله(٥) — وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

---

(١) خفض عليك : هون عليك .
(٢) هاضه : كسره بعدما كاد ينجبر .
(٣) تخليت : تفردت .
(٤) هو محمد بن عبد الله ، كان أديباً شاعراً راوية للأخبار ، توفى بالبصرة سنة ٢٢٨ .
(٥) أى أهل للثناء والحمد .

أيها الناسُ ؛ إنه والله ما فيكم أحدٌ أقوى عندى من الضعيف حتى آخذَ الحقّ له ، ولا أضعفُ عندى من القوىّ حتى آخذَ الحق منه !

ثم نزلَ .

٥

رسالة عمر فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى

قال أبو العباس :

ومن ذلك رسالتُه فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ، وهى التى جمع فيها جُمل الأحكام واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد مُحق عنها مَعدلا ، ولا ظالم عن حدودها مَحيصًا(١) . وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس(٢) :

سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهمْ إذا أدْلى إليك(٣) ، فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لانفاذَ له . آسِ(٤) فى الناس بين وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمعَ شريف فى حَيفك(٥) ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادّعى واليمين على من أنْكَر . والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحًا أحلّ حرامًا أو حرم حلالا .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فرجعت فيه عقلك ، وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجعَ إلى الحق ، فإن الحق قديم(٦) ، ومراجعة الحقّ خيرٌ من التمادى فى الباطل .

---

(١) محيصاً : مجيداً ومعدلا .

(٢) هو اسم أبى موسى الأشعرى .

(٣) أدلى الخصم بحجته : أحضرها .

(٤) آس : ساوِ . آساه ، جعله أسوة له .

(٥) الحيف : الجور والظلم .

(٦) أى سابق على الباطل ومتقدم عليه .

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك[١] مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرفِ الأشباهَ والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بينةً أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنّه أنفى للشك ، وأجلى للعمى .

المسلمون عُدولٌ بعضُهم على بعض ، إلاّ مجلوداً فى حَدّ[٢] ، أو مجرَّبًا عليه شهادة زور ، أو ظنينًا[٣] فى ولاء أو نسب ، فإنّ الله تولّى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان .

وإياك والغَلَقَ[٤] والضجر والتأذىَ بالخصوم . والتنكرَ عند الخصومات ، فإنّ الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذُّخر ، فمن صحت نيته وأقبلَ على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تَخَلّق للناس بما يعلم اللهُ أنه ليس من نفسه شانَه اللهُ[٥] . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائنِ رحمته . والسلام .

٦

خطبة لعلى رضى الله عنه

وتحدث ابن عائشة فى إسناد ذكره ، أن عليًّا رضى الله عنه انتهى إليه أن خيلاً لمعاوية ورَدَت الأنبار ، فقتلوا عاملا له يقال له حسان بن حسان ، فخرج مُغضَبًا يجرُّ ثوبه حتى أتى النخيلة[٦] واتبعه الناس ، فرقِىَ رباوة من الأرض[٧] ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعدُ فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله

---

(١) تلجلج : تردد . (٢) أى فى حد من الحدود الشرعية ، كحد الزنى والقذف .
(٣) الظنين : المتهم . (٤) الغلق : سوء الخلق .
(٥) شانه : ضد زانه . (٦) النخيلة : موضع بالعراق .
(٧) الرباوة والربوة : المرتفع عن الأرض .

الذلّ وسِيما الخَسْف[١] ، ودُيِّث بالصَّغار[٢] وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهاراً ، وسرًّا وعلانية ، وقلت لكم : اغزُوهم من قبل أن يَغزوكم ، فوالذى نفسى بيده ما غُزِىَ قومٌ قطّ فى عُقْر دارهم[٣] إلا ذَلّوا ؛ فتخادلتم وتواكلتم ، وثقُل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظِهريًّا ، حتى شُنَّت عليكم الغارات . هذا أخو غامد[٤] قد وردت خيلُه الأنبار وقتلوا حسان بن حسان ، ورجالا منهم كثيراً ونساء . والذى نفسى بيده لقد بلغنى أنه كان يُدخَل على المرأة المسلمة والمعاهَدة[٥] فتنزَع أحجالهما ورُعُثهما ،[٦] ثم انصرفوا موفرين لم يُكلَم منهم أحد كلمًا[٧] . فلو أنّ امرأ مسلمًا مات من دون هذا أسفًا ما كان عندى فيه مَلومًا ، بل كان عندى به جديراً . يا عجبًا كل العجب ، عجب يُميت القلب ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم[٨] ، وفشلكم عَنَ حقكم[٩] ، حتى أصبحتم غَرَضًا تُرمَوْن ولا تَرمون ، ويُغار عليكم ولا تُغيرون ، ويُعصى الله عز وجل فيكم وترضَون . إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء قلتم : هذا أوان قُر وصِرّ[١٠] ، وإن قلت لكم اغزوهم فى الصيف قلتم : هذه حَمَارَّة القيظ[١١]. أنظرنا حتى ينصرم الحر عنا[١٢] ، فإذا كنتم من الحر والبرد تَفرون فأنتم والله من السيف أفَرّ ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طَغَام الأحلام[١٣] ، ويا عقول ربَّات الحِجال[١٤] ، والله لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ،

---

(١) السيما : العلامة . الخسف : الذل .
(٢) ديث بالصغار : ذلل فأصبح ذليلا .
(٣) عقر الدار : وسطها . (٤) غامد : قبيلة من قبائل العرب .
(٥) المعاهدون : من لهم عهد وذمة من أهل الكتاب .
(٦) الأحجال : جمع حجل ، وهو الخلخال . والرعث : جمع رعاث ، والرعاث : جمع رعثة ، وهى القرط . (٧) الكلم : الجرح .
(٨) التضافر : التظاهر والتعاون . (٩) الفشل : الضعف .
(١٠) القر : البرد . والصر : شدة البرد . (١١) حمارة القيظ : شدة حره .
(١٢) ينصرم : ينقطع .
(١٣) الطغام : الأوغاد . الأحلام : العقول .
(١٤) ربات الحجال : النساء . والحجال : الخلاخيل .

ولقد ملأتم جوفي غيظاً ، حتى قالت قريش : ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا رأيَ له في الحرب ! لله درُّهم ! ومن ذا يكون أعلَم بها مني وأشد لها مراساً[١] ؟ فوالله لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيَّفْتُ اليومَ على الستين ، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاع ! (يقولها ثلاثاً) .

فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا وأخي هذا كما قال الله تعالى : « ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي » . فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهينَّ إليه ولو حال بيننا وبينه جَمر الغَضى وشَوك القَتَاد[٢] .

فدعا لهما بخير ثم قال لهما : وأين تقعان مما أريد ؟ ! ثم نزل .

٧

الإيجاز

قال أبو العباس :

من كلام العرب الاختصار المفهم ، والإطناب المفخَّم . وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغنى عند ذوي الألباب عن كشفه ، كما قيل : « لمحةٌ دالَّة » .

وقد يضطر الشاعرُ المفلق ، والخطيب المِصْقَع ، والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلَقُ واللفظُ المستكره ، فإن انعطفت عليه جَنَبَتنا الكلامِ غطتا على عَواره[٣] . وستَرَتا من شَيْنه[٤] . وإن شاء قائلٌ أن يقول بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر ، ومجاورته له أشهر ؛ كان ذلك له . ولكن يُغتفَر السيئ للحسَن ، والبعيد للقريب .

فمن ألفاظ العرب البينة ، القريبة المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرَّصف[٥] قول الحطيئة :

---

(١) المراس : المزاولة والمعالجة .
(٢) الغضى : شجر يذكو جمره . والقتاد : شجر صلب له شوك .
(٣) العوار : العيب . (٤) الشين : العيب .
(٥) الرصف : البناء .

وذاك فتى إن تأته فى صنيعه ... إلى مالــه لا تأته بشفيع

وكذلك قول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعــة أننى ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

وكما قال زهير :

على مُكثريهم حقٌّ من يعتريهم ... وعند المقلينَ السماحة والبذل[٢]

ومما وقع كالإيماء[٣] قول الفرزدق :

ضربَتْ عليك العنكبوتُ بنسجها ... وقضى عليك به الكتاب المنزل

فتأويل هذا أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف ، فقال : « قضى عليك به الكتابُ المنزل » يريد به قول الله تبارك وتعالى : « وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

ومن كلامه المستحسن قوله لجرير :

فهل ضربةُ الرومى جاعلةٌ لكم ... أبًا عن كليب أو أبًا مثل دارم[٤]

ومن أقبح الضرورة وأهجن الألفاظ وأبعد المعانى قوله :

وما مثلُه فى الناس إلا مملَّكاً ... أبو أمه حىٌّ أبــوه يقاربه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة بن عبدالله ابن عُمر بن مخزوم ؛ وهو خال هشام بن عبد الملك فقال : وما مثله فى الناس إلا مملكًا — يعنى بالمملَّك هشامًا — أبو أم ذلك الملّك أبو هذا الممدوح .

ولو كان هذا الكلامُ على وجهه لكان قبيحًا ، وكان يكون إذا وضع الكلامَ فى موضعه أن يقول : وما مثله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملك أبو أم هذا الملّك أبو هذا الممدوح . فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد ، وهجَّنه[٥] بما أوقع

(١) الوغى: الحرب. (٢) المقلون : الذين قل مالهم . (٣) الإيماء: الإشارة .

(٤) عن كليب ، أى بدلا منه ، وكليب من أجداد جرير . ودارم : من جدود الفرزدق . وضربة الرومى : إشارة إلى ما كان فى مجلس سليمان بن عبد الملك وقد أحضر له أربعمائة أسير من الروم ، فدفع سليمان أسيراً منهم إلى جرير ، فأعطاه بنوعبس سيفاً صارماً فأبان رأسه ، ودفع إلى الفرزدق أسيراً فدس إليه بنوعبس فأعطوه سيفاً كهاما فلم يصنع شيئاً . فضحك سليمان وشمتت به بنوعبس .

(٥) التهجين : التقبيح .

فيه من التقديم والتأخير ، حتى كأنّ هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد مع قوله حيث يقول :

تَصرَّمَ منى وُدّ بكر بن وائل وما كان منى ودّهم يتصرّمُ (١)
قوارص تأتيني ويحتقرونها وقد يملأ القَطْرُ الإناءَ فيفعمُ (٢)

وكأنه لم يقع ذلك الكلامُ لمن يقول :

والشيبُ ينهض فى السَّواد كأنه ليلٌ يصيحُ بجانبيه نهار

فهذا أوضح معنى ، وأعرب (٣) لفظ ، وأقرب مأخذ .

وليس لقدم العهد يُفضَّل القائل ، ولا لِحدثان عهد يُهتضَم المصيب (٤) ، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحق .

ومما يفضّل لتخلصه من التكلف ، وسلامته من التزيّد ، وبعده من الاستعانة قولُ أبى حيَّة النميرى :

رَمتني وسِترُ الله بينى وبينها عشيةَ آرام الكِناس رَميمُ (٥)
ألا ربّ يوم لو رمتنى رميتُها ولكن عهدى بالنضال قديم

يقول : رمتنى بطرفها ، وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابًّا لرَميتُ كما رُميت ، وفَتَنيتُ كما فُتنيت ، ولكن قد تطاولَ عهدى بالشباب .

فهذا كلامٌ واضح .

* * *

قال أبو العباس :

وأما ما ذكرناه من الاستعانة فهو أن يُدخل فى الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه ليصحِّح به نظمًا أو وزنًا إن كان فى شعر ، أو ليتذكر به ما بعدَه إن كان فى كلام منثور ، كنحو ما تسمعه فى كثير من كَلام العامة مثل قولهم : ألستَ تسمع ؟ أفهمتَ ؟ أين أنت ؟ وما أشبه هذا .

(١) تصرم : تقطع .
(٢) القوارص : الكلمات المؤذية . القطر : المطر . يفعم : يملأ إلى الغاية .
(٣) أعرب : أبين . (٤) يهتضم : ينتقص .
(٥) آرام الكنائس : موضع . رميم : اسم صاحبته .

وربما تشاغلَ العيُّ بفتل إصبعه ، ومسّ لحيته ، وغيرِ ذلك من بدنه . وربما تنحنح . وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء فى شعره :

مليءٌ ببُهْر والتفات وسُعلة ومَسحة عُثنون وفتل الأصابع (١)

وقال رجلٌ من الخوارج يصف خطيبا منهم بالجبن ، وأنه مُجيد لولا أن الرعبَ أذهلَه :

نحنحَ زيدٌ وسَعَلْ لما رأى وقْعَ الأسل (٢)
وَيْلمِّه إذا ارتجَلْ ثم أطال واحتفل (٣)

* * *

ومما يُستحسنُ لفظه ويستغرب معناه ويحمدُ اختصاره قولُ أعرابى من بنى كلاب :

فمن يَكُ لم يَغْرَضْ فإنى وناقتى بحَجْر إلى أهل الحمى غَرَضان (٤)
تحنُّ فتُبدى ما بها من صبابةٍ وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى (٥)

٨

مما يستحسن ويستجاد

قال أبو العباس :

ومما يُستحسن ويستجاد ، قَولُ أعرابىّ من بنى سعد بن زيد مناةَ بن تميم وكان مُملَّكًا (٦) فنزل به أضياف ، فقام إلى الرحى فطحنَ لهم ، فمرت به زوجته فى نسوةٍ فقالت لهن : أهذَا بعلى ؟ فأعلِمَ بذلكَ فقال :

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . السعلة ، بالضم : السعال . والعثنون : اللحية .
(٢) الأسل : الرماح .
(٣) ويلمه ، أصله ويل لأمه ، يقولونها للشيء يتعجبون منه . احتفل : اجتهد وبالغ فيما أخذ .
(٤) يغرض : يشتاق . حجر : بلد فى اليمامة . والحمى : حمى ضرية ، موضع .
(٥) الأسى : جمع أسوة ، وهوما يتأسى به الحزين . قضانى : قضى على .
(٦) مملك : معقود له على زوجة .

تقول وَصكّت صدرَها بيمينها — أبعليَ هذا بالرَّحى المتقاعس[(١)]
فقلتُ لها لا تَعجَبى وتبيَّنى — بلائى إذا التفّت على الفوارس[(٢)]
ألستُ أردُّ القِرْنَ يَركبُ ردْعَه — وفيه سنانٌ ذو غِرارين يابسُ[(٣)]
إذا هاب أقوامٌ تجشمتُ هَول ما — يَهاب حُمَياه الألدُّ المداعس[(٤)]
لَعمرُ أبيكِ الخيرِ إنى لخادمٌ — لضيفى ، وإنى إن ركبت لفارس[(٥)]

٩

ذو الوجهين

ويروى أن معاويةَ بن أبى سفيانَ لما نَصَبَ يزيدَ لولاية العهد أقعدَهُ فى قُبة حمراء ، فجعل الناسُ يسلمون على معاويةَ ثم يميلون إلى يزيدَ ، حتى جاء رجلٌ ففعلَ مثلَ ذلك ثمّ رجعَ إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تُولِّ هذا أمورَ المسلمينَ لأضعتَها — والأحنفُ جالسٌ — فقال معاوية : مالك لا تقول يا أبا بحر[(٦)] ؟ فقال : أخاف الله إنْ كذبتُ ، وأخافُك إن صدقت ! فقال : جزاك الله عن الطاعة خيراً ، وأمرَ له بألوف .

فلما خرجَ الأحنفُ لقيه الرجلُ بالباب فقال : يا أبا بحر ، إنى لأعلمُ أن شرَّ مَن خلقَ الله هذا وابنه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نَطمعُ فى استخراجها إلا بما سمعت . فقال له الأحنف : ياهذا ، أمسكْ ، فإنّ ذا الوجهين خليقٌ[(٧)] ألا يكون عند الله وجيهاً ! !

---

(١) صكت : ضربت . المتقاعس : الذى يخرج صدره ويدخل ظهره .
(٢) البلاء : الاجتهاد . الفوارس : جمع فارس .
(٣) ركب ردعه : صرع منكوساً رأسه إلى أسفله . الغرار . الحد .
(٤) الحميا : الصدمة . الألد : الذى لا ينثنى عن خصمه . المداعس : المطاعن .
(٥) الخير ، وصف للأب ، وهو مبالغة فى الوصف .
(٦) أبوبحر : كنية الأحنف بن قيس . والأحنف من التابعين ، وكان يضرب بحلمه المثل .
(٧) خليق : جدير .

١٠
لأبى الطمحان القينى

وقال أبو الطمحان القَيْنِىّ :

وإنى مِن القوم الذين هم هُمُ ... إذا مات منهم سيدٌ قام صاحبه
نجــومُ سماء كلـَّما غار كوكب ... بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه(١)
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دُجَى الليل حتى نظم الجَزْع ثاقبه(٢)
وما زال منهم حيث كانوا مسوَّدٌ ... تسير المنايا حيث سارت كتائبه(٣)

١١
أقوال مختارة

قيل لمعاوية : ما النُّبل ؟ قال : الحلم عند الغضَب ، والعفو عند المقدرة .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى . قال : مَن أكل وحدَه ، ومَنَع رِفده(٤) ، وضرب عبدَه . ألا أخبركم بشرّ من ذلكم ؟ مَن لا يُقيل عَثْرَة(٥) ، ولا يقبل مَعذرة ، ولا يَغفرُ ذنباً . ألا أخبركم بشرّ من ذلكم ؟ من يُبغض الناس ويبغضونه .

وقال على بن أبى طالب : مَن لانت كلمته وَجبتْ محبته .

وقال : قيمةُ كل امرئ ما يُحسن .

وقال عمر بن الخطاب : ثلاثٌ يُثبِتن لك الودّ فى صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه .

---

(١) غار الكوكب : غرب .
(٢) الجزع : ضرب من الخرز اليمانى فيه سواد وبياض .
(٣) المسود : السيد . المنايا : جمع منية ، الموت .
(٤) الرفد : العطية .
(٥) أقال العثرة : صفح عن الزلة .

وقال : كفى بالمرء غَيّاً (١) أن تكون فيه خَلَّةٌ من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتىَ مثله ، أو يبدوَ له من أخيه ما يَخفى عليه من نفسه ، أو يؤذىَ جليسه فيما لا يعنيه .

وقال عبد الله بنُ العباس لبعض اليمانية : لكم من السماء نَجمُها ، ومن الكعبة رُكنُها ، ومن السيوف صميمها(٢) . يعنى سُهيلا من النجوم ، والركن اليمانى ، وَصمصامة عمرو بن معد يكرب .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يوماً : مَن أجود العرب ؟ فقيل له : حاتم . قال : فمن شاعرها ؟ قيل : امرؤ القيس بن حُجر . قال : فمن فارسها ؟ قيل : عمرو بن معد يكرب . قال : فأى سيوفها أمضى ؟ قيل : الصَّمْصامة .

وكان معاوية يقول : إنى لا أحمل السيفَ على مَن لا سيفَ معه ، وإن لم تكن إلا كلمةٌ يَشتفى بها مشتف جعلتها تحتَ قَدَمىّ ، وَدبر أذنى(٣) .

وقال بعض الحكماء : مَن أدّبَ ولدَه صغيراً سرّ به كبيراً .

وكان يُقال : مَن أدبَ ولده أرغمَ حاسدَه(٤) .

قال رجلٌ لعبد الملك بن مروان : إنى أريد أن أسر إليك شيئاً . فقال عبدُ الملك لأصحابه : إذا شئتم : فنهضوا ، فأراد الرجلُ الكلامَ فقال له عبد الملك : قِف لا تمدحْنى ، فأنا أعلم بنفسى منك ، ولا تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب ، ولا تغتبْ عندى أحداً . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أفتأذنُ لى فى الانصراف؟ قال له : إذا شئت .

وقال بعض الحكماء : ثلاث لا غُربة معهن : مجانبة الرِّيَب(٥) ، وحُسن الأدب ، وكفّ الأذى .

وقال عَمرو بن العاص لدِهقان نهر تِيرَى(٦) : بمَ ينبُل الرجلُ عندكم ؟

---

(١) الغى : الضلالة .

(٢) الصميم : الخالص .

(٣) دبر أذنه : أى خلفها .

(٤) أرغمه : قهره وأذله .

(٥) الريب : جمع ريبة ، وهى الظنة والتهمة .

(٦) الدهقان : رئيس الإقليم ، وزعيم فلاحى العجم .

قال : بترك الكذب ، فإنه لا يَشرُف إلا مَن يُوثق بقوله . وبقيامه بأمر أهله ، فإنه لا ينبل مَن يحتاج أهله إلى غيره . وبمجانبة الريب ، فإنه لا يعزّ مَن لا يُؤمَن أن يُصادَف على سوأة . وبالقيام بحاجات الناس ، فإنه مَن رُجِيَ الفرج لديه كثرت غاشيته[١] .

وقال بزُر جمْهر : من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان قبلُ وضيعًا ، وبعُد صيته وإن كان خاملا ، وساد وإن كان غريبًا ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان مُقْتِرًا[٢] .

وكان يقال : عليكم بالأدب ، فإنه صاحب فى السفر ، ومؤنسٌ فى الوَحدة ، وجمالٌ فى المحفِل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

١٢

من مختار الشعر

قال رجل يكنى أبا مخزوم[٣] ، من بنى نهشل بن دارم :

إنّا بنى نهشل ، لا ندَّعى لأب ... عنه ولا هو بالأبناء يَشرينا[٤]
إن تُبتدَرْ غايةٌ يومًا لمكرمة ... تلقَ السوابقَ منا والمصلّينا[٥]
وليس يَهلك منا سيدٌ أبدا ... إلا افتلَينا غلامًا سيدًا فينا[٦]
إنى لَمِنْ مَعشر أفنى أوائلهم ... قيلُ الكماة ألا أين المحامونا
لوكان فى الألف منا واحدٌ فدعَوا ... مَن فارسٌ خالهم إياه يَعنونا
ولا تَراهم وإن جلّتْ رزيتهم ... مع البكاة على من ماتَ يبكونا

(١) الغاشية : السؤال والزوار والأصدقاء .
(٢) المقتر : الفقير القليل المال .
(٣) هو بشامة بن حزن النهشلى .
(٤) لا ندعى عنه : لا ننتسب إلى غيره ، ولا نعدل عنه إليه . يشرينا : يبيعنا ، وهو من الأضداد .
(٥) ابتدر الشيء : عجل إليه واستبق ، أصل الغاية غاية السباق ، وأصل السابق أول خيل الحلبة . والمصلى هو الذى يتلوه .
(٦) الافتلاء : الافتطام ، والمعنى رشحناه وهيأناه للرياسة .

إنا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوعِ أنفسَنا ... ولو نُسامُ بها في الأمن أغلينا(١)
إذا الكماة تنحَّوا أن يصيبهمُ ... حَدُّ الظبات وصلْناها بأيدينا(٢)
فرضٌ على مُكثرينا نَيل بذلهم ... والجودُ والبذلُ في طَبع المقلينا

* * *

وقالت أم ثَواب الهِزَّانية ، تعنى ابنها :

ربيته وهو مثلُ الفرخ أعظَمُهُ ... أمُّ الطعام ترى في ريشه زغبا(٣)
حتى إذا آض كالفُحَّال شذَّبه ... أبَّارُه ونفى عن مَتنه الكربا(٤)
أنشا يخرِّق أثوابي ويضربُني ... أبعدَ ستين عندي تبتغي الأدبا
إني لأبصر في ترجيل لِمتــه ... وَخطِّ لحيته في وجهه عَجبا(٥)
قالت له عِرسُه يوماً لتسمعني ... رِفقاً فإن لنا في أمنا أربا(٦)
ولو رأتنيَ في نارٍ مُسعَّرة ... من الجحيم لزادتْ فَوقها حطبا

* * *

وقال أعرابيٌّ من باهلة :

سأُعمِلُ نَصَّ العِيس حتى يكفَّني ... غنى المال يوماً أو غنى الحدثان(٧)
فللموتُ خيرٌ من حياة يرى لها ... على المرء ذى العلياء مَسٌّ هَوان
متى يتكلمْ يلغَ حُكم مَقاله ... وإن لم يقل قالوا عديمُ بيان
كأنَّ الغنى في أهله ، بورك الغنى ... بغير لسانٍ ، ناطقٌ بلسان

* * *

---

(١) نسام : من السوم في البيع ، والاجتهاد في تعيين الثمن . أغلينا : أي وجدنا غلاء الثمن .

(٢) الكماة : جمع كمي ، وهو البطل الشجاع . الظبات : جمع ظبة ، وهى طرف السيف .

(٣) أم الطعام : المعدة . تصفه بكبر البطن . الزغب : صغار الريش .

(٤) آض : صار . الفحال : الذكر من النخيل . شذبه : أزال منه مايحتاج إلى الإزالة . الأبار : مصلح النخيل . متنه : ظهره . الكرب : أصول سعف النخل .

(٥) الترجيل : إصلاح الشعر . واللمة : الشعر المجاور لشحمه الأذن .

(٦) الأرب : الحاجة .

(٧) العيس : الإبل يخالط بياضها شقرة . نصها : ساقها سوقاً شديداً . الحدثان : حوادث الدهر .

وقال الفرزدق ونزل به ذئب فأضافه :

وأطلس عسال وما كان صاحباً	رفعت لنارى موهناً فأتانى(١)
فلما دنا قلت ادن دونك إننى	وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه	على ضوء نار مرة ودخان(٢)
وقلت له لما تكشر ضاحكاً	وقائم سيفى من يدى بمكان(٣)
تعش فإن عاهدتنى لاتخوننى	نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما	أخيين كانا أرضعا بلبان(٤)
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى	رماك بسهم أو شباة سنان(٥)

١٣

من التعصب المفرط

قال رجل من بنى أسد بن خزيمة ، يمدح يحيى بن حيان(٦) :

ألا جعل الله اليمانين كلهم	فدى لفتى الفتيان يحيى بن حيان
ولولا عريق(٧) فى من عصبية	لقلت وألفاً من معد بن عدنان
ولكن نفسى لم تطب بعشيرتى	وطابت له نفسى بأبناء قحطان

وهذا من التعصب المفرط .

وحدثنى شيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم ، أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تميمية !

وسمع رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ولا يذكر أباه ، فعوتب فقال : هذه ضعيفة ، وأبى رجل يحتال لنفسه !

---

(١) الأطلس : الذئب فى لونه غبرة إلى سواد . العسال : الذى يضطرب فى جريه ويهز رأسه . موهناً : نحو نصف الليل .

(٢) أقد : أقطع .

(٣) تكشر : أبدى أسنانه . قائم السيف : مقبضه .

(٤) اللبان : الرضاع ، يقال هو أخوه بلبان أمه ، أى برضاعها .

(٥) شباة السنان : حده .

(٦) كان من رجال اليمن .

(٧) عريق : مصفر عرق .

وحدثني المازنيّ عمن حدثه قال : رأيت رجلاً يطوف بالبيت وأمه على عنقه وهو يقول :

أحمــلُ أمي وهي الحمالة تُرضعني الدرةَ والعُـلاله[١]
ولا يُجازَى والدٌ فَعاله

١٤

من أمثال العرب

قال أبو العباس :

من أمثال العرب « لم يَذهبَ من مالك ما وَعظك » . يقول : إذا ذهبَ من مالك شيء فحذّرَك أن يَحل بك مثلُه فتأديبه إياكَ عوضٌ من ذَهابه .

ومن أمثالهم « رُبَّ عَجلة تهَبُ رَيثًا » . وتأويله أن الرجلَ يعملُ العمل فلا يُحكمه للاستعجال به ، فيحتاج إلى أن يعودَ فينقضَه ثم يستأنفَ .

والريث : الإبطاء . وراث عليه أمرُه ، إذا تأخر .

ومن أمثال العرب « عَش ولا تَغترَّ » . وأصل ذلك أن يَمُرَّ صاحبُ الإبل بالأرض المكلئة[٢] فيقول : أدَعُ أن أعشّي إبلي منها حتى أردَ على أخرى ! ولا يدري ما الذي يَردُ عليه .

وقريبٌ منه قولهم «أنْ ترد الماء بماء أكيس» . وتأويله أن يَمُرَّ الرجلُ بالماء فلا يحمل منه ، اتكالا على ماء آخرَ يصير إليه ، فيقال له : أن تحملَ معك ماءً أحزم لك ، فإنْ أصبتَ ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحملْ فخففت من الماء عَطِبت[٣] .

ومن أمثالهم « قد أحزم لو أعزم » . يقول : أعرفُ وجه الحزم ، فإنْ عزَمت

---

(١) الدرة : سيلان اللبن وكثرته . والعلالة : ماسال من اللبن بعد المرة الأولى .
(٢) أكلأت الأرض : كثر كلؤها ، وهو العشب .
(٣) العطب : الهلاك .

فأمضيتَ الرأىَ فأنا حازم ، وإن تركتُ الصوابَ وأنا أراه وضيعت العزمَ لم ينفعنى حَزْمِى .

١٥

كعب بن مامة وابن سعدى

١ ــ فأما كعب فهو كعب بن مامةَ الإيادىّ ، وكان أحدَ أجواد العرب ، الذى آثرَ على نفسه . وكان مسافراً ورفيقه رجلٌ من النَّمر بن قاسط ، فقل عليهما الماء فتصافنا ــ والتصافن أن يُطرح فى الإناء حجر ثم يُصَب فيه من الماء ما يغمره لئلا يتغابنوا(١) ــ فجَعل النمرى يشربُ نصيبَه فإذا أخذَ كعبٌ نصيبه قال : اسق أخاكَ النمرىّ ، فيؤثره ، حتى جُهِد كعبٌ ورفعتْ له أعلامُ الماء(٢) فقيل له : رِدْ كعبُ ــ ولا ورودَ به ــ فماتَ عَطَشاً . ففى ذلك يقول أبو دُوَاد الإيادى :

أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له ... رِد كعب ، إنك وَراد ، فما وردا(٣)

فضُرب به المثل فقال جريرٌ فى كلمته التى مَدح فيها عمَر بن عبد العزيز :

يعودُ الفضلُ منك على قريش ... وتفرجُ عنهم الكُربَ الشِّدادا
وقد أمَّنتَ وحشَهمُ برفق ... ويُعيي الناسَ وحشُك أن تُصادا
وتَبنى المجدَ يا عُمَرَ ابن ليلى ... وتكفى الممحِلَ السنة الجَمادا(٤)
وما كعبُ بن مامة وابنُ سعدى ... بأجوَد منك يا عُمَر الجوادا
تعوّد صالحَ الأخلاق إنى ... رأيتُ المرء يلزمُ ما استعادا(٥)

هذا كعب بن مامة الذى ذكرناه .

٢ ــ وأما ابن سُعَدَى فهو أوس بن حارثة بن لأم الطائىّ ، وكان سيداً

(١) التغابن : أن يغبن بعضهم بعضا . والغبن : الخداع .
(٢) جمع علم ، وهو الدليل .
(٣) أوفى على الماء : أشرف .
(٤) الممحل : المجدب الذى أصابه المحل . السنة الجماد : التى لم يصبها مطر .
(٥) استعاد الشيء : جعله من عادته .

مقدَّماً ، فوَفَد هو وحاتم بنُ عبد الله الطائىّ على عمرو بن هند — وأبوه المنذر ابن المنذر بن ماء السماء — فدعا أوساً فقال له : أنت أفضل أم حاتم ؟ فقال : أبيتَ اللعن[١] ، لو مَلكنى حاتمٌ وولدى ولُحمتى[٢] لوَهَبَنا فى غداة واحدة .

ثم دعا حاتماً فقال : أنت أفضل أم أوس ؟ فقال : أبيت اللعن ، إنما ذكرت بأوس ، ولأحَدُ ولده أفضل منى !

وكان النعمان بن المنذر دعا بُحلة وعنده وفودُ العرب من كل حىّ ، فقال : احضروا فى غد فإنى مُلبِس هذه الحُلةَ أكرَمكم . فحضر القومُ جميعاً إلاّ أوساً ، فقيل له : لم تخلفت ؟ فقال : إن كان المرادُ غيرى فأجملُ الأشياء ألا أكون حاضراً ، وإن كنت أنا المرادَ فسأطلبُ ويُعرف مكانى . فلما جلسَ النعمانُ لم يَرَ أوساً فقال : اذهبوا إلى أوس فقولوا له : احضرْ آمناً مما خفتَ ! فحضرَ فلبِس الحلة . فحسده قومٌ من أهله فقالوا للحطيئة : اهجهُ ولك ثلثمائة ناقة . فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلاً لا أرى فى بيتى أثاثاً ولا مالاً إلاّ من عنده ؟ ثم قال :

كيفَ الهجاءُ وما تنفكُّ صالحة ... من آل لأمٍ بظَهر الغيب تأتينى[٣]

١٦

البر والعقوق

قيل لعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم : إنك من أبرّ الناس بأمك ، ولسنا نراك تأكلُ مع أمك فى صَحفة ؟ فقال : أخاف أن تسبق يدى إلى ما سبقَتْ عينُها إليه فأكون قد عققتها !

وقيل لعُمر بن ذَرّ حيثُ نُظر إلى تَعزيه بابنه : كيف كان بره بك ؟

(١) تحية كان يحيى بها الملوك فى الجاهلية ، ومعناه أبيت أن تفعل مايستوجب اللعن .

(٢) اللحمة : القرابة .

(٣) بظهر الغيب ، أى من حيث لا يتوقع .

فقال : ما مَشيت بنهار قَط إلا مَشى خلفى ، ولا بليل إلا مَشَى أمامى ، ولا رَقِى سَطحًا وأنا تحته !

وقالوا أبو المخشّ : كانت لى ابنةٌ تجلس معى على المائدة ، فتُبرز كفًّا كأنها طَلعة(١) ، فى ذراع كأنها جُمَّارة(٢) فلا تقعُ عينُها على أكلة نفيسة إلا خصَّتنى بها ، فزوّجتها وصار يجلس معى على المائدة ابنٌ لى فيبرزُ كفًّا كأنها كِرنافة(٣) . فى ذراع كأنها كربة(٤) فوالله إن تسبقُ عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقتْ يدهُ إليها !

وحدثنى الرياشى قال :

مر بنا أعرابى يَنشدُ ابنًا له(٥) فقلنا : صِفْه . فقال : دنينير(٦) . قلنا : لم نَرَه . فلم نلبثْ أن جاء بجُعَل(٧) على عنقه فقلنا : لو سألتَ عن هذا لأرشدناك ما زال منذُ اليوم بين أيدينا !

١٧
من الوصايا

قال أبو العباس :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : علموا أولادكم العوْم والرماية ، ومُروهم فليثبوا على الخيل وثبًا ، ورَوُّوهم ما يَجملُ من الشعر .

ويروى عن الشعبى أنه قال : قال عبد الله بنُ العباس : قال لى أبى : يا بنىّ ، إنى أرى أميرَ المؤمنين قد اختصَّك دون من ترَى من المهاجرينَ والأنصار ،

(١) طلع النخلة : مايبدو فى أول ثمارها كأنه نعلان مطبقان .
(٢) الجمار : شحم النخلة فى جوفها .
(٣) الكرنافة : واحدة الكرناف ، وهو أصول الكرب تبقى فى الجذع .
(٤) الكرب : أصول السعف الغلاظ العراض .
(٥) أى يسأل الناس عنه بعد ماضل .
(٦) مصغر : دينار .
(٧) أى بولد يشبه الجعل . والجعل دابة سوداء شبيهة بالخنفساء تألف الأماكن القذرة .

فاحفظ عنى ثلاثًا : لا يجرِّبن عليك كذبًا ، ولا تغتبْ عنده مسلمًا ، ولا تُفشِينَّ له سرًّا ! قال : فقلت له : يا أبهْ ، كل واحدة منها خيرٌ من ألف . فقال : كل واحدة منها خيرٌ من عشرة آلاف !

١٨

خطبة عبد الله بن الزبير

ويروى أنه لما أتى عبدَ الله بنَ الزبير خبرُ قتل مصعب بن الزبير خطبَ الناس فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال :

إنه أتانا خبرُ قتل المصعب فسُررنا به واكتأبنا له . فأما السرور فلما قُدِّر له من الشهادة(١) وحِيز له من الثواب . وأما الكآبة فلوعةٌ يجدها الحميم عند فِراق حميمه . وأنا والله ما نموتُ حَبَجًا(٢) كمِيتة آل أبى العاصى(٣) ، إنما نموتُ والله قتلا بالرماح ، وقَعْصًا(٤) تحت ظلال السيوف ، فإن يَهلك المصْعبُ فإن فى آل الزبير منه خَلَفًا !

١٩

كرم الطائيين

تحدث رجلٌ من الأعراب قال :

نزلتُ برجل من طيئ فنَحر لى ناقةً فأكلتُ منها ، فلما كان الغد نحرَ أخرى ، فقلت : إن عندكَ من اللحم ما يُغنى ويكفى . فقال : إنى والله لا أطعمُ ضيفى إلا لحمًا عبيطًا(٥) !

قال : وفعل ذلك فى اليوم الثالث ، وفى كل ذلك آكل شيئًا ويأكل الطائى

---

(١) الشهادة : أن يقتل فى سبيل الله .

(٢) الحبج : انتفاخ البطن من طعام أو شراب . يعرض ببنى مروان فى إسرافهم وإمعانهم فى الشهوات ، وأنهم يموتون بالتخمة .

(٣) آل أبى العاص : هم بنو أمية .

(٤) القعص : القتل .

(٥) العبيط : الطرى .

أكلَ جماعة ، ثم نؤتى باللبن فأشرب شيئا ويشرب عامّة الوطب[١] . فلما كان في اليوم الثالث ارتقبتُ غـَفلته فاضطجع ، فلما امتلأ نوما استقتُ قطيعا من إبله فأقبلته الفجّ[٢] ، فانتبـهَ واختصر عليَّ الطريق حتى وقفَ في مَضيق منه ، فألقم وتـَرَهُ فوقَ سهمه[٣] ، ثم نادى بي : لتطبْ نفسك عنها[٤] . قلت : أرني آية . فقال : انظر إلى ذلك الضبّ فإني واضعٌ سهمي في مـَغرز ذنبه . فرماه فأندَر ذنَبه[٥] . فقلت : زدني . فقال : انظر إلى أعلى فـَقاره[٦] . فرماه فأثبتَ سهمه في ذلك الموضع ، ثم قال لي : الثالثة والله في كبدك !!

فقلت : شأنك بإبلك . فقال : كلاّ ، حتى تسوقها إلى حيث كانت !

فلما انتهيت بها قال : فكرت فيك فلم أجدْ لي عندك تـِرَة[٧] تطالبني بها ، وما أحسب الذي حملك على أخذ إبلي إلاّ الحاجة !

قلتُ : هو والله ذاك . قال : فاعمـدْ إلى عشرين من خيارها فخُذْها . فقلت : إذاً والله لا أفعلُ حتى تسمعَ مـَدحك ، والله ما رأيتُ رجلا أكرمَ ضيافةً ولا أهدى لسبيل ، ولا أرمى كفًّا ، ولا أوسع صدراً ، ولا أرغبَ جوفًا[٨] ، ولا أكرَم عفواً منك !

فاستحيا فصرفَ وجهه عني ، ثم قال : انصرف بالقطيع مباركًا لك فيه .

٢٠
من نوادر الأعراب

١ ـ استعمل عـُتبة بن أبي سفيان رجلاً من آله على الطائف ، فظلم رجلا من أزد شـَنوءة ، فأتى الأزدي عـُتبة فمثَل بين يديه فقال :

(١) الوطب : سقاء اللبن يتخذ من الجلد .
(٢) أقبل الإبل الطريق : أسلكها إياه . الفج : الطريق الواسع بين جبلين .
(٣) الفوق ، بالضم : موضع الوتر من السهم .
(٤) يريد : لا أمل لك في أخذها .
(٥) أندره : أسقطه .
(٦) الفقار : عظام الصلب .
(٧) الترة والوتر : الثأر .
(٨) أرغب : أوسع .

أمرتَ مَن كان مظلومًا ليأتيكم ... فقد أتاكم غريب الدار مظلومُ

ثم ذكر ظُلامته ، فقال له عتبة : إني أراك أعرابيًّا جافيًا ، والله ما أحسبك تدرى كم تصلى فى كل يوم وليلة ؟ فقال : أرأيت إن أنبأتك ذلك أتجعلُ لى عليك مسألة ؟ قال : نعم . فقال الأعرابى :

إنّ الصّلاةَ أربعٌ وأربعُ ... ثم ثلاثٌ بعدهن أربعُ

ثم صلاة الفجر لا تضيَّعُ

فقال : صدقتَ فاسأل ، فقال : كم فَقَارُ ظهرك[١] ؟ فقال : لا أدرى . فقال : أفتحكُم بين الناس وأنت تجهلُ هذا من نفسك ؟ فقال : رُدوا عليه غُنَيمته .

٢ ــ وشهد أعرابى عند معاويةَ بشىء كَرِهه ، فقال له معاوية : كذبتَ ! فقال الأعرابىّ : الكاذبُ والله متزمل فى ثيابك[٢] ، فقال معاوية ــ وتبسم : هذا جزاءُ مَن عَجِل !

٣ ــ وقال عثمانُ بن عفانَ لعامر بن عبد قيس العنبرىّ ــ ورآه ظاهرَ الأعرابية : يا أعرابى ، أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد .

٢١

الحسن البصرى

١ ــ وحُدثت أن راهبين دخلا البصرةَ من ناحية الشام ، فنظرا إلى الحسن البصرىّ[٣] فقال أحدُهما لصاحبه : مِلْ بنا إلى هذا الذى كأنّ سَمْته سَمْتُ المسيح[٤] . فعدلا إليه فألفياهُ مفترشًا بذقنه ظاهرَ كفه وهو يقول : يا عجبًا

---

(١) فقار : جمع فقارة ، وهى عظام الصلب .

(٢) المتزمل : الملتف فى الثوب .

(٣) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى ، كان إمام أهل البصرة وعلماً من أعلام النساك ، شجاع القلب . وكان له مع الولاة والخلفاء مواقف مشهودة . لا يخشى معهم فى الله لومة لائم . توفى سنة ١١٠ .

(٤) السمت : هيئة أهل الخير .

لقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم[١] ! فليتَ شعرى ما الذى ينتظرون ؟

٢ — ونظر الحسنُ إلى الناس فى مصلَّى البصرة يضحكون ويلعبون فى يوم عيد ، فقال الحسن : إن الله جعل الصومَ مضماراً لعباده[٢] ليستبقوا إلى طاعته ؛ فسبقَ أقوامٌ ففازوا ، وتخلفَ آخرون فخابوا . ولعمرى لو كشف الغطاء لشُغل محسنٌ بإحسانه ، ومسىءٌ بإساءته ، عن تجديد ثوب ، أو ترطيل شعر[٣] !

٣ — وقال الحسن : نِعم الله أكثرُ من أن تُشكر إلا ما أعان عليه ، وذنوب ابنِ آدم أكثرُ من أن يَسلم منها إلا ما عفا اللهُ عنه .

٤ — وكان الحسن يقول : ليس العجبُ ممن عَطِبَ كيف عَطِب[٤] ، إنما العجب ممن نجا كيف نَجا !

٥ — وكان الحسن يقول : حادثوا هذه القلوبَ فإنها سريعة الدثور ، واقدعوا[٥] هذه الأنفسَ فإنها طُلَعةٌ ، وإنكم إلا تَقدعوها تَنزع بكم إلى شر غاية !

قوله : « حادثوا » مثل ، ومعناه اجلوا واشحذوا[٦] ، تقول العرب : حادثَ فلانٌ سيفه ، إذا جلاه وشحذه . وقال زيد الخيل :

وقد علمتْ سَلامةُ أن سيفى ... كريهٌ كلما دُعيتْ نزَال[٧]

أحادثُه بصقل كلَّ يوم ... وأعجُمه بهامات الرجال[٨]

والدثور : الدروس . يقال : دَثرَ الربعُ ، إذا انمحى . ومعناه تعهدُوها بالفكر والذكر . وقوله : « فإنها طُلعة » ، يقول : كثيرةُ التشوف والتنزى[٩] إلى ما ليسَ لها .

---

(١) يريد أن أولهم رضى فعل آخرهم فلم ينكره عليه .

(٢) أى مسافة معينة يروض الصائمون فيها أنفسهم ليتمكنوا من السبق إلى الطاعة ، وأصل ذلك فى الخيل يجرونها فى مسافة لها غاية مدة أربعين يوماً ، فيذهب ترهلها وتشتد .

(٣) ترطيل الشعر : تليينه بالدهن وما أشبه .

(٤) العطب : الهلاك .

(٥) القدع : الكف والمنع .

(٦) شحذ السكين : جعلها حادة .

(٧) أى قيل : نزال نزال ، وذلك فى الحرب ، يقولونها عند طلب المنازلة ، وهى المطاردة فى الحرب .

(٨) أعجمه بها : أى أجعله يعضها . والهامات : الرءوس .

(٩) التنزى : التوثب .

٦ ــ وقال الحسن مرة : ما حاجةُ هؤلاء السلاطين إلى الشرط ؟ ! فلما ولى القضاء كثر عليه الناسُ فقال : لا بد للناس من وَزَعة[١] !

٧ ــ وكان الحسن يقول : لسانُ العاقل من وراء قلبه ، فإنْ عَرض له القولُ نظرَ فإنْ كان له أنْ يقول قال ، وإن كان عليه القولُ أمسكَ . ولسان الأحمق من وراء قلبه ، فإذا عَرض له القول قال ، كان عليه أوْ له .

٨ ــ وحدثت أن الحسن نظرَ إلى رجل يجود بنفسه فقال : إن امرأ هذا آخرهُ لجديرٌ بأن يُزهَد فى أوله ، وإن امرأ هذا أولهُ لجديرٌ أن يُخاف آخره .

٢٢
بين الحجاج وقطرى بن الفجاءة

كتب الحجاجُ بن يوسفَ إلى قَطَرىّ[٢] :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قطرىّ بنِ الفجاءة . سلامٌ عليك . الموحِّد الله ، والمصلى عليه محمدٌ عليه السلام.

أما بعدُ ، فإنك كنتَ أعرابيًّا بدويًّا تستطعم الكِسرَة ، وتخفُّ[٣] إلى التمرة ، ثم خرجتَ تحاولُ ما ليسَ لك بحقّ ، واعترضتَ على كتاب الله ، ومرقْتَ[٤] من سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فارجعْ عما أنت عليه بما زُين لك ، وادعُنى فقد آنَ لك .

* * *

فكتب إليه قَطَرىّ :

بسم الله الرحمن الرحيم . من قطرىّ بن الفجاءة إلى الحجاجِ بن يوسف .

---

(١) جمع وازع : وهم الولادة المانعون من محارم الله .

(٢) كان من رؤساء الخوارج الأزارقة . خرج فى زمن مصعب بين الزبير وبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة فى أكثرها ، والحجاج بن يوسف يرسل إليه الجيش بعد الجيش فيهزمهم ، عثر به فرسه فمات سنة ٧٨ .

(٣) تخف إلى التمرة : تسرع إليها .

(٤) مرق منها : خرج .

سلامٌ على مَن اتبع الهدى . ذكرتَ فى كتابك أنى كنتُ بدويًّا أستطعم الكِسرة وأبدُرُ إلى التمرة . وبالله لقد قلتَ زُوراً . بل اللهُ بصّرنى من دينه ما أعماكَ عنه ، إذْ أنت سابحٌ فى الضلالة ، غَرِقٌ فى غمَرات الكفر !

ذكرتَ أن الضرورةَ طالت بى ، فهلا بَرزَ لى من حزْبك من نال الشبع ، واتكأ فاتدع (١) . أما والله لئن أبرزَ الله لى صَفحتك(٢) ، وأظهرَ لى صُلْعتك ، لتنكرن شِيعتك ، ولتعلمن أن مُقارَعة الأبطال ، ليسَ كتسطير الأمثال !

٢٣

خطبة الحجاج

وحدثنى التوزىّ فى إسناد ذكره ، آخره عبد الملك بن عُمير الليثى قال : بينا نحنُ فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلُ الكوفة يومئذ ذوو حال حَسَنة ، يخرُج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه ، إذْ أتى آت فقال : هذا الحجاجُ قد قدمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخلَ المسجدَ معتمًّا بعمامة قد غطّى بها أكثرَ وجهه ، متقلداً سيفًا ، متنكبًا قَوسًا(٣) ، يؤم المنبر . فقام الناس نحوَه حتى صَعِد المنبر ، فمكث ساعةً لا يتكلم ؛ فقال الناسُ بعضُهم لبعض : قَبَحَ اللهُ بنى أمية(٤) حيث تستعمل مثلَ هذا على العراق ! حتى قال عُمير بنُ ضابئ البُرجمىّ : ألا أحصِبُه لكم(٥) ؟ فقالوا : أمهِلْ حتى ننظر ! فلما رأى عيونَ الناس إليه حَسرَ اللثام(٦) عن فيه ونهض فقال :

أنا ابنُ جَلاَ وَطلاّعُ الثنايا ... متى أضَع العمامة تعرفونى(٧)

(١) اتدع : صار صاحب دعة ، وهى السعة فى العيش .
(٢) الصفحة : جانب الوجه .
(٣) تنكب القوس : علقها على منكبه .
(٤) قبحهم قبحاً : أقصاهم وأبعدهم من كل خير .
(٥) حصبه : رماه بالحصباء وهى الحصى .
(٦) حسره : كشفه . واللثام : النقاب يوضع على الفم .
(٧) ابن جلا : أى ابن رجل جلا الأمور وكشفها . الثنايا : جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . يريد أنه جلد .

ثم قال :

يأهل الكوفة ؛ إنى لأرى رءوسًا قد أينعتْ وحانَ قطافها ، وإنى لَصاحبُها وكأنى أنظرُ إلى الدماء بين العمائم واللحى .

ثم قال :

هذا أوانُ الشدّ فاشتدى زِيَمْ ... قد لفّها الليل بسَواق حطم[(١)]
ليسَ براعى إبلٍ ولا غنمْ ... ولا بجزار على ظهر وضَمْ[(٢)]

ثم قال :

قد لفَّها الليلُ بعَصْلبى ... أروعَ خرّاج من الدوىّ
مُهاجرٍ ليس بأعرابىّ[(٣)]

وقال :

قد شمرتْ عن ساقها فشدوا ... وجدت الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وترٌ عُردّ ... مثل ذراع البَكر أو أشد[(٤)]
لا بدَّ مما ليسَ منهُ بد

إنى والله يأهلَ العراق ما يُقعقعُ لى بالشنان[(٥)] ، ولا يُغمزَ جانبى كتغماز التين ، ولقد فُررت عن ذكاء[(٦)] ، وفتشتُ عن تجربة ، وإن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — نَثَر كنانته بين يديه[(٧)] ، فعجمَ عيدانها[(٨)] فوجدنى أمرّها عُوداً وأصلَبها مكسِرًا ؛ فرماكم بى ، لأنكم طالما أوْضَعتم[(٩)] فى الفتنة ، واضطجعتم

(١) زيم : اسم ناقته أو فرسه . الحطم : الذى يستنفد كل مجهودها لا يرحمها .
(٢) الوضم : مايقطع عليه اللحم من خشب ونحوه .
(٣) العصلبى : الشديد . الأروع : الذكى . الدوى ، جمع دوية ، وهى الصحراء الملساء لاعلم بها ولا أمارة ، أى أنه يخرج من كل أمر شديد .
(٤) العرد : الشديد . البكر : الفتى من الابل .
(٥) الشنان : جمع شن ، وهو الجلد اليابس . والقعقعة : صوت الجلد اليابس ، كانوا يحركونه لتفزع الإبل . يريد أنه لا يخدع ولا يخوف .
(٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ماسنها . والذكاء : تمام السن ، أى بلوغ السن التى يكمل فيها العقل .
(٧) الكنانة : جعبة السهام .
(٨) عجمها : عضها ليختبر صلابتها .
(٩) الإيضاع : ضرب من السير ، كناية عن سعيهم فى الفساد .

فى مراقد الضلال . والله لأحزمنكم حَزْمَ السلمة(١) ، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رَغداً من كل مكان فكفرَتْ بأنعم الله ، فأذاقها اللهُ لباسَ الجُوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقولِ إلا وفَّيت ، ولا أهمُّ إلاّ أمضيت ، ولا أخلُق إلا فَريت(٢) . وإن أميرَ المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأنْ أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلَّب بن أبى صُفرة . وإنى أقسمُ بالله : لاأجدُ أحداً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربَتُ عنقه .

يا غلام ، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين !

فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَن بالكوفة من المسلمين . سلامٌ عليكم » .

فلم يقلْ أحد منهم شيئاً . فقال الحجاج : اكففْ يا غلام ! ثم أقبل على الناس فقال : أسلمَ عليكم أميرُ المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً ؟ هذا أدبُ ابنِ نِهْيَة(٣) ! أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدبِ أو لتستقيمنّ ! اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ إلى قوله « سلامٌ عليكم » لم يبق فى المسجد أحدٌ إلاّ قال : على أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شيخٌ يرعَشُ كبيراً ، فقال : أيها الأمير ، إنى مِن الضعف على ما ترى ، ولى ابنٌ هو أقوى على الأسفار منى فتقبله بدلاً منى . فقال له الحجاج : نفعلُ أيها الشيخ . فلما ولّى قال له قائل : أتدرى مَن هذا أيها الأمير ؟ قال : لا . قال : هذا عُمير بن ضابئ البرجُمى ، الذى يقول أبوه :

هممت ولم أفعل وكدتُ وليتنى   تركتُ على عثمان تبكى حلائله(٤)

ودخلَ هذا الشيخُ على عثمان مقتولاً فوطئ بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه !

---

(١) السلمة : شجرة شائكة ، إذا أرادوا نزع ورقها حزموها ثم ضربت بالعصا .

(٢) خلق الجلد : قدره لما يريد منه قبل القطع . الفرى : القطع .

(٣) ابن نهية : رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج .

(٤) جمع حليلة ، وهى الزوجة .

فقال . ودُّوه ، فلما رُد قال له الحجاج : أيها الشيخ ! هلا بعثتَ إلى أمير المؤمنين عثمانَ بدلاً يوم الدار[١] ؟! إن فى قتلك أيها الشيخ صَلاحًا للمسلمين ، يا حَرَسى اضربنْ عنقه ! .

٢٤

من أشعار المولدين

قال أبو العباس :

هذه أشعارٌ اخترناها من أشعار المولدين حكيمةٌ مستحسنَة ، يُحتاج إليها للتمثُّل ، لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبات والخطب والكتب :

قال عبدُ الصمد بن المعذل[٢] :

تُكلفنى إذلالَ نفسى لعزّها ... وهان عليها أن أهانَ لتكرَما
تقول سَلِ المعروف يحيى بن أكثم ... فقلت سليه ربَّ يحيى بن أكثما[٣]

وقال بشار بن برد يذكر عُبيدَ الله بنَ قَزْعة :

خليلىّ من كعب أعينا أخاكما ... على دهره ، إن الكريم مُعينُ
ولا تبخلا بُخلَ ابن قَزْعة إنــه ... مخافةَ أن يرجى نداه حزينُ
كأن عُبيد الله لم يَلق ماجداً ... ولم يدر أن المكرمات تكون
فقل لأبى يحيى : متى تدرك العلا ... وفى كل معروف عليك يمين[٤]
إذا جئتَه فى حاجة سَدَّ بابه ... فلم تلقه إلاّ وأنت كمينُ[٥]

وقال إسماعيل بنُ القاسم[٦] :

أطعِ الله بجُهــدك ... عامداً أو دُون جُهدك
أعط مولاك كمــا تط ... لبُ من طاعة عبــدك

---

(١) هو اليوم الذى اقتحموا فيه على عثمان داره وقتلوه .
(٢) شاعر من شعراء الدولة العباسية ، كان خبيث اللسان شديد العارضة .
(٣) أحد القضاة فى الدولة العباسية ، ولاه المأمون قضاء القضاة ، وكان ذا نفوذ عظيم فى الدولة العباسية .
(٤) أبو يحيى : كنية عبيد الله .
(٥) كمين : كامن ، مستتر .
(٦) هو الشاعر المشهور بأبى العتاهية .

وقال محمود[١] :

تَعصى الإله وأنت تُظهرُ حبَّه ... هذا مُحالٌ فى القياس بديع[٢]
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يُحب مطيع

وقال أيضًا :

إنى شكرتُ لظالمى ظُلمى ... وغفرتُ ذاك له على علمى
ورأيته أسدى إلىّ يداً ... لما أبانَ بجهله حلمى[٣]
رجعتْ إساءتهُ عليه وإحـ ... ـسانى فعاد مضاعف الجرم
وغدوتُ ذا أجرٍ ومحمدة ... وغدَا بكسب الظلم والإثم
فكأنما الإحسانُ كانَ له ... وأنا المسيءُ إليه فى الحكم
ما زال يظلمنى وأرحمه ... حتى بكيتُ له من الظلم

أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش لرجل قال له : إنى مررت بقوم من قريش من آل الزبير أو غيرهم يشتمونك شتمًا رحمتك منه . قال : أفسمعتنى أقولُ إلاّ خيراً ؟ قال : لا . قال : إياهم فارحم !

وقال أبو بكر الصديق — رحمه الله — لرجل قال له : لأشتمنك شتمًا يدخل معك فى قبرك ، قال : معكَ والله يدخلُ لا معى !

وقال محمود الوراق :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد ... ومشاهداً للأمر غير مُشاهد
منيتَ نفسك ضلّةً وأبحتها ... طرُقَ الرجاء وهن غيرُ قواصد[٤]
تَصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجى ... دَرَكَ الجنان بها وفوز العابد
ونسيتَ أن اللهَ أخرج آدمًا ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقال الحكمى[٥] للفضل بن الربيع :

ما مِن يد فى الناس واحدة ... كيدٍ أبو العباس مولاها

---

(١) هو محمود بن حسن الوراق ، كان من شعراء الوعظ فى الدولة العباسية ، مات فى عهد المعتصم .
(٢) البديع : المبتدع المستحدث .
(٣) أبانه : أبعده .
(٤) الضلة : الضلال . طريق قاصد : قريب .
(٥) الحكمى : هو أبو نواس .

نام الكرامُ على مضاجعهم ... وسَرَى إلى نفسى فأحياها
قد كنتُ خِفتك ثم أمننى ... من أن أخافك خوفك الله
فعفوتَ عنى عَفوَ مقتدر ... حلت لـه نقمٌ فألغاها

وقال صالح بن عبد القدوس(١) :

إن يكنْ ما به أصبتُ جليلاً ... فذهابُ العزاء فيه أجل
كل آت لاشك آت وذو الجهـ ... ـل مُعنًّى والغمُّ والحزن فضل(٢)

* * *

وأنشدَ منشدٌ من الأبيات المنفردة القائمة بأنفسها :

إذ أنت لم تَعِص الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

ومنها قول ابن وهيب :

وإنى لأرجو الله حتى كأننى ... أرى بجميل الظنّ ما الله صانع

وقال آخر :

ويعرف وجهَ الحزم حتى كأنما ... تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال أشجعُ السلمى :

رأىٌ سَرى وعيونُ الناس راقدةٌ ... ما أخرَ الحزمَ رأىٌ قدم الحذرا

وقال آخر :

فلله منى جانبٌ لا أضيعهُ ... وللَّهْو منى والبطالة جانبُ

وقال آخر :

يَرَى فَلَتَاَت الرأى والرأىُ مقبلٌ ... كأنّ له فى اليوم عَيناً على غد(٣)

* * *

(١) شاعر حكيم ، كان يعظ الناس بالبصرة ، واتهم عند الخليفة المهدى بالزندقة ، فقتله ببغداد سَنة ١٦٠ .

(٢) معنى : متعب . والفضل : الزيادة ، أى ليس جديراً بالمرء أن يحزن .

(٣) يقال : كان الأمر فلتة ، أى فجأة من غير تردد وتدبر . العين : الجاسوس .

وقال عبد الله[١] يعاتب ذا اليمينين[٢] :

مَن مُبْلغٌ عنى الأميرَ رسالةً ... محصورةً عندى من الإنشاد[٣]
كلٌّ المصائب قد تمر على الفتى ... فتهــونُ غيرَ شماتة الُحسّاد
وأظن لى منها لديك خبيئــةً ... ستكون عند الزاد آخرَ زاد
مالى أرى أمرى لديك كأنــه ... من ثِقْله طَودٌ من الأطواد[٤]
وأراك ترْجيــه وتمضى غيره ... فى ساعة الإصدار والإيراد[٥]
الله يعــلم ما أتيتك زائــراً ... مِن ضيق ذات يد وضيق بلاد
لكـــن أتيتك زائرًا لك راجيًا ... بلك رتبةَ الآباء والأجـــداد
بارَتْ مسارعـــتى إليك بطاعتى ... كلَّ البوار وآذنتْ بكَساد
فى الأرض مُنفَسح ورزقٌ واسع ... لى عنك فى غَورى وفى إنجادى[٦]

وقال عبد الله لعلى بن محمد بن جعفر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وكان دعاه إلى نُصرته حين ظهرت المبيضة[٧] فلم يجبه ، فتوعّده علىّ فقال عبد الله :

أعلىُّ إنك جاهلٌ مغرورُ ... لا ظلمةٌ لك لا ولا لك نورُ
أكتبت توعدنى أن استبطأتنى ... إنى بحربك ما حييتُ جـــديرُ
فدَع الوعيدَ فما وعيدُك ضائرى ... أطنينُ أجنحةِ البعوض يَضيرُ
وإذا ارتحلتُ فإن نصرى للألى ... أبواهم المهـــدىُّ والمنصور
نَبتتْ عليـــه لحـــومُنا ودماؤنا ... وعليـــه قُدر سعينا المشكور

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ، كان من رؤساء من أخذ البصرة للمأمون فى أيام الأمين، وكان معاضداً لطاهر بن الحسين فى حروبه .

(٢) ذو اليمينين: هو طاهر بن الحسين ، من كبار الوزراء العباسيين . كان أديباً حكيما شجاعاً ، وهو الذى وطد الملك للمأمون ، فولاه شرطة بغداد ثم جعله والياً على خراسان ، فحدثته نفسه بالاستقلال بها ، وحالت دون ذلك منيته . سمى ذا اليمينين لأنه ضرب بيساره شخصاً بالسيف فقده نصفين . توفى سنة ٢٠٧ .

(٣) محصورة : محبوسة .

(٤) الطود : الجبل العظيم .

(٥) ترجيه : تؤخره . الإيراد أصله الإقبال بالإبل على الماء . والإصدار إرجاعها عنه .

(٦) غار : أتى الغرر . وأنجد : أتى نجداً .

(٧) المبيضة : قوم من أعداء الدولة العباسية ، جعلوا شعارهم بيض الثياب ، مخالفين فى ذلك لشعار بنى العباس ، وهو لباس السواد .

٢٥

الصبر والجزع

قال أبو العباس :

كان ابن شُبرمة(١) إذا نزلتْ به نازلةٌ قال : سحابةٌ ثم تَنقشع(٢) !

وكان يقال : أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة ، وكتمان الصدقة ، وكتمان الفاقة(٣) ، وكتمان الوجع .

قال عمر بنُ الخطاب : لو كان الصبر والشكر بَعيرين ما باليت أيهما ركبتُ !

وقال العتبي محمد بن عبيد الله يذكر ابناً :

أضحَت بخدى للدموع رسومُ ... أسفًا عليك وفى الفؤاد كلومُ(٤)

والصبر يُحمد فى المصائب كلها ... إلاّ عليك فإنه مذمومُ

قال أبو العباس : وأحسب أن حبيبًا الطائىّ سمع هذا فاسترَقه فى بيتين : أحدهما قوله فى إدريس بن بدر الشامى :

دموعَ أجابتْ داعىَ الحزن هُمَّع ... تَوصَّلُ منا عن قلوب تَقَطَّعُ(٥)

وقد كان يدعى لابس الصبر حازمًا ... فأصبح يدعى حازمًا حين يَجزع

والآخر قوله :

قالوا الرحيل فما شككت بأنها ... نَفْسِى عن الدنيا تريدُ رحيلا

الصبر أجمل غير أن تلدُّداً ... فى الحب أحْرَى أن يكون جميلا(٦)

---

(١) هو عبد الله بن شبرمة ، أحد قضاة الكوفة فى أيام أبى جعفر المنصور . توفى سنة ١٤٤ .
(٢) تنقشع : تنجلى وتنكشف .
(٣) الفاقة : الفقر والحاجة .
(٤) الكلوم : الجراحات ، جمع كلم .
(٥) همعت العين : أسالت الدمع . همع : جمع هامعة . تقطع : أى تتقطع .
(٦) التلدد : أن يتحير متلبداً ، يتلفت يميناً وشمالا . أحرى : أجدر .

٢٦
المغيرة وهند بنت النعمان

كان المغيرة بن شُعبةَ وهو والى الكوفة صار إلى دَير هند بنت النعمان بن المنذر ، وهى فيه عمياءُ مترهبة ، فاستأذن عليها فقيل لها : أمير هذه المدرَة[١] بالباب . فقالت : قولوا له : أمن ولد جبلةَ بن الأيهم أنت ؟ قال : لا . قالت : أفمن ولد المنذر بن ماء السماء ؟ قال : لا . قالت : فمن أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى . قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبًا . قالت : لو كنتَ جئتنى لجمال أو لمال لأطلبتك[٢] ، ولكنك أردت أن تتشرف بى فى محافل العرب فتقول : تزوجتُ ابنة النعمان بن المنذر ، وإلاّ فأى خير فى اجتماع أعورَ وعمياء ؟!

فبعثَ إليها : كيف كان أمركم ؟ فقالت : سأختصر لك الجواب : أمسينا مَساءً وليس فى الأرض عربى إلا وهو يَرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغبُ إليه ونرهبه !

٢٧
خبر صعصعة بن ناجية

رَوَت الرواةُ أن صَعصَعةَ بن ناجية[٣] لما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلم قال : يا رسولَ الله ، إنى كنتُ أعمل عملاً فى الجاهلية ، أفينفعنى ذلك اليومَ ؟ قال : وما عملك ؟ قال :

أضللت ناقتين عشرَاوين[٤] ، فركبتُ جملاً فى بُغائهما[٥] ، فرُفعَ لى

---

(١) المدرة : المدينة . والمدر : المدن والحضر .

(٢) أطلبه : أعطاه ما طلبه .

(٣) هو جد الفرزدق الشاعر .

(٤) العشراء : الناقة مضى لحملها عشرة أشهر : ومدة حمل الناقة سنة . وأضللتها : أى ضلتا منى .

(٥) أى طلبهما .

بيتٌ حـَرِيد[١] ، فقصدته ، فإذا شيخٌ جالس ٌ بفناء الدار ، فسألته عن الناقتين فقال : ما نارهما[٢] ؟ قلت : ميسمُ بنى دارم[٣] فقال : هما عندى، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر .

فجلست معه لتخرجا إلىّ ، فإذا عجوزٌ قد خرجتْ من كِسر البيت[٤] ، فقال لها : ما وضَعت ؟ فإن كان سـَقباً شاركنا فى أموالنا[٥] ، وإن كانت حائلا[٦] وَأدْناها ، فقالت العجوز : وضعتْ أنثى ! فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادها ؟ قلت : إنما أشترى منك حياتها ، ولا أشترى رقها[٧] . قال : فبكم ؟ قلت : احتكم ، قال : بالناقتين والجمل . قلت : فذاك لك ، على أن يبلغنى الجمل وإياها ، ففعلَ .

فآمنت بك يا رسولَ الله ، وقد صارت لى سنة فى العرب على أن أشترى كل موءودة بناقتين عشراوين وجمل . فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة ، فقد أنقذتها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبتغ به وجهَ الله . وإنْ تعملْ فى إسلامك عملا صالحاً تثبْ عليه !

٢٨
معاوية وملك الروم

وحدثنى أحد الهاشميين أن ملك الروم وجهَ إلى معاويةَ بقارورة فقال : ابعثْ إلى فيها من كل شيء . فبعث إلى ابن عباس ، فقال لتملأ له ماء ، فلما وردَ بها على ملك الروم قالَ : لله أبوه ما أدهاه !

---

(١) الحريد : المنفرد .
(٢) النار : الوسم ، كانوا يسمون الإبل بالحديد المحمى ، تجعل كل قبيلة لإبلها علامة خاصة .
(٣) عنى بالميسم الوسم ، وأصل الميسم المكواة التى يوسم بها الحيوان .
(٤) كسر البيت : ما تكسر وتثنى من شقته السفلى التى تلى الأرض .
(٥) السقب : الذكر من ولد الناقة .
(٦) الحائل : ولدها الأنثى ، كنى بالسقب والحائل عن الذكر والأنثى . وأدها : دفنها حية .
(٧) الرق : العبودية والملك .

فقيل لابن عباس : كيف اخترتَ ذلك ؟ فقال . لقول الله عزّ وجلّ : « وَجَعلنا منَ الماء كل شىء حَىٍّ » .

٢٩
التظاهر بالنسك

يُرْوى أنّ عائشة رَحمها الله نظرتْ إلى رجل متماوت فقالت : ما هذا ؟ فقالوا : أحد القراء . فقالت : قد كان عمر بن الخطاب قارئًا فكان إذ قال أسمع ، وإذا مشَى أسرع ، وإذا ضرَب أوجع .

ويروى أن عمر بن الخطاب رحمه الله — نظر إلى رجل مُظهر للنسك ، متماوت ، فخفقه بالدرة[1] وقال : لا تُمت علينا ديننا ، أماتكَ الله !

٣٠
من محاسن الأجوبة

١ — دخل النخار العذرى[2] على معاويةَ فى عَباءة فاحتقرَه ، فرأى ذلك النخارُ فى وجهه فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، ليست العباءة تكلمك إنما يكلمك مَنْ فيها ؛ ثم تكلم فملأ سَمْعه ، ثم نَهض ولم يسأله ، فقال معاويةُ : ما رأيت رجلاً أحقَر أوّلاً ولا أجل آخراً منه !

٢ — ودخل محمدُ بن كعب القُرظىّ على سليمانَ بن عبد الملك فى ثياب رثة ، فقال له سليمان : ما يحملك على لُبس مثل هذه الثياب ؟ فقال : أكرَه أن أقول : الزهدُ ، فأَطرى نفسى[3] ، أو أقولَ : الفقرُ ، فأشكو ربى !

٣ — ويروى أن الحجاج جلسَ لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن

(١) خفقه : ضربه . الدرة : التى يضرب بها السلطانَ .

(٢) هو النخار بن أوس العذرى ، أحد علماء العرب بالأنساب ، كان معاصراً لجميل الشاعر . ولجميل فيه هجاء ذكره صاحب كتاب الأغانى .

(٣) أطراه : أحسن الثناء عليه .

الأشعث ، فقام رجلٌ منهم فقال : أصلحَ الله الأمير ، إن لى عليك حقًّا ! قال : وما حقُّك ؟ قال : سبَّك عبدُ الرحمن يومًا فرَددتُ عليه . قال : من يعلمُ ذلك ؟ قال : أنشد الله رجلاً[١] سمعَ ذاك إلا شهد به ! فقام رجلٌ من الأسراء فقال : قد كان ذاك أيها الأمير . قال : خلوا عنه .

ثم قال للشاهد : فما منعك أن تنكر كما أنكر[٢] ؟ قال : لقديم بُغضى إياك ! قال : ويُخلى عنه لصدقه .

٣١
تكاذب أعرابيين

تكاذب أعرابيان فقال أحدهما : خرجت مرّةً على فرس لى ، فإذا بظلْمة شديدة فيممتها حتى وصلتُ إليها ، فإذا قطعةٌ من الليل لم تنته ، فما زلتُ أحمل بفرسى عليها حتى أنبهتها فانجابت[٣] ! !

فقال الآخر : لقد رميتُ ظبيًا مرةً بسهم ، فعدل الظبيُ يمنةً[٤] فعدلَ السهم خلفه ، فتياسرَ الظبيُ فتياسرَ السهم خلفه ، ثم علا الظبى فعلا السهم خلفه فانحدرَ فانحدر عليه حتى أخذه ! !

٣٢
المبالغة فى الشعر

وحدثت أن امرأة عمرانَ بن حطانَ السَّدوسىّ[٥] قالت له : أمَا حلفتَ أنك لا تكذب فى شعر ؟ فقال لها : أوَ كانَ ذاك ؟ قالت : نعم ، قلتَ :

---

(١) يقال نشدتك الله ، أى سألتك بالله .

(٢) أى تنكر على عبد الرحمن سبه إياى .

(٣) انجابت : انكشفت وزالت .

(٤) يمنة : ناحية اليمين .

(٥) عمران بن حطان من الخوارج الصفرية ، كان خطيباً شاعراً ، وأدرك جماعة من الصحابة فروى عنهم الحديث ، وروى عنه الحديث ، وطلبه الحجاج فهرب إلى الشام ، وطلبه عبد الملك بن مروان فرحل إلى عمان ، وظل ينتقل فى القبائل وضعف عن الحرب فاقتصر على التحريض والدعوة بالشعر ، إلى أن مات سنة ٨٤ .

فكذاك مَجْزأة بن ثـو ر كان أشجعَ من أسامه

أيكون رجلٌ أشجعَ من أسد ؟ فقال لها : ما رأيت أسداً فتح مدينةَ قط ، ومجزأة بن ثور قد فتح مدينة .

٣٣
على بن عبد الله بن العباس

يروى عن على بن أبى طالب رحمه الله أنه افتقدَ عبد الله بنَ العباس رحمه الله فقال : ما بالُ أبى العباس لم يحضر ؟ فقالوا : وُلد له مولود . فلما صلّى علىٌّ رحمه الله قال : امضوا بنا إليه . فأتاه فهنّأه فقال : شكرتَ الواهب ، وبورك لك فى الموهوب ، ما سميته ؟ قال : أو يَجوز لى أن أسميه حتى تسميه ؟ فأمر به فأخرجَ إليه فأخذه وحنّكه[1] ، ودعا له ثم رده إليه وقال : خذه إليك أبا الأملاك قد سميته عليًّا وكنيته أبا الحسن . فلما قام معاوية قال لابن عباس : ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد . فجرَتْ عليه .

وكان على سيداً شريفًا بليغًا ، وكان له خمسمائة أصل زيتون ، يصلى فى كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يُدعى « ذا الثفِنات[2] » .

٣٤
من أخبار حسان

عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارىّ يُسنده قال :

كانت وليمةٌ فى أخوالنا — وهم حىٌّ يقال لهم بنو نُبيط من الأنصار — فحضر الناس ، وجاء حسان بن ثابت وقد ذهب بصرُه ، ومعه ابنه عبد الرحمن

(١) حنك الصبى : مضغ تمراً أو غيره فدلك به حنكه .
(٢) الثفنة : الركبة ، ومجمع الساق والفخذ .

يـَقـْرده ، فلما وُضع الطعام وجىء بالثريد قال حسان لابنه : يا بنى : أطعامُ يد أم طعام يدين ؟ فقال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جىء بالشواء فقال : أطعام يد أم طعام يدين ؟ قال : طعام يدين . فأمسك ، وفى المجلس قـَينتان(١) تغنيان بشعر حسان :

انظر خليلى بباب جـِلقَ هلْ ... تـُؤنس دون البلقاء من أحد(٢)

وحسان يبكى ، يـَذكر ما كان فيه من صحة البصر والشباب ، وعبد الرحمن يومئ إليهما : أن زيدا !

قال أبو زيد فلأعجبـَنى ، ما أعجبه من أن تبكيا أباه !

يقول : عجيب ، ماالذى اشتهى من أن تبكيا أباه ؟

٣٥
كل كريم طروب

وحدثت أنّ معاويةَ قال لعمرو : امض بنا إلى هذا الذى قد تشاغلَ باللهو ، وَسـَعى فى هـَدم مروءته حتى ننعى عليه — أى نعيبَ عليه — فعله . يريد عبد الله ابن جعفر بن أبى طالب . فدخلا عليه وعنده « سائبُ خاثر(٣) » ، وهو يلقى على جوار لعبد الله ، فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية ، فرفع معاويةُ عَمرًا فأجلسه إلى جانبه ، ثم قال لعبد الله : أعـِدْ ما كنتَ فيه . فأمر بالكراسى فألقيتْ ، وأخرجَ الجوارى ، فتغنى سائبٌ بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التى كادتْ ونحن على منًى ... تحـُلُّ بنا لولا نـَجاء الركائب(٤)

---

(١) القينة : الجارية المغنية .

(٢) جلق : دمشق أو قرية من قراها . تؤنس : تبصر . والبلقاء ، موضع قريب من دمشق .

(٣) سائب خاثر ، بالإضافة . وهو أحد المغنين فى أيام الدولة الأموية .

(٤) تحل بنا : تجعلنا نحل . النجاء : الإسراع . نجا ينجو : أسرع .

ومثلك قد أصبيتُ ليست بكَنّة | ولا جارة ولا لِحليلة صاحب(١)

ورده الجزارى عليه ، فحرك معاويةُ يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجليه فجعل يضرب بهما وجهَ السرير ، فقال عمرو : اتئدْ يا أمير المؤمنين ؛ فإن الذى جئتَ لتلحاه(٢) أحسنُ منك حالاً وأقل حركة !

فقال معاوية : اسكتْ لا أبالك ! فإن كل كريم طروب !

٣٦
واوات معبد

وحدثتُ أنّ مدنيًّا كان يصلى مذْ طلعت الشمس إلى أن قاربَ النهارُ أن ينتصف ، ومن ورائه رجلٌ يتغنى ، وهما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا رجلٌ من الشرَط قد قبض على المغنى ؛ فقال : أترفعُ عقيرتك(٣) فى مسجد رسول الله ؟ فأخذه ، فانفتل(٤) المدنى من صلاته فلم يزل يَطلب إليه فيه حتى استنقذه ، ثم أقبلَ عليه فقال : أتدرى لمَ شَفعْتُ فيك ؟ قال : لا ، ولكنى إخالك رحمتنى . قال : إذاً فلا رحمنى الله ، قال : فأحسبك عرفت قرابة بيننا . قال : إذًا فقطعها الله . قال : فليدٍ(٥) تقدمتْ منى إليك . قال : لا والله ، ولا عرَّفتك قبلها .

قال : فخبرنى . قال : لأنى سمعتك غنيتَ آنفًا فأقمتَ واوات معبد ، أما والله لو أسأتَ التأدية لكنتُ أحدَ الأعوان عليك .

والصوت الذى يُنسب إلى واوات معبد(٦) شعر الأعشى الذى يعاتب فيه يزيد بن مُسهر الشيبانى ، وهو قوله :

---

(١) أصباها : دعاها إلى الصبا وفتنها . الكنة : امرأة الابن أو الأخ . الحليلة : الزوجة .

(٢) يلحاه : يلومه .

(٣) العقيرة : صوت المغنى والقارئ والباكى .

(٤) انفتل : انصرف .

(٥) اليد : النعمة .

(٦) معبد : نابغة من نوابغ الغناء العربى فى صدر الإسلام ودولة بنى أمية . توفى سنة ١٢٦ .

هريرةَ ودعها وإن لام لائمٌ غداةَ غد أم أنت للبين واجم(١)
لقد كان فى حولٍ ثواءٍ ثويته تُقضى لباناتٌ ويسأم سائم(٢)

٣٧
الاستجمام

قال أبو العباس :

نذكر فى هذا الباب من كل شىء شيئًا ؛ لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال يُنْفى الملل ، لحسن موقع الاستطراف . ونخلط ما فيه من الجدّ بشىء يسير من الهزل ؛ ليستريح إليه القلبُ ، وتسكنَ إليه النفس .

قال أبو الدرداء رحمه الله : إنى لأستجم(٣) نفسى بالشىء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق .

وقال على بن أبى طالب رحمه الله : القلب إذا أكره عَمِى .

وقال ابن مسعود : القلوب تَمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .

وقال أردَشيرُ بن بابَك : إن للآذان مَجة(٤) ، وللقلوب مَللا ، ففرّقوا بين الحكمتين يكنْ ذلك استجمامًا .

وكان أنوشِروان يقول : القلوبُ تحتاج إلى أقواتها من الحكمة كاحتياج الأبدان إلى أقواتها من الغذاء .

وقال عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه يومًا : يا أبت ، إنك تنام نومَ القائلة(٥) ، وذو الحاجة على بابك غيرُ نائم ! فقال له : يا بنى ؛ إن نفسى مطيّتى ، فإن حملت عليها فى التعبَ حسرتها(٦) .

---

(١) البين : الفرقة والبعد . واجم : مطرق من الحزن .
(٢) الثواء : الإقامة . اللبانة : الحاجة . يسأم سائم ، أى لا تقضى لباناته فيسأم .
(٣) أستجم نفسى : أريحها . والجمام : الراحة .
(٤) أرد بالمجة السأم : وأصل المج أن يرمى الماء ونحوه من فيه .
(٥) القائلة : نصف النهار .
(٦) حسر الدابة : ساقها حتى أعياها .

٣٨
أعرابىّ ورجل من باهلة

وحُدثت أن أعرابيًّا لقى رجلاً من الحاجّ ، فقال له : ممن الرجل ؟ قال : باهِلىّ . قال : أعيذك من ذلك ! قال : إى والله(١) وأنا مع ذلك مولى لهم .

فأقبل الأعرابى يقبل يديه ويتمسَّحُ به ، قال له الرجل : ولمَ تفعلُ ذاك ؟ قال : لأنى أثق بأن الله عزّ وجل لم يبتلكَ بهذا فى الدنيا إلاّ وأنتَ من أهلِ الجنة!

٣٩
وجوه التشبيه

وأعلم أنّ للتشبيه حدًّا ، فالأشياء تَشابهُ(٢) من وجوه ، وتباينُ من وَجوه ؛ فإنما يُنظر إلى التشبيه من حيث وقع . فإذا شُبه الوجهُ بالشمس فإنما يُراد الضياءُ والرونق ، ولا يُراد العظم والإحراق . قال الله عزّ وجلّ : « كأنهن بَيضٌ مكنونٌ »(٣) .

والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاءه ونَعمة لونه . قال الراعى :

كأن بيضَ نعام فى مَلاحفها إذا اجتلاهن قيظٌ ليلهُ ومدُ(٤)

وقيل للأوسية — وهى امرأة حكيمة من العرب — بحَضْرة عمرَ بن الخطاب رحمه الله : أى َمنظر أحسن ؟ فقالت : قصور بيض فى حدائقَ خضر . فأنشد عمرُ بن الخطاب لعدىّ بن زيد :

كدُمى العاج فى المحاريبَ أو كال بيض فى الروض زَهْرُه مستنير(٥)

(١) أى : نعم .
(٢) أى تتشابه ، حذف احدى التاءين .
(٣) مكنون : مستور محفوظ .
(٤) الملاحف : جمع ملحف ، وهو الثوب يلبس فوق سائر الثياب . اجتلاهن : أبرزهن. الومد : الشديد الحر .
(٥) الدمى : جمع دمية ، وهى التمثال . المحاريب : جمع محراب .

وقال الآخر :

كالبَيْض فى الأدْحِىّ يلمع بالضحى ... فالحسْنُ حسنٌ والنعيم نعيم[١]

وقال جرير :

ما استوصفَ الناسُ عن شىء يروقهم ... إلا رأوا أمَّ نوح فوق ما وصفوا[٢]
كأنهــا مُزنــةٌ غـرّاء رائحــة ... أو درّةٌ لا يوارى لونَها الصدفُ

المزنة : السحابة البيضاء خاصة ، وجمعها مُزْن . قال الله عزّ وجل : « أأنتمْ أنزلتموهُ منَ المزْن » . فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها[٣] وسهولة مَرها .

قال الأعشى :

كأن مِشْيتَها من بَيت جارتها ... مَرُّ السحابة لا رَيثٌ ولا عجَلُ

الريث : الإبطاء . فهذا ما تلحقه العينُ منها . فأما الخفة فهى كأسرع مارّ وإنْ خفى ذلك على البصر . قال الله عزّ وجل : « وتَرَى الجبالَ تَحسبها جامدةً وَهى تَمر مَرَّ السحاب » .

والعرب تشبه المرأةَ بالشمس ، والقمر ، والغصن ، والغزال ، والبقرة الوحشية ، والسحابة البيضاء ، والدرة ، والبيضة . وإنما تقصد من كل شىء إلى شىء .

٤٠
أنواع التشبيه

والعربُ تشبّه على أربعة أضرب فتشبيه مُفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقُوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام .

فمن التشبيه المفرِط المتجاوز قولهم للسخى : هو كالبحر ؛ وللشجاع : هو كالأسد ؛ وللشريف : سما حتى بلغ النَّجم ؛ ثم زادوا فوق ذلك ، فمن ذاك قولُ

---

(١) الأدحى : الموضع تبيض فيه النعامة .
(٢) أم نوح : زوجة جرير . ونوح ولده .
(٣) التهادى : مشية فيها تمايل .

بعضهم ، وهو بكر بن النطَّاح ، يقوله لأبى دُلَف القاسم بن عيسى :

له هممٌ لا منتهــى لكبارها وهمتُه الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحةٌ لو أن معشارَ جودها على البر صار أندى من البحر (١)
ولو أن خلْق الله فى مَسْك فارس وبارزَه كان الخلىَّ من الْعُمْر (٢)

ومن عجيب التشبيه فى إفراط ، غيرَ أنه خرجَ فى كلام جيد وعُنِىَ به رجلٌ جليل ، فخرجَ من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ، ثم جعل ، بجودة ألفاظه ، وحسن رَصْفه ، واستواء نظمه ، فى غاية ما يستحسن ، قول النابغة يعنى حسنَ ابنَ حذيفة(٣) :

يقولون : حصن ! ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبالُ جنوح (٤)
ولم تلفظ الموتى القبور ، ولم تزُل نجوم السماء ، والأديم صحيح (٥)
فعمَّا قليل ، ثم جاء نَعِيُّه فظل ندِىّ الحى وهو يَنوح (٦)

ومن التشبيه القاصد الصحيح ، قولُ النابغة :

وَعيدُ أبى قابوسَ فى غير كنهه أتانى ودونى رَاكِسٌ فالضواجع (٧)
فبتّ كأنى ساورتنى ضئيلة من الرُّقْش فى أنيابها السم ناقع (٨)
يسهد من نوم العشاء سَليمُها لحلى النساء فى يديه قعاقع (٩)

فهذه صفة الخائف المهموم .

---

(١) الراحة : الكف . المعشار : العشر . أندى . أكثر ندى وكرما .
(٢) المسك : بفتح الميم ، الجلد . خلا من العمر : مات .
(٣) يعينه : يقصده ، أى بالمدح .
(٤) جنوح : (جمع جانح) وهو الثابت القائم الماثل ، أى كيف يموت حصن والجبال حالها ثابتة . تأبى نفوسهم أن يخبروا بموته إعظاماً له .
(٥) تلفظها : تخرجها . الأديم ، الجلد ، يعنى أديم السماء ، وهوظاهرها .
(٦) الندى : مجلس القوم .
(٧) أبوقابوس : كنية النعمان . الكنه : الحقيقة . راكس والضواجع . موضعان .
(٧) ساورتنى : واثبتنى ، الرقش : جمع أرقش ورقشاء ، وهى الحيات فيها نقط سوداء وبياض . ناقع : ثابت مجتمع .
(٩) يسهد : يؤرق . السليم : الملدوغ ، سمى بذلك تفاؤلا .

ومثل ذلك قول الآخر :

تَبِيتُ الهموم الطارقات يَعُدْنَنى   كما تعترى الأوصاب رأسَ المطلَّق[١]

و « المطلق » : الذى ذكره النابغة فى قوله :

* تطلقه طوراً وطوراً تراجع *

وذلك أن المنهوسَ إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُوأسَ من برئه . وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لوعة فى إثر لوعة ، والخائف لا ينام ، فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد . وقوله : « لحلى النساء فى يديه قعاقع » لأنهم كانوا يعلقون حلى النساء على الملدوغ ، يزعمون أن ذلك من أسباب البرء ، لأنه يسمع تقعقعها فيمنعه النومَ ، فلا ينام فيدب فيه السم ؛ ويسهد لذلك .

وقال الآخر :

كأن فجاجَ الأرض وهى عريضة   على الخائف المطلوب كفَّةُ حابل

يُؤتَّى إليــه أن كل ثنية   تَيمَّمَها تَرمى إليه بقاتل[٢]

يقال لكل شىء مستطيل كُفة ، يقال كُفة الثوب لحاشيته ، وكفة الحابل إذا كانت مستطيلة . ويقال لكل شىء مستدير كِفَّة ، ويقال : ضَعه فى كفة الميزان . فهذا جُملة هذا ، وكفة الحابل يعنى صاحب الحبالة التى ينصبها للصيد .

وأما التشبيه البعيد الذى لا يقوم بنفسه فكقوله :

بل لو رأتنى أختُ جيراننا   إذ أنا فى الدار كأنى حمارْ

فإنما أراد الصحة : فهذا بعيد ، لأن السامع إنما يستدلّ عليه بغيره . وقال الله جلّ وعزّ — وهذا البين الواضح — : « كمثل الحمار يَحمِلُ أسفاراً » . والسِّفْر : الكتاب . وقال : « مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثم لَم يَحملوها كمثل الحمار » فى أنهم قد تعاموا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها ، حتى صاروا كالحمار الذى يحملُ الكتبَ ولا يعلم ما فيها .

---

(١) الأوصاب : الأمراض والأوجاع .

(٢) يؤتى إليه : يخيل إليه . الثنية : الطريق فى الجبل . تيممها : قصدها .

والتشبيه — كما ذكرنا — من أكثر كلام الناس . وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم وعن أصل أخذوه ، أن شبهوا عينَ المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنفَ بحد السيف ، والفمَ بالخاتم ، والشعرَ بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجُمَّار(١) . فهذا كلامٌ جار على الألسن .

* * *

والتشبيه كثير ، وهو بابٌ كأنه لا آخرَ له ، وإنما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلوَ هذا الكتاب من شيء من المعاني .

٤١

طرائف

باب تجتمع فيه طرائف من حسن الكلام وجيد الشعر وسائر الأمثال ومأثور الأخبار ، إن شاء الله :

١ — كان الحجاج بن يوسف يَستثقل زيادَ بن عمرو العَتَكيّ ، فلما أثنت الوفودُ على الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاجُ حاضر ، قال زيادُ بن عمرو : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج سيفك الذى لا يَنبو(٢) ، وسهمك الذى لا يَطِيش ، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومةُ لائم !

فلم يكن أحدٌ بعد أخفَّ على قلب الحجاج منه .

٢ — وقال أسماء بنُ خارجة الفزارى : لا أشاتم رجلا ، ولا أرد سائلا ، فإنما هو كريمُ أسد خلته(٣) ، أو لئيم أشترى عرضى منه .

٣ — وقال سهل بن هارون : يجب على كل ذى مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها(٤) .

---

(١) الجمار : قلب النخلة .

(٢) ينبو : يكل ، أو لا يصيب الضربة .

(٣) الخلة ، بفتح الخاء : الحاجة والفقر .

(٤) أى كما وهبه الله له النعمة قبل أن يفعل ويستحق النعمة .

وكان يقول عند التعزية : التهنئة بآجل[١] الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة .

٤ ــ وأراد رجل الحجّ فأتى شعبة بنَ الحجاج[٢] يودعه ؛ فقال له شعبة : أما إنك إن لم تر الحلمَ ذلاً ، والسفهَ أنفًا[٣] ، سلِم لك حجّك .

٥ ــ وقال أوَيس القرنيّ : إن حقوق الله لم تترك عند مُسلم درهمًا !

٦ ــ وقال دعبلٌ الخُزَاعيّ يذم رجلاً :

رأيت أبا عِمرانَ يبذل عِرْضَه   وخُبز أبي عمرانَ في أحرز الحرْزِ

٧ ــ وقال آخر :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم   واستوثقوا من رِتاج الباب والدار[٤]
لا يَقبِس الجارُ منهم فَضل نار   ولا تُكفّ يد عن حرمة الجار[٥]

٨ ــ وقال رجل من طيئ ، وكان رجلٌ منهم يقال له « زيد » من ولد عُروة ابن زيد الخيل ، قتل رجلاً من بني أسد يقال له « زيد » ثم أقيد به[٦] بعد :

علا زيدُنا يوم الحمى رأس زيدكم   بأبيضَ مصقول الغِرَار يمانِ[٧]
فإن تقتلوا زيداً بزيد فإنما   أقادكم السلطان بعد زمان

٩ ــ وقال الحجاج : البخل على الطعام أقبح من البرص على الجسد .

١٠ ــ وقال زياد : كفى بالبخيل عاراً أن اسمَه لم يقع في حَمد قطّ ، وكفى بالجواد مَجْداً أن اسمَه لم يقع في ذمّ قطّ .

١١ ــ ويروى أنّ ضيفًا نزل بالحطيئة وهو يرعى غنماً له ، وفي يده عصًا ، فقال الضيف : يا راعيَ الغنم . فأومأ إليه[٨] الحطيئة بعصاه وقال : عَجراء من

---

(١) الآجل : المتأخر .
(٢) شعبة : أحد كبار المحدثين ، سمع من أربعمائة من التابعين ، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث .
(٣) السفهاء يرون السفاهة مما تقتضيه الأنفة ، أي الاستنكاف .
(٤) الرتاج : مايغلق به الباب .
(٥) قبس النار : أخذها . الفضل : الزيادة .
(٦) أقيد به : قتل به .
(٧) أبيض ، يعني سيفاً ، الغرار : حد السيف . يمان : من صنع اليمن .
(٨) أومأ : أشار .

سَلَم(١) . فقال الرجل : إنى ضيف . فقال الحطيئة : للضيفان أعددتُها .

١٢ — وقال دعبل :

أضياف سالم فى خفْضٍ وفى دعة ... وفى شراب ولحم غير ممنوع
وضيف عمرو وعمرٌو يسهران معًا ... عمرو لبِطْنَتِه والضيف للجوع

وقال :

ما يَرحل الضيف عنى بعد تكرمة ... إلا بِرِفد وتشييع ومعــذرة(٢)

وقال :

لم يطيقوا أن يسمعوا وسمعنــا ... وصبرنا على رَحى الأسنان
صوتُ مضغ الضيوف أحسنُ عندى ... من غناء القِيان بالعيدان(٣)

١٣ — وقال جرير :

إن الذى حَرَمَ الخلافة تغلبًا ... جعل الخلافة والنبوة فينــا
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... ياخُزر تغلبَ من أب كأبينا(٤)
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلى قطينا(٥)

قال أبو العباس : حدثنى عُمارة بن بلال بن جرير : لما بلغ الوليدَ قوله :

هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفــة ... لو شئتُ ساقكم إلى قطينا

قال الوليد : أما والله لو قال : « لو شاء ساقكم » لفعلت ذاك به ، ولكنه قال : لو شئت ، فجعلنى شُرطيًّا له !

---

(١) عجراء : ضخمة غليظة ، أو التى فيها عقد . السلم : نوع من الشجر .

(٢) الرفد : العطاء . المعذرة : الاعتذار .

(٣) القيان : جمع قينة ، وهى الأمة المغنية .

(٤) خزر : جمع أخزر ، وهو الضيق الجفون .

(٥) القطين : الخدم والمماليك . ويقال : جاء القوم بقطينهم ، أى بأجمعهم .

٤٢
من أخبار الخوارج

١ ـ قال أبو العباس :

والخوارج[١] فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ومن ذى المعصية الظاهرة .

وحُدثت أن واصلَ بن عطاء أبا حذيفة أقبلَ فى رفقة[٢] فأحسوا الخوارجَ فقال واصلٌ لأهل الرفقة : إنّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودعونى وإياهم ـ وكانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا : شأنَك . فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلامَ الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرْناكم . قال : فعلمونا. فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول : قد قبلت أنا ومن معى . قال : فامضوا مُصاحبين[٣] فإنكم إخواننا . قال : ذلك ليس لكم ، قال الله تبارك وتعالى : « وإنْ أحدٌ منَ المشركينَ استجاركَ فأجرْه حتى يسمع كلامَ الله ثم أبلغه مأمنه » ، فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاكَ لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بلّغوهم المأمن .

* * *

٢ ـ قال أبو العباس :

وكان من حديث عِمران بن حِطان ـ فيما حدثنى العباسُ بن الفرَج الرياشى عن محمد بن سلاّم ـ أنه لما أطرَده الحجاج[٤] كان ينتقل فى القبائل ، فكان إذا نزل فى حىّ انتسب نسباً يقرب منه ، ففى ذلك يقول :

نزلنـــا فى بنى سعد بن زيد ... وفى عـَكّ وعامـــرِ عَـوْبثان
وفى لخـْم وفى أدد بن عمرو ... وفى بكى وحى بنى العـَدَانِ

---

(١) الخوارج : طوائف خارجة على السلطان لهم مذاهب وآراء دينية واجتماعية خاصة .

(٢) الرفقة : الجماعة يرافق بعضهم بعضاً ، أو يصاحبه . وفى الراء ثلاث لغات .

(٣) أى صحبتكم السلامة .

(٤) أطرده : أمر بطرده و إخراجه من البلد .

ثم خرجَ حتى نزل عند روح بن زِنْباع الجُذَامىّ — وكان روحٌ يَقْرِى الأضياف، وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان أثيراً عنده[١] — فانتمى له من الأزد .

وكان رَوح بن زِنْباع لا يسمع شعراً نادراً ، ولا حديثاً غريباً ، عند عبد الملك فيسأل عنه عمران بن حِطّان إلا عَرفه وزاد فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك فقال : إن لى جاراً من الأزد ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عَرفه وزاد فيه . فقال : خبرنى ببعض أخباره . فخبره وأنشده ، فقال : إن اللغة عدنانية ، وإنى لأحسبه عمران بن حطان . حتى تذاكروا ليلة قول عمران بن حطان يمدح ابنُ مُلجم لعنه الله :

يا ضَربة من تقى ما أراد بها ... إلا ليبلُغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا[٢]

فلم يَدر عبد الملك لمن هو ؟ فرجع روحٌ إلى عمران بن حطان فسأله فقال عمران : هذا ما يقوله عمران بن حطان يمدح به عبد الرحمن بن مُلجم قاتلَ علىّ ابن أبى طالب ، فرجع رَوحٌ إلى عبد الملك فأخبره ، فقال له عبد الملك : ضيفك عمران بن حطان ، اذهبْ فجئنى به . فرَجع إليه فقال : إن أمير المؤمنين قد أحبّ أن يراك . قال عمران : قد أردت أن أسألك ذلك فاستحييتُ منك ، فامض فإنى بالأثر[٣] .

فرجع رَوحٌ إلى عبد الملك فأخبره . فقال عبدُ الملك : إمّا إنك سترجع فلا تجده . فرجع وقد ارتحل عمرانُ وخلّف رُقعةً فيها :

يا رَوحُ كم من أخى مَثْوًى نزلتُ به ... قد ظَنّ ظنّك ، من لخم وَغسان[٤]
حتى إذا خفتُه فارقتُ منزلَه ... من بعد ما قِيل عِمران بن حطّان
قد كنتُ جارك حولاً ما تُروِّعنى ... فيه روائعُ من إنس ومن جان
حتى أردتَ بى العُظمَى[٥] فأدركنى ... ما أدرك الناس مَن خوف ابن مروان

(١) أثيراً : مكرماً . آثره : أكرمه .
(٢) أوفى : أرجح .
(٣) إنى بأثرك : أى ماض بعدك .
(٤) المثوى : المنزل . لخم وغسان : قبيلتان .
(٥) أى النكبة العظمى .

فاعذرْ أخاك ابن زِنْباع فإن له   فى النائبات خطوبًا ذات ألوان
يومًا يمان إذا لاقيتَ ذا يَمن   وإن لقيتُ معديا فعدنانى

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابى ، أحد بنى عمرو بن كلاب ، فانتسب له أو زاعيًّا[١] ، وكان عمرانُ يطيل الصلاة ، وكان غلمانٌ من بنى عامر يضحكون منه ، فأتاه رجلٌ يومًا ممن رآه عندَ روح بن زنباع فسلم عليه ، فدعاه زفر فقال : من هذا ؟ فقال : رجلٌ من الأزد رأيته ضيفًا لرَوح بن زنباع . فقال له زُفرُ : يا هذا ، أزديًّا مرةً وأوزاعيًّا مرة ؟ إن كنتُ خائفًا أمنَّاك ، وإن كنت فقيراً جبَرْناك[٢] . فلما أمسىَ هرب وخلَّف فى منزله رقعةً فيها :

إن التى أصبحتْ يعيا بها زفرٌ   أعيت عياءً على روح بن زنباع

٣ — قال أبو العباس : وكان فى جملة الخوارج لَدَد[٣] واحتجاج ، على كثرة خطبائهم وشعرائهم ونفاذ بَصيرتهم[٤] ، وتوطين أنفسهم على الموت ، فمنهم الذى طُعن فأنفذه الرمح فجعل يَسعى فيه إلى قاتله وهو يقول : « وعجِلْت إليكَ رَبِّ لترضَى » .

٤ — ويُروَى عن أبى عبيدة من غير وجه[٥] أن نافعَ بن الأزرق[٦] سأل ابنَ عباس فقال : أرأيتَ نبى الله سليمانَ صلى الله عليه وسلم ، مع ما خوّله الله[٧] وأعطاه ، كيف عنِىَ بالهدهد على قلته وضُئولته ، فقال ابنُ عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والهدهد قَنَّاءٌ[٨] ، الأرضُ له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قف يا وقَّاف[٩] ، كيف يبصر ما تحتَ الأرض والفخ يغطَّى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقعَ فيه ؟ فقال

(١) نسبة إلى الأوزاع : قبيلة من اليمن .
(٢) جبره : أغناه بعد فقره .
(٣) اللدد : الشدة فى الجدال .
(٤) البصيرة : الفطنة والذكاء .
(٥) أى من وجوه كثيرة .
(٦) نافع بن الأزرق : أحد أبطال الخوارج ، إليه تنسب فرقة الأزارقة التى حاربها المهلب بن أبى صفرة قتالا عنيفاً . قتل يوم دولاب سنة ٦٥ .
(٧) خوله الشىء : ملكه اياه .
(٨) قناء : عالم بمواضع الماء من الأرض ، مأخوذ من القناة التى تحفر تحت الأرض .
(٩) الوقاف : المتأنى لا يستعجل فى أموره .

ابن عباس : ويحك يا بنَ الأزرق ، أمَا علمتَ أنه إذا جاء القدرُ عَشِيَ البصر ؟!

٥ — ومما قيل من الشعر فى يوم دُولاب[١] قول قطرىّ :

لعمرك إنى فى الحيـاة لزاهدٌ ... وفى العيش ما لم ألق أمَّ حكيم[٢]
من الخفرات البيض لم يُرَ مثلها ... شفاءً لذى بثّ ولا لسقيم[٣]
ولو شهدتْنى يوم دولاب أبصرت ... طعانَ فَتًى فى الحرب غير ذميم
غداة طغت علماء بكر بن وائل ... وعُجْنا صدور الخيل نحو تميم[٤]
وكان لعبد القيس أولُ جَدها ... وأحلافها من يَحْصُب وسليم[٥]
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى ... تعوم وظَلْنا فى الجلاد نَعوم[٦]
فلم أر يومًا كان أكثر مُقْعَصًا ... يمجُّ دمًا من فائظ وكليم[٧]
وضاربة خـدًّا كريمًا على فتى ... أغرَّ نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنًا ... له أرضُ دولاب وديرُ حميم[٨]
فلو شهدتْنا يوم ذاك وخيلُنـا ... تُبيح من الكفار كلَّ حريم[٩]
رأت فتيةً باعوا الإلهَ نفوسهَم ... بجنَّـات عدن عنده ونعيم

٤٣

خطبة لأبى طالب

خَطب أبو طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزوّجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها ، فقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزَرْع إسماعيل ، وجعل لنا بلدًا حرامًا

---

(١) دولاب : قرية كانت بها وقعة بين أهل البصرة والخوارج .
(٢) أم حكيم : امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة ، وكانت من أشجع الناس .
(٣) الخفرة : الحيية . البث : الحزن .
(٤) علماء ، أى على الماء . عجنا : عطفنا وثنينا .
(٥) الجد : الحظ .
(٦) حومة الوغى : أشد موضع فى القتال . الجلاد : التضارب بالسيوف . وفى البيت عيب يسمى الإقواء ، لأن القصيدة مبنية على الروى المكسور .
(٧) أقعصه : ضربه فمات مكانه . الفائظ : الميت . الكليم : المجروح .
(٨) ديرُ حميم : بلد بالأهواز .
(٩) الحريم : ما تحميه وتقاتل عنه .

وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكامَ على الناس . ثم إن محمد بنَ عبد الله ابنَ أخى ، من لا يُوازن به فتى من قريش إلاّ رجحَ عليه براً وفضلا ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ[1] فإن المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة[2] ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ .

٤٤
خبر سديف والسفاح

دخل سديفٌ مولى أبى العباس السفاح على أبى العباس أمير المؤمنين ، وعنده سليمانُ بن هشام بن عبد الملك ، وقد أدناه وأعطاه يده فقبّلها ، فلما رأى ذلك سُديف أقبلَ على أبى العباس وقال :

لا يغرّنّك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داءً دَوّيا[3]
فضَع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّاً[4]

فأقبلَ عليه سليمان فقال : قتلتنى أيها الشيخ قتلك الله ! وقام أبو العباس فدخل ، فإذا المنديل قد ألقى فى عنق سليمان ، ثم جُرَّ فقتل .

٤٥
خبر شبل بن عبد الله وعبد الله بن على

ودخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على وقد أجلسَ ثمانين رجلا من بنى أمية على سُمط الطعام[5] فمثل بين يديه فقال :

---

(١) القل : القلة .
(٢) العارية : الشىء المستعار .
(٣) الدوى : ذو الداء . وهذا مبالغة .
(٤) ضع السيف ، أى فى رقاب الأعداء وارفع السوط لتضربهم به . ظهرها : أى ظهر الأرض .
(٥) السمط : جمع سماط ، وهى موائد الطعام تنظم صفوفاً ، كل صف سماط .

أصبح الملك ثابت الآســاس　　بالبهاليل من بنى العباس[١]
طلبــوا وتْرَ هاشم فشفوهــا　　بعد مَيل من الزمان ويأس[٢]
لا تقيلنّ عبد شمس عِثاراً　　واقطعنْ كل رَقلة وأواسى[٣]
ذلهــا أظهــر التودُّدَ منها　　وبها منكم كحزّ المواسى[٤]
ولقد غاظنى وغاظ ســوائى　　قربهم من نمــارق وكراسى[٥]
أنزلوهــا بحيث أنزلهــا اللـ　　ـه بدار الهــوان والإتعاس
واذْكروا مصرَع الحسين وزيداً　　وقتيلا بجانب المهــراس[٦]
والقتيلَ الذى بحـــرّان أضحـَى　　ثاويـًا بين غربة وتناس[٧]
نعم شبل الهراش مولاك شبلٌ　　لو نجا من حبائل الإفلاس[٨]

فأمر عبد الله فشدخوا بالعمد[٩] ، وبسطتْ عليهم البسط ، وجلس عليها ، ودَعا بالطعام ، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا .

وقال لشبل : لولا أنك خلطتَ كلامك بالمسألة لأغنمتكَ جميعَ أموالهم ، ولعقدت لك[١٠] على جميع موالى بنى هاشم .

---

(١) الآساس : جمع أس ، وهو أصل البناء . البهلول : السيد الجامع لكل خير .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) أقال عثرته : عفا عن ذنبه . الرقلة النخلة تفوت اليد . والأواسى ، جمع آسية ، وهى أصل البناء .

(٤) جمع الموسى التى يحلق بها .

(٥) سوائى ، أى سواى وغيرى . النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة ، أو الطنفسة .

(٦) زيد هوابن على بن الحسين ، كان قد خرج على هشام بن عبد الملك ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى ، وصلبه هووجماعة من أصحابه . وقتيل المهراس هوحمزة بن عبد المطلب . والمهراس : ماء عند أحد .

(٧) قتيل حران هو إبراهيم بن محمد بن على . وحران : مدينة على طريق الموصل الشام . ثاوياً : مقيماً .

(٨) الشبل الأولى : ولد الأسد . والهراش : القتال .

(٩) الشدخ : الكسر . والعمد : جمع عمود .

(١٠) عقد له : جعله واليا . والعقدة : الولاية على البلد .

٤٦
من التعازى والمراثى

قد قيل : إنه لم يُقل فى شىء قط كما قيل فى هذا الباب ، لأن الناس لا ينفكون من المصايب ، ومن لم يثكل أخاه ثكله أخوه ، ومن لم يعدم نفيساً كان هو المعدومَ دونَ النفيس . وحقٌّ الإنسان الصبر على النوائب ، إذ كانت الدنيا دار فراق ودارَ بوار[١] ، لا دار استواء . وعلى فراق المألوف حرقةٌ لا تُدفع ، ولوعةٌ لا ترد ، وإنما يتفاضل الناسُ بصحة الفكر ، وحسن العزاء ، والرغبة فى الآخرة ، وجميل الذكر ، فقد قال أبو خراش الهذلى ، وهو أحد حكماء العرب ، يذكر أخاه عُروةَ بن مُرّة :

تقول أراه بعد عروة لاهيا ‏ ‏ ‏ وذلك رزءٌ لو علمتِ جليلُ[٢]
فلا تحسبنى أنى تناسيت عهده ‏ ‏ ‏ ولكن صبرى يا أميم جميل

وقال عمرو بن معد يكرب :

كم من أخ لى صالح ‏ ‏ ‏ بوّأتُه بيدىَّ لحدا[٣]
أعرضتُ عن تذكاره ‏ ‏ ‏ وخُلقت يومَ خُلقتُ جلْدا[٤]

وكان يقال : من حدّث نفسه بالبقاء ولم يوطّنها على المصائب فعاجز الرأى .
وعزّى رجلٌ رجلاً عن ابنه فقال : أكان يغيبُ عنك ؟ قال : كانت غيبته أكثر من حضوره . قال : فأنزلْه غائباً عنك[٥] فإنه إنْ لم يقدم عليك قدمتَ عليه !

وحدثت أن عمرَ بنَ عبد العزيز لما مات ابنه عبد الملك خطب الناس فقال :

---

(١) البوار : الهلاك .
(٢) الرزء : المصيبة . جليل : عظيم .
(٣) بوأته : أسكنته . اللحد : شق فى جانب القبر .
(٤) الجلد : الشديد القوى .
(٥) أنزله غائباً : اجعله بمنزلة الغائب .

الحمد لله الذى جعلَ الموت حتماً واجباً على عباده ، فسوّى بين ضعيفهم وقويهم ، ورفيعهم ودنيهم[١] ، فقال تبارك وتعالى : « كلُّ نفس ذائقةُ الموت » فليعلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم ، مُفردون بأعمالهم ، واعلموا أن لله مسألة فاحصة[٢] ، قال الله تبارك وتعالى : « فَوَرَبِّكَ لنسألنَّهم أجْمعينَ عما كانوا يَعملون » .

* * *

وقال إبراهيم بنُ المهدىّ يرثى ابنه وكان مات بالبصرة :

نأى آخرَ الأيام عنك حبيبُ ... فَلِلْعَيْنِ سَحٌّ دائم وغُروب[٣]

دعته نوًى لا يرتجى أوبةٌ لها ... فقلبك مسلوبٌ وأنت كئيب[٤]

يثـوب إلى أوطانه كل غائب ... وأحمدُ فى الغُيَّاب ليس يثوب

تَبدَّلَ داراً غيرَ دارى وجيرةً ... سوايَ وأحداثُ الزمان تنوبُ

أقام بهـا مستوطنًا غير أنـه ... على طُول أيام المقـام غريبُ

كأن لم يكن كالغصن فى مَيْعَةِ الضحى ... سقاه الندى فاهتز وهو رطيب[٥]

كأن لم يكن كالدر يلمع نورُه ... بأصدافـه لما تَشِنْه ثقوب[٦]

وريحانَ صدرى كان حين أشمهُ ... ومؤنس قصرى كان حين أغيبُ

وكانت يدى ملأى به ثم أصبحت ... بحمد إلهى وهى منه سليب[٧]

دعوتُ أطباء العراق فلم يُصبْ ... دواءك منهم فى البلاد طبيبُ

ولم يملك الآسون دفعًا لمهجة ... عليها لأشراك المنون رقيب[٨]

قصمتَ جناحى بعد ما هدَّ منكبى ... أخوك فرأسى قد علاه مشيبُ[٩]

(١) الدنى ، الساقط الضعيف .
(٢) فاحصة : باحثة كاشفة .
(٣) السح : الصب ، الغروب : جمع غرب ، وهو الدمع الجارى .
(٤) النوى : الجهة التى يذهب فيها . والأوبة : الرجوع . الكئيب : الحزين .
(٥) ميعة الضحى : أولها .
(٦) شانه يشينه : عابه .
(٧) المراد فارغة .
(٨) الآسون : جمع آس ، وهو الطبيب . المهجة : الروح . الأشراك ، جمع شرك ، وهو حبالة الصيد .
(٩) قصمة : كسره .

فأصبحتُ فى الهلاَّك إلا حشاشةً ... تذاب بنار الحزن فهى تذوب[١]
وإنى وإن قدّمتَ قبلى لَعالمٌ ... بأنى وإن أبطأتُ منك قريبُ
وإن صباحًا نلتقى فى مسائه ... صباحٌ إلى قلبى الغداةَ حبيبُ

ومن حَسَن شعر الخنساء قولها :

أعينىّ جُودا ولا تَجمَدا ... ألا تبكيان لصخر الندى[٢]
ألا تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا
طويلَ النجاد رفيعَ العما ... د ساد عشيرتَه أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم ... إلى المجد مَدَ إليه يدا[٣]
فنال الذى فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مُصْعِدا[٤]
يكلفه القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا[٥]
ترى الحمد يَهوى إلى بيته ... يرى أفضل الكسب أنْ يُحمدا

٤٧
خاتمة الكتاب

هذا الكتاب قد وفّيناه جميع حقوقه ، ووفّينا بجميع شروطه إلا ما أذهل عنه النسيان ، فإنه قلما يُخلى من ذلك . ونحن خاتموه بأشعار طريفة ، وآخرُ ذلك الذى نختم به آياتٌ من كتاب الله عزّ وجل ، بالتوقف على معانيها إن شاء الله .

قال الشاعر :

اذكر مجالس من بنى أسد ... بَعدُوا وَحنّ إليهم القلب
الشرق منزلنا ومنزلهم ... غربٌ وأنى الشرق والغرب

---

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .
(٢) جمدت العين : احتبس دمعها عند إرادة البكاء . الندى : المعروف .
(٣) النجاد : حمائل السيف . وهذا كناية عن الطول . العماد : الأبنية العالية ، جمع عمادة أى منزله ظاهر بارز للناس كناية عن الكرم . الأمرد : الشاب بدا شاربه ولم تنبت لحيته .
(٤) أصعد فى الأرض : مضى .
(٥) عالهم : غلبهم وثقل عليهم .

من كل أبيض [جُلٌ زينته   مسكٌ أحمٌّ وصارم عَضْبُ(١)

وقال آخر :

حيـــاة أبى العوام زينٌ لقومه   لكل امرىء قاس الأمور وَجرَّبا
ونَعتِبُ أحيانًا عليه ولو مضى   لكنَّا على الباقى من الناس أعتبا

وقال مسلم :

حياتك يا بن سعدانَ بن يحيى   حيــاةٌ للمكارم والمعـــالى
جلبتُ لك الثنـــاء فجاء عفواً   ونفس الشكر مطلقةُ العقال(٢)
وتَرجعنى إليك وإن نأتْ بى   ديارى عنـــك تجربةُ الرجال

وقال ابن يسير :

قدرْ لرجلكَ قبل الخطْو موضعها   فمن عَلا زَلقًا عن غرّة زَلقا(٣)

ونذكر آيات من القرآن ربما غلط فى مجازها النحويون . قال الله عز وجل : « إنما ذلكمُ الشيطانُ يخوِّفُ أولياءهُ » مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف ، ومعناه يخوفكم من أوليائه .

وفى القرآن : « فمن شَهدَ منكم الشهرَ فليصمهُ » . والشهر لا يغيب عنه أحد ، ومجاز الآية : فمن كان منكم شاهداً بلده فى الشهر فليصمه ، والتقدير فمن شهد منكم ، أى فمن كان شاهداً فى شهر رمضان فليصمه ، نَصْب الظروف لا نصبَ المفعول به .

وفى القرآن فى مخاطبة فرعون : « فاليومَ نُنجِّيكَ ببدنكَ لتكونَ لمنْ خلَفكَ آيةً » فليس معنى ننجيك نخلصك ، ولكن نلقيك على نَجْوَة من الأرض(٤) . ببدنك : بدرعك . يدلّ على ذلك لتكون لمن خلفك آية .

---

(١) الأحم : الأسود . الصارم : السيف القاطع ، وكذلك العضب .

(٢) العقال : أصله الحبل يشد به وظيف البعير إلى ذراعه . والوظيف : مستدق الساق .

(٣) قدر الشىء : هيأه ودبره . الزلق : المكان الذى تزل فيه القدم . الغرة : الغفلة .

(٤) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

وفى القرآن : « يُخرجونَ الرسولَ وإياكم ، أن تؤْمنوا بالله ربكمْ » فالوقف يخرجون الرسول وإياكم ، أى ويخرجونكم لأن تؤمنوا بربكم .

وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، ونستغفر الله مما قلناه من عمد وقصد ، وزلل وخلل .

مقتطفات
من كتاب العقد الفريد
لابن عبد ربه
٢٤٦ – ٣٢٧

ابن عبد ربه

هو أبو عُمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ، من موالى هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية ، أحد أمويّ الأندلس وأمراء قرطبة .

ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ ، ونشأ بها ، وهى من أعظم مدن الأندلس ، فقد كانت حاضرة الأمراء الأندلسيين من بنى أمية ، وفيها من ضروب اللهو والغناء ما يوافق مثلها .

ودرس ابن عبد ربه فيما يظهر لنا من عِقْده العلومَ المعروفة فى عصره من : فقه وتفسير وحديث ، ونحو وعروض ، وتاريخ وأدب .

وترى أثر هذه النزعة العلمية ظاهراً فى عقده من حيث موضوعاته وبحوثه وتبويبه .

وكان ابنُ عبد ربه أديباً ، ناثراً وشاعراً ، فقد صدّر عقده بمقدمة من إنشائه ، وفرش لكل كتاب من كتب العقد بتوطئة من نثره .

ومن هذا القدر القليل الذى بين أيدينا من نثره نتبين أن أسلوبه الكتابى يمتاز بالإيجاز ، وسلامته من الفضول ، وبراءته من التعقيد ، وسهولة ألفاظه وعذوبتها ، واتزان عبارته وحسن سبكها ، وعدم استعمال الغريب من المفردات .

وأما شعره فقد تعرض فيه لفنون كثيرة ، وُفق فى بعضها ولم يوفق فى بعضها الآخر ؛ فقد أجاد فى الغزل والرثاء أكثر مما أجاد فى المدح والهجاء ، وأتى فى بعض الفنون بمعان جديدة وتشبيهات جميلة .

وله قصيدة قصصية ضمنها ذكر غزو الأمير عبد الرحمن الأندلس ، وهى طويلة تبلغ نحواً من ٤٤٠ بيتاً .

وكان لفظه فى شعره سهلاً رقيقاً عذباً ، فيه رونق وحلاوة ، لم يكثر فيه من البديع ولم يحمله أكثر مما يطيق من المعانى .

وكانت ثقافته الأدبية شرقية ، ولذلك عُنى كما عنى غيره من أدباء الأندلس

فى أول نهضتهم بدرس أخبار المشرقيين وأشعارهم وأدبهم ، حتى إن عقده — لولا فصل صغير منه فى ملوك الأندلس — اقتصر على أخبار المشرق وأدبه .

وقد كان فى الأندلس مدرستان : إحداهما تعنى بأدب الأندلس وتدوينه ونشره كما فعل الفتح بن خاقان فى مطمح الأنفس ، وابن بسام فى الذخيرة ، والمقرى فى نفح الطيب . والأخرى تعنى بنقل أدب المشرق لأهل الأندلس كما فعل أبو على القالى — نزيل الأندلس — فى الأمالى ، وابن عبد ربه فى عقده .

وكلا المذهبين يكمل بعضه بعضًا ، كما تفعل الأمم الحية إلى اليوم ، تدون أدبها ونتاجها ، وتنقل أدب غيرها ونتاجه .

وابن عبد ربه كان مولعًا باللهو والغناء والنسيب ، ولكنه أقلع فى آخر حياته عن صبوته وترك اللهو والنسيب ، وعمد إلى أشعاره التى قالها فنقضها بمثلها فى الزهد والمواعظ ، وسماها الممحصات ، وجعلها على أعاريض تلك وقوافيها .

وأصيب بالفالج آخر أعوامه ، وتوفى سنة ٣٢٧ ، وهو ابن إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام .

العقد

مجموعة أدبية ضمنها ابن عبد ربه ما رآه حقيقا بالتدوين من فروع الأدب ، كالخطب والشعر وأقوال العلماء والحكماء . وأضاف إلى ذلك بحوثًا فى علوم عصره المتصلة بالأدب ، كعلم العروض ، وعلم الألحان ... والنتف التاريخية ، وأخبار العرب الجاهليين وأنسابهم وأيامهم .

وهو من أمهات كتب الأدب ، فقد حوى خَيْرَ ما ألف فى موضوعه من الكتب السابقة ، ولم يقتصر على ما عرفه ، بل نقل عن الكتب التى ترجمت إلى العربية فى ذلك الزمن عن اليونانية والهندية والفارسية .

منهجه :

قد أوضح منهجه فى التأليف فى مقدمة الكتاب ، فذكر أنه تخيره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، وأنه ليس له إلا تأليف الاختيار وحسن الاختصار ، وفرشٌ فى صدر كل كتاب ، وأنه تطلب نظائر الكلام وأشكال المعانى فقرن كل جنس منها إلى جنسه ، وجعل كل جنس بابًا على حدة ، وأنه عمد فى اختياره من جملة الأخبار وفنون الآثار إلى أشرفها جوهراً وأظهرها رونقًا ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظًا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة ، وأنه حذف الأسانيد طلبًا للاستخفاف والإيجاز ، وأنه رأى الكتب قبله قاصرة فجعل كتابه هذا كافيًا جامعًا لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه الخاصة والعامة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وأنه حلى كل كتاب بشواهد من الشعر تجانس الأخبار ، وقرن بها غرائبَ شعره .

تقسيمه وتبويبه :

لقد تصور المؤلف كتابه عقداً — كما سماه — مؤلفًا من خمس وعشرين جوهرة كريمة ، اثنتا عشرة فى جانب واثنتا عشرة أخرى فى جانب ، وواحدة فى

الوسط ، ولكنه لم يسمّ إلا الاثنتي عشرة الأولى ، فلؤلؤة وفريدة ، وزبرجدة وجمانة ، ومرجانة ، وياقوتة ، وجوهرة وزمردة ، ودرة ويتيمة ، وعسجدة ومجنبة . وفي الوسط جوهرة تسمى الواسطة . أما الاثنتا عشرة التي في الجانب الآخر فهي هذه الأسماء الأولى مكررة ، فمجنبة ثانية ، وعسجدة ثانية . . وهكذا .

قيمته الأدبية :

عُني ابن عبد ربه بأن يجعل كتابه مجموعة من متخير جواهر الأدب ، ولكنه لم يُعن بالإسناد ، لأن أخباره — كما يقول — أخبار ممتعة وحكم ونوادر لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضيرها حذفه منها . وقد عمد إلى اختصار أخباره طلباً للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ، وقد أحسن الاختصار وأجاد الاختيار .

وفي العقد ألوف من أبيات الشعر لأكثر من مائتي شاعر من العصر الجاهلي والأموي والعباسي ، وقدر كبير من شعر ابن عبد ربه مؤلف الكتاب .

وفي العقد كتاب خاص جعله واسطة عقده ذكر فيه عيون الخطب . وفيه قصص ونوادر وحكايات جمعها ابن عبد ربه من مصادر شتى وجعل أكثرها في كتابين : واحد للمتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ، وآخر للفكاهات والملح .

وللعقد قيمة أدبية من حيث النقد الأدبي ، ففيه فصول في النقد نقل بعضها ابن عبد ربه عن الشيباني وغيره من الأدباء القدماء . وللمؤلف نفسه آراء في النقد بثها في ثنايا كتابه .

وفي العقد كتاب الجوهرة في « الأمثال » ، وبه مجموعة كبيرة من أمثال قد رُتبت وصنفت وبوبت على حسب موضوعاتها .

قيمته التاريخية :

ويعد العقد من المصادر التي يرجع إليها الباحثون في تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والأدبي . فهو يذكر بعض روايات الأقدمين ممن لم يترك لنا الزمن من آثارهم التاريخية والأدبية شيئاً كثيراً مجموعاً في كتب مستقلة .

جهد المؤلف :

مؤلف العقد مختار ومنشئ معًا ، فهو يقدم للباب بمقدمة من إنشائه ، وقد يتبع الباب بما ينشئه من شعره ، ويشيع فى الكتاب آراءه فى نقد ما ينقل ، وله آراء جليلة فى النقد الأدبى شائعة فى الكتاب ، فيستحسن ويستهجن ويبين مواضع الاستحسان والاستهجان ، ويخالف النقاد فى آرائهم ، ويبين رأيه فيما يحسن من الكلام وما لا يحسن ، وأسباب الحسن وأسباب القبح .

وهذا هو ما اخترناه من الكتاب :

كتاب الحرب

١
فرش الكتاب

قال ابنُ عبد ربه : قد مضى قولنا فى السلطان وتعظيمه ، وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل فى رعيته والرفق بأهل مملكته . ونحن قائلون بعوْن الله وتوفيقه فى الحروب ومدار أمْرها ، وقَوْد الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبر لها من إعمال الخُدْعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغِرَّة[1] ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البَيَات[2] . هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفتها ، وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومُعاناة الجيوش ، وعلمه أنْ لا درعَ كالصبر ، ولا حصْنَ كاليقين ؛ ثم نذكر كرم الإقدام ومحمود عاقبته ولؤم الفِرار ومذموم مَغَبَّتِه .

٢
صفة الحرب

١ — الحربُ رَحى ثِفالها[3] الصبرُ ، وقُطبها[4] المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثِقَافها[5] الأناة ، وزمامها الحذرُ ، ولكل شيء من هذه ثمرةٌ ، فثمرةُ الصبر التأييد ، وثمرة المكر الظفر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليُمْن ، وثمرة

---

(١) الغرة ، بكسر الغين : الغفلة .

(٢) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، والاسم البيات .

(٣) الثفال كغراب وكتاب : الحجر الأسفل من الرحى .

(٤) قطب الرحى : الحديدة التى فى الطبق الأسفل من الرحيين يدور عليها الطبق الأعلى .

(٥) أصل الثقاف : ماتسوى به الرماح .

الحذر السلامة ، ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال [1] ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

* * *

٢ ــ وقيل لعنترة : صف لنا الحرب . فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

* * *

٣ ــ وقال نصر بن سيار [2] ، صاحبُ خراسان ، يصف الحرب ومبتدأها أمرها :

أرى خلل الرماد وميض جمر ... فيوشك أن يكون له ضرام [3]
فإن النار بالعودين تُذكى ... وإن الحربَ أولها الكلام
فإنْ لم يُطفها عقلاءُ قوم ... يكون وقودها جثثٌ وهام [4]
فقلت من التعجب ليتَ شعرى ... أأيقاظٌ أمية أم نيام

* * *

٣
العمل فى الحروب

١ ــ قيل لأكثم بن صيفى : صفْ لنا العملَ فى الحرب . قال : أقِلّوا الخلاف على أمرائكم فلا جماعةَ لمن اختُلِفَ عليه ، واعلموا أن كثرة الصياح من

(١) الحرب سجال : أى سجل (دلو) منها على هؤلاء ، وآخر على هؤلاء .

(٢) نصر بن سيار : من الخطباء الشعراء يعد فى أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل ، وقويت الدعوة العباسية فى أيامه فكتب إلى بنى مروان بالشام يحذرهم وينذرهم ، فلم يأبهوا للخطر . توفى سنة ١٣١ .

(٣) ومض البرق : لمع خفيفاً . الضرام : اشتعال النار .

(٤) الهام : جمع هامة ، الرأس .

الفشل ، فتثبتوا فإن أحزَم الفريقين الرَّكين[١] ، ورب عجلة تُعقب رَيثًا وادَّرعوا[٢] الليلَ فإنه أخفى للوَيْل[٣] ، وتحفظُوا من البَيَات .

* * *

٢ — وسُئل بعضُ الملوك عن وثائق الحزم فى القتال . فقال : مُخاتَلة[٤] العدو عن الريف ، وإعدادُ العيون على الرَّصَد[٥] ، وإعطاءُ المبلغين على الصدق ، ومعاقبة المتوصلين بالكذب ، وألا تُخْرِجَ هاربًا إلى قتال ، ولا تضيِّق أمانًا على مستأمن ، ولا تَشْدَهنَّك[٦] الغنيمةُ عن المحاذرَة .

٤

الصبر والإقدام فى الحرب

١ — جمع الله تبارك وتعالى تدبيرَ الحرب فى آيتين من كتابه فقال :

« يأيها الذينَ آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تُفلحونَ . وَأطيعوا اللهَ وَرَسوله وَلاَ تنازَعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكمْ ، وَاصْبروا إن اللهَ مَعَ الصابرين » .

٢ — وقال أبو بكر رضى الله عنه لخالد بن الوليد : احرصْ على الموت توهب لكَ الحياة .

٣ — وقالت الحكماء : استقبال الموت خيرٌ من استدباره .

٤ — وقال حسان بن ثابت :

ولسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومُنا ولكن على أقدامنا تَقْطر الدَّما[٧]

---

(١) الركين : الرزين .
(٢) ادرعوا : أصل أدرع ، لبس الدرع .
(٣) الويل : حلول الشر .
(٤) خاتله : خدعه .
(٥) الرصد : القوم يرصدون .
(٦) تشدهنك : تدهشنك
(٧) الأعقاب : جمع عقب ، مؤخر القدم . الكلوم : الجروح .

٥ ــ ومن أحسن ما قالوه فى الصبر قول نَهشل بن حرّىّ :

ويوم كأن المصطَلينَ بحــره … وإن لم تكن نار ــ وقوفٌ على جَمْر
صَبرْنا له حتى يَبوخَ وإنما … تفرّجُ أيامُ الكريهة بالصبر (١)

وأحسن من هذا عندى قول حبيب :

فأثبتَ فى مُستنقع الموت رجلَه … وقال لها من تحت أخمصك الحشر (٢)
تردّى ثيابَ الموْت حمراً فما أتى … لها الليلُ إلا وهى من سندس خضر

وأحسنُ من هذا قوله :

يستعذبُونَ مناياهم كأنهــم … لا يخرجونَ من الدنيا إذا قُتلوا

وقوله فى المعنى :

قوم إذا لبسوا الحديدَ حسبتهم … لم يحسبوا أن المنية تُخْلَق
انظر فحيث ترى السيوف لوامعًا … أبداً ففوق رءوسهم تتألــقُ

٥

فرسان العرب فى الجاهلية والإسلام

١ ــ كان فارسُ العرب فى الجاهلية ربيعة بن مكَدَّم من بنى فراس بن غَنْم ، وكان يُعقر على قَبره فى الجاهلية ؛ ولم يُعقر على قبر أحد غيره .

٢ ــ ومن فُرسان العرب فى الجاهلية عَنترة ، وعُتَيْبة بن الحارث بن شهاب ، وأبو بَرَاء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزَيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأحيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن عبد وُدّ ، وعمرو بن معد يكرب .

٣ ــ وفى الإسلام على بن أبى طالب ، والزُّبَير ، وطلحة ، ورجال الأنصار ، وعبد الله بن خازم السلمى ، وعُمير بن الحُباب ، وقَطَرىّ بن الفُجاءة ، وشبيب الحرورىّ .

---

(١) يبوخ : يسكن .
(٢) الأخمص من باطن القدم : مالا يصيب الأرض .

وقالوا : ما استحيا شجاع قطّ أنْ يَفر من عبد الله بن خازم وقَطرىّ بن الفجاءة صاحب الأزارقة .

وكان شَبيب الحرورىّ يَصيح فى جَنبات الجيش فلا يَلوى أحدٌ على أحد[1] . وفيه يقول الشاعر :

إن صاح يومًا حسبتَ الصخرَ منحدراً والريح عاصفةً والموجَ يلتطمُ

٤ — ورجال الأنصار أشجعُ الناس . قال عبد الله بن عباس : ما استُلت السيوف ولا زَحَفت الزحوف ولا أقيمت الصفوف حتى أسلم ابنا قَيْلة — يعنى الأوس والخروج ، وهما الأنصار من بنى عمرو بن عامر من الأزد .

٥ — وقال العتبىّ : لما أسنّ أبو براء عامر بن مالك ، وضَعَّفه[2] بنو أخيه وخرَّفوه[3] ولم يكن له ولدٌ يحميه أنشأ يقول :

دفعتكُم عَنى وما دَفْعُ رَاحة بشىء إذا لَمْ تَستَعِنْ بالأنامل!
يَضعّفنى حلمى وكثرةُ جهلكم علىّ وأنى لا أصُولُ بجاهل

٦
المكيدة فى الحرب

١ — لما فتح عمرو بن العاص قَيْسارِيَّة[4] سار حتى نزَل غزّة ، فبعث إليه عِلْجُها : أن ابعثْ إلىّ رجلاً من أصحابك أكلمه . ففكر عمرٌو وقال : ما لهذا أحدٌ غيرى . فخرج حتى دخل على العلج[5] فكلمه ، فسمع كلامًا لم يسمع قط مثله . فقال العلج : حدثنى ، هل فى أصحابك أحدٌ مثلك ؟ قال : لا تسألْ عن هذا ، إنى هينٌ عليهم إذْ بَعثوا بى إليك وعرّضونى لما عرّضونى له ،

(١) لا يلوى أحد على أحد : لا يلتفت ولا يعطف .
(٢) ضعفوه : عدوه ضعيفاً .
(٣) خرفوه : نسبوه إلى الخرف ، وهو فساد العقل .
(٤) بلد على ساحل بحر الشام .
(٥) العلج : الرجل من كفار العجم .

ولا يَدرون ما تَصنعُ بى . فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب : إذا مر بك فاضربْ عُنقه وخُذْ ما معه .!

فخرج من عنده ، فمرّ برجُل من غَسان فعرفه ، فقال : يا عمرو ؛ قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده فرجع فقال له الملك : ما ردّك إلينا ؟ قال : نظرتُ فيما أعطيتنى فلم أجدْ ذلك يسعُ بنى عَمى ، فأردتُ أنْ آتيك بعشرَة منهم تعطيهم هذه العطية . فيكون معروفك عند عَشرَة خيراً من أن يكونَ عند واحد . فقال : صدقتَ ، اعجَلْ بهم . وبعث إلى البواب أن خل سبيله . فخرج عَمرٌو وهو يلتفتُ حتى إذا أمنَ قال : لا عُدتُ لمثلها أبداً . فلما صالحه عَمرو ودخل عليه العلج قال له : أنتَ هو ؟ قال : نعم ، على ما كانَ من غَدرك .

ولما أتى بالهرُمزَان[1] أسيراً إلى عُمر بن الخطاب قيل له : يا أميرَ المؤمنين ، هذا زَعيمُ العجم وصاحبُ رُستمَ ، فقال له عمر : أعرضُ عليك الإسلامَ نُصحاً لكَ فى عاجلك وآجلك . قال : يا أميرَ المؤمنين ، إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرْغبُ فى الإسلام رَهبة . فدعا له عُمر بالسيف ، فلما همَّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين ؛ شَرْبةٌ من ماءٌ أفضَلُ من قَتلى على ظَمأ . فأمر له عُمر بشربة من ماء فلما أخذها قال : أنا آمنٌ حتى أشربها ؟ قال : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أميرَ المؤمنين نور أبلجُ[2] . قال : صدقت ، لك التوقفُ ، وأنظر فى أمرك ؛ ارفَعوا عنه السيف . فلما رفع عنه قال : الآن يا أميرَ المؤمنين أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وما جاء به حقٌ من عنده . قال عمر : أسَلمتَ خيرَ إسلام فما أخرَّك ؟ قال : كرهتُ أنْ يُظن أنى إنما أسلمت جزَعاً من السيف ، وإيثاراً لدينه بالرهبة . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولا بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك . ثم أمر به أنْ يبرّ ويكرَم . فكان عُمر يشاوره فى توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس .

---

(١) أصل الهرمز ، والهرمزان : الكبير من ملوك العجم .

(٢) الأبلج : المضىء المشرق .

٧

وصايا أمراء الجيوش

كتب عُمر بن الخطاب إلى سَعد بن أبى وقاص ، ومَنْ معه من الأجناد :

أما بعدُ فإنى آمرك ومَنْ معك من الأجناد بتقوَى الله على كل حال ، فإنَّ تَقوى الله أفضلُ العُدَّة على العدوّ ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرُك ومَنْ معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عَدوكم ، فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عَدوهم ، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله ، ولولا ذلك لم تكنْ لنا بهم قوةٌ ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوَينا فى المعصية كان لهم الفضْل علينا فى القوّة ؛ وإلاّ نُنصرْ عليهم بفضْلنا لم نَغلبهم بقوّتنا ، واعلموا أن عليكم فى مسيركم حَفظةً من الله يعلمون ما تفعلون . فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدوَّنا شَرٌّ مِنَّا فلن يُسلَّط علينا وإن أسأنا ، فرب قَوم قد سُلط عليهم شرٌّ منهم كما سُلطَ على بنى إسرائيل — لما عملوا بمساخِطِ الله[١] — كفارُ المجوس ، فجاسوا[٢] خِلالَ الدّيار وكانَ وعْداً مفعولا . واسألوا اللهَ العونَ عَلى أنفسكم كما تسألونه النصرَ على عدوّكم . أسألُ اللهَ ذلك لنا ولكم . وترفّق بالمسلمين فى مَسيرهم ، ولا تجشّمهُم مَسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفرُ لم ينقصْ قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدوّ مقيم حامى الأنفس والكُراع[٣] ، وأقِمْ بمنْ معك فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكونَ لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم . ويَرُمّون[٤] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَح منازلهم عن قُرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تَثق بدينه ، ولا يرْزَأ[٥]

---

(١) ما يغضب الله .

(٢) جاسوا خلال الديار : ترددوا بينها للغارة . أو تخللوها فطلبوا مافيها .

(٣) الكراع : اسم يجمع الخيل .

(٤) رم الشيء : أصلحه .

(٥) رزأه ماله : أصاب منه شيئاً .

أحداً من أهلها شيئًا ، فإن لهم حرمةً وذمةً ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبْر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئْتَ أرْضَ العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض منْ تطمئن إلى نُصْحه وصدْقه ، فإن الكذوبَ لا ينفعك خبرُه وإنْ صَدَقك فى بعضه ، والغاش عينٌ عليكَ وليس عَينًا لك ، وليكن منك عند دنوّك من أرض العدو أن تُكثِرَ الطلائعَ(١) وتبثَّ السرايا(٢) بينك وبينهم ، فتقطع السرَايا أمدادَهم ومرافقهم وتَتبَّع الطلائع عَوْرَاتهم . وانتق للطلائع أهلَ الرأى والبأس من أصحابك ، وتخيَّرْ لهم سوابقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدوًّا كان أولَ ما تلقاهم القوةُ من رأيك . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبْر على الجِلاَد(٣) ، لا تخص بها أحداً بهوى ، فيضعَ من رَأيك وأمرك أكثر مما حابيتَ به أهلَ خاصتك . ولا تبعثن طليعةً ولا سَرِيةً فى وَجه تتخوف عليها فيه غَلَبة أو ضَيْعَة ونكاية . فإذا عايَنْت العدو فاضممْ إليكَ أقاصيك وطلائعك وسَراياك ، واجمعْ إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزةَ(٤) ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عَوْرةَ عَدوك ومقاتله ، وتعرف الأرضَ كلها كمعرفة أهلها بها ، فتصنع بعدوك كصُنْعه بك ، ثم أذْكِ أحراسَك على عسكرك ، وتيقظ من البيات(٥) جُهدك . ولا تؤْتى بأسير ليس له عَقْد إلا ضَربتَ عنقه ، لترهبَ بذلك عدو الله وعدوك ، والله ولىُّ أمرك ومن معك ، وولىّ النصر لكم على عدوكم . واللهَ المستعانُ .

---

(١) طليعة الجيش : من يبعث ليطلع طلع العدو ، وجمعه طلائع .

(٢) السرية من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة .

(٣) جالدوا بالسيوف : تضاربوا بها .

(٤) المناجزة : المقاتلة .

(٥) بيت العدو : أوقع بهم ليلا ، والاسم البيات .

٨

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

١ – قال مَروان بن أبى حفصة يمدحُ مَعن بن زائدة ويصفُ مفاخرَ بنى شَيبان ومَنعَهم لمن استجار بهم :

هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا ، وإن دُعوا أجابوا ، وإن أعطَوْا أطاحوا وأجزلُوا (١)

هُم يمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزلُ (٢)

٢ – قال سعيد بن سَلْم : أهدرَ (٣) المهدىّ دَمَ رجل من أهل الكوفة كان يَسعى فى فساد دولته ، وجعل لمن دَلَّه عليه أو جاءَ به مائةَ ألف درهم . فأقام الرجلُ حيناً مُتوارياً . ثم إنه ظهر بمدينة السلام ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مترقباً ، فبينا هو يمشى فى بعض نواحيها إذ بَصر به رجلٌ من أهل الكوفة فعرفه ، فأهْوى (٤) إلى مجامع ثوبه . وقال : هذا بُغية (٥) أمير المؤمنين . فأمكن الرجل من قياده ، ونظر إلى الموت أمامه ؛ فبينما هو على تلك الحال إذ سمعَ وَقْعَ الحوافر من وراء ظَهره فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد ، أجرْنى أجارَك الله ، فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : ما شأنك ؟ قال : بُغيةُ أمير المؤمنين الذى أهدرَ دَمه ، وأعطى لمن دلّ عليه مائةَ ألف . فقال : يا غلام ، أنزلْ عن دابتك ، واحملْ أخانا .

فصاح الرجلُ : يا معشر الناس ، يُحالُ بينى وبينَ مَنْ طلبه أميرُ المؤمنين ! قال معن (٦) : اذهب فأخبره أنه عندى . فانطلق إلى أمير المؤمنين فأخبرَ الحاجب .

---

(١) أطابوا : قدموا طعاماً طيباً . وأجزلوا : أكرموا .

(٢) السماكان : نجمان نيران .

(٣) أهدر دمه : أبطله وأباحه .

(٤) أهوى بيده إليه : مدها نحوه ، وأمالها إليه ليأخذه .

(٥) بغية : ما يطلبه .

(٦) معن بن زائدة : من أشهر أجواد العرب وأحد الشجعان العظماء . ولاه المنصور إمارة سجستان فاقأم مدة وقتل فيها سنة ١٥١ .

فدخل إلى المهدىّ فأخبره . فأمر بحبس الرجل وَوجـّه إلى معن مـَنْ يحضرُ به . فأتته رُسلُ أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه ، وقـُربتْ إليه دابته ، فدعا أهلَ بيته ومواليـَه ، فقال : لا يـُخلـَصنّ إلى هذا الرجل وفيكم عـَينٌ تـَطرِف . ثم ركب ودخل حتى سلـّم على المهدىّ ، فلم يردّ عليه ، فقال : يا مـَعن ، أتـُجيرُ علىّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونعم أيضًا ؟ واشتد غضَبهُ . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، قتلتُ فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خمسةَ عشر ألفـًا ، ولى أيامٌ كثيرةٌ قد تقدم فيها بلائى وحُسن غـَنائى ، فما رأيتمونى أهلاً أن تـَهبوا إلى رجلاً واحداً استجارَ بى ؟ فأطرق المهدىّ طويلا ، ثم رفع رأسـَه وقد سُرِّى عنه فقال : قد أجرْنا من أجـَرْت . قال مـَعن : فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه فـَعل . قال : أمرنا له بخمسين ألفـًا . قال : يا أمير المؤمنين ، إن صلات الخلفاء تكون على قـَدر جنايات الرعية ، وإن ذَنبَ الرجل عظيمٌ ؛ فأجزل له الصلةَ . قال : قد أمرْنا لهُ بمائة ألف . قال : فتعجلها يا أميرَ المؤمنين ، فإن خيرَ البرّ عاجلهُ . فأمر بتعجيلها ، فدعا لأمير المؤمنين بأفضَل الدعاء . ثم انصرف ولحقه المال . فدعا الرجلَ وقال له : خـُذ صلتك ، والحقْ بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى !

٩

الجبن والفرار

١ ــ قالت عائشة أمّ المؤمنين : إن لله خـَلقـًا قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خفقت الريح خـَفقت معها ، فأفّ[١] للجبناء ! أفّ للجبناء !

٢ ــ وقال بعض العراقيين فى رجل أكول جـَبان :

إذ صوّت العصفورُ طار فؤاده   وليثٌ حـَديدُ الناب عند الثرائد[٢]

---

(١) أف : كلمة تكره . إذا قالها الإنسان علم أنه متضجر متكره .

(٢) حديد الناب : قوى الأسنان . ثرد الخبز : فته .

وقال فيه :

ضعيفُ القلب رعديد عظيم الخَلْقِ والمنظر[1]
رأى فى النوم عصفوراً فوارَى نفسه أشهرْ

---

(١) رعديد : جبان .

كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا فى الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد والعُدّة والعَدَد، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأجواد والأصفاد[1]؛ إذ كان أشرف ملابس الدنيا، وأزينُ حُللها، وأجلبها لحمد، وأدفعها لذم، وأسترها لعيب، كرمَ طبيعة يتحلى بها السمحُ السرىّ، والجواد السخىّ. ولو لم يكن فى الكرم إلا أنه صفةٌ من صفات الله تعالى تسمى بها لكفى، فهو الكريم عزّ وجلّ؛ ومن كان كريمًا من خَلقه فقد تسمى باسمه واحتذى على صفته.

٢
مدح الكرم وذم البخل

١ — قال النبى صلى الله عليه وسلم: اصطناعُ المعروف يقى مَصَارعَ السوء.

وقال لقوم من العرب: مَنْ سيدكم؟ قالوا: الجَد بن قيس، على بُخل فيه. فقال: وأىّ داء أدوَى[2] من البخل!

٢ — وقال أكثم بن صَيفى حكيم العرب: ذللوا أخلاقكم للمطالب، وقُودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم. ولا تقيموا على خُلق تذمونه من غيركم، وصلوا مَنْ رغب إليكم، وتحلَّوا بالجود يكسبكم المحبة، ولا تَقتعدوا[3] البخلَ فتتعجلوا الفقرَ.

---

(١) الصفد: العطاء.

(٢) دوى: إذا هلك بمرض باطن.

(٣) لا تقتعدوا البخل: لا تتخذوه مطية.

أخذهُ الشاعر فقال :

أمِنْ خوف فقر تعجّلته وأخرْتَ إنفاقَ ماتجمعُ
فصِرْتَ الفقيرَ وأنت الغنى وما كنتَ تعدُ و الذى تصنعُ

٣
الترغيب فى حسن الثناء واصطناع المعروف

وقيل لأبى عقيل البليغ العراقى : كيف رأيتَ مرْوان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال : رأيتُ رَغبته فى الإنعام فوق رَغبته فى الشكر ، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة .

أخذه بشار فنظمه فقال :

مالكى ينشقُّ عن وجهه الجدْ بُ كما انشقت الدجى عن ضياء(١)
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلذ طعمَ العطاء

٤
العطية قبل السؤال

١ ــ قال سعيد بن العاصى : قبح اللهُ المعروفَ إن لم يكن ابتدئ من غيرَ مسألة ، فالمعروفُ عوضٌ عن مسألة الرجل إذا بذلَ وجهه وقلبُه خائف ، وفرائصُه ترْتعد ، وجبينه يرْشح(٢) لا يدرى أيرجعُ بنجح المطلب أم بسوء المنقلب ، قد انتقع لونه ، وذهبَ دمُ وجهه .

اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظٌ فلا تجعل لى حظًّا فى الآخرة .

٢ ــ وقالوا : السخىُّ من كان مسروراً ببذْله ، متبرعًا بعطائه ، لا يلتمسُ

---

(١) الدجى : الظلام .

(٢) يرشح : يعرق .

عَرَض دُنْيا[١] فيحبط عَمله ، ولا طلب مكافأة فيسقط شكره ، ولا يكون مَثله فيما أعْطَى مثلَ الصائد الذى يُلقى الحبَّ للطير لا يريد نَفعها ولكن نفعَ نفسه .

٥

لطيف الاستمناح

١ — كان أبو جعفر المنصور أيام بنى أمية إذا دخل البصرةَ دخل مُستتراً ، فكانَ يجلسُ فى حَلْقة أزهر السمان[٢] المحدث ، فلما أفضَت الخلافةُ إليه قدم عليه أزهر فرحَّب به وقربه ، وقال له : ما حاجتك يا أزهر ؟ قال : دارى متهدمة وعلىَّ أربعةُ آلاف درهم ، وأريد أن يبنى محمد ابنى اعياله ، فوصله باثنى عشر ألفًا وقال : قد قضَينا حاجتك يا أزْهر ، فلا تأتنا طالبًا . فأخذها وارْتحل .

فلما كان بعد سنة أتاه ، فلما رآه أبو جعفر قال : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : جئتك مسلماً . قال : إنه يقع فى خلد[٣] أمير المؤمنين أنك جئت طالباً . قال : ما جئت إلا مسلما . قال : قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً ، واذهبْ فلا تأتنا طالبًا ولا مُسلمًا . فأخذها ومضى .

فلما كان بعد سنة أتاه فقال : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : أتيتُ عائداً . قال : إنه يَقعُ فى خَلد أمير المؤمنين أنك جئتَ طالبًا . قال : ما جئتُ إلا عائداً . قال : قد أمرْنا لك باثنى عشر ألفًا ، واذهب فلا تأتنا طالبًا ، ولا مسلمًا ولا عَائداً . فأخذها وانصرف .

فلما مضت السنة أقبل فقال له : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : دعاءٌ كنتُ أسمعك تَدْعو به يا أميرَ المؤمنين جئتُ لأكتبه . فضحك أبو جعفر وقال : إنه دعاءٌ غَيرُ مستجاب ، وذلك أنى دعوتُ الله تعالى به ألا أرَاك فلم يستجبْ لى .

---

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال قل أوكثر .

(٢) هوأزهر بن سعد الباهلى ، عالم بالحديث من أهل البصرة ، توفى سنة ٢٠٣ .

(٣) خلد : بال وقلب .

وقد أمرْنا لك باثنى عشر ألفـًا . فاذهب وتعالَ متى شئت ، فقد أعيتنى فيك الحيلة .

٦
شكر النعمة

١ ـ قالوا : كُفْر النعمة يوجب زوالها ، وشكرها يوجب المزيدَ فيها .

٢ ـ وقالوا : إذا قَصرَتْ يداك عن المكافأة فليطلْ لسانك بالشكر .

٣ ـ وكتب عدىّ بن أرْطاة إلى عمر بن عبد العزيز : إنى بأرض كثرَتْ فيها النعم ، وقد خفْت على مَنْ قبلى من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه .

فكتب إليه عُمر رضى الله عنه : إن اللهَ تعالى لم يـُنعم على قوم نعمةً فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثرَ مما أخذُوا . واعتبر ذلك لقول الله تعالى : « ولَقدْ آتينا داوُدَ وَسليمانَ علماً وقالا الحمدُ لله الذى فَضَّلنا » . فأى نعمة أفضلُ مما أوتى سليمان !

٧
أجواد أهل الجاهلية

١ ـ الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية ثلاثة نفر : حاتم بن عبد الله الطائى ، وهَرِم بن سنان المرّىّ ، وكعب بن مامة الإيادى . ولكن المضروبَ به المثل : حاتمٌ وَحده . وهو القائل لغلامه يَسار :

أوْقِدْ فإن الليلَ ليل قَرٌّ والريحُ يا مُوقدُ ريحٌ صِرٌّ[1]
عسى يَرى نارَك من يَمر إن جَلبتْ ضيفًا فأنتَ حُرٌّ

قالت نَوار امرأة حاتم: أصابتنا سَنَة[2] اقشعرت لها الأرض ، واغبر

(١) قر : بارد . صر : تشديد الصوت أو البرد . (٢) السنة هنا : القحط .

أفق السماء ، وراحت الإبلُ حدْبًا حدابير [١] ، وضنَّت المراضع على أولادها فما تَبض [٢] بقطرة ، وحلقت [٣] السنةُ المالَ ، وأيقنا بالهلاك ؛ فوالله إنا لفى ليلة صنَّبر [٤] ، بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغى [٥] صبيتنا جُوعًا : عبد الله ، وعَدِىّ ، وَسفَّانة . فقام حاتم إلى الصبيين ، وقمتُ أنا إلى الصبية ، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأة من الليل ، وأقبل يُعللنى بالحديث . فعرفت ما يريدُ فتناومتُ ، فلما تهورَت [٦] النجومُ إذا شىء رفع كِسْر البيتِ ثم عاد . فقال : مَنْ هذا ؟ قالت : جارتُك فلانة . أتيتك من عند صبية يتعاووْن عُواءَ الذئاب ، فما وَجدتُ معوَّلا إلا عليك يا أبا عَدِىّ . فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم .

وأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جانبيها أربعة ، كأنها نعامةٌ حولها رئالها [٧] ، فقام إلى فرسه فوجأ [٨] لَبَّته بمدية فخرَّ ، ثم كشطه عن جلده ودفع المُدْية إلى المرأة ، فقال لها : شأنك . فاجتمعنا على اللحم نَشوى ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتًا بيتًا ، فيقول : هُبوا أيها القوم ، عليكم بالنار . فاجتمعوا والتفع فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، فلا والله إنْ ذاق منه مزْعة [٩] ، وإنه لأحوجُ إليه منا ؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عَظْمٌ وحافر ؛ فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوار أقلِّى اللوم والعَذَلا ... ولا تقولى لشىء فات ما فعلا [١٠]
ولا تقولى لمال كنتُ مُهلكه ... مَهلاوإن كنتُ أعطى الإنس والخبلا [١١]
يرى البخيلُ سبيلَ المال واحدةً ... إن الجوادَ يَرَى فى ماله سُبلا

---

(١) الحدبار : الناقة الضامرة ، وجمعه حدابير .
(٢) بض الماء : سال قليلا قليلا .
(٣) استأصلت . (٤) صنبر : شديدة البرد .
(٥) تضاغوا : صاحوا . (٦) تهورت : ذهبت وولت .
(٧) الرأل : ولد النعام . أو مامضى عليه حول ، وجمعه رئال .
(٨) وجأ : ضرب .
(٩) المزعة : القطعة من اللحم ، أو النتفة منه ، وإن نافية .
(١٠) العذل : اللوم . (١١) الخبل : الجن .

٢ — وأما هَرِمُ بن سنان فهو صاحب زهير الذى يقول فيه :

متى تُلاقِ على عِلاَّتِه هَرِماً … تَلْقَ السماحةَ فى خَلْق وفى خُلُق (١)

وكان سنانٌ أبو هرم سيدَ غطفان ، وفى بنى سنان يقول زهير :

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنسِبهُم … طابوا وطابَ من الأولاد ما ولدوا

لو كان يقْعد فوق الشمس من كَرَم … قومٌ بأولهم أو مَجْدهم قعدوا

جِنٌّ إذا فزعوا إنسٌ إذا أمنوا … مُرزَّءون بها ليلٌ إذا قُصِدوا (٢)

محسَّدون على ما كان من نِعَم … لا ينزع الله منهم ما لهُ حسدوا

* * *

٣ — وأما كعب بن مامة فلم يأت عنه إلا ما ذُكرَ من إيثاره رفيقه النمرى بالماء حتى ماتَ عطشاً ونجا النمرى .

وله يقول حبيب (٣) :

يجود بالنفس إن ضَنَّ البخيلُ بها … والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

٨

أجواد أهل الإسلام

١ — وأما أجوادُ أهل الإسلام فأحدَ عشر رجلا فى عصر واحد لم يكنْ قبلهم ولا بعدهم مثلهم .

فأجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد : عُبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

وأجواد البصرة خمسة فى عصر واحد ، وهم عبد الله بن عامر ، وعُبيد الله ابن أبى بكرة ، ومسلم بن زياد ، وعُبيد الله بن مَعمر القرشى ، وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبد الله ، وله يقول الشاعر يرثيه وقد مات بسجستان وهو وال عليها :

(١) على علاته : على كل حال .
(٢) مرزءون : كرماء . البهلول : السيد الجامع لكل خير ، وجمعه بهاليل .
(٣) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائى .

نَضَّرَ الله أعظماً دفنوها   بسجِسْتانَ طَلحةَ الطلحات

وأجواد الكوفة ثلاثة فى عصر واحد ، وهم عتاب بن ورْقاء الرِّياحى ، وأسماء ابن خارجة الفزارى ، وعِكرَمة بن رِبْعىّ الفياض .

* * *

٢ — فمن جود عبيد الله بن عباس أنه أتاهُ سائلٌ وهولا يعرفهُ فقال له : تصدق ، فإنى نُبِّئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه . فقال له : وأين أنا من عبيد الله ؟ قال : أين أنتَ منه فى الحسب أم فى كثرة المال ؟ قال : فيهما . قال : أما الحسبُ فى الرجل فمروءته وفعله ، وإذا شئت فَعلت ، وإذا فعلتَ كنتَ حسيباً. فأعطاه ألفىْ درهم واعتذر له من ضيق الحال . فقال له السائل : إن لم تكن عُبيدَالله بن عباس فأنتَ خيرٌ منه ، وإن كنتَ هو فأنتَ اليوم خيرٌ منك أمس . فأعطاه ألفاً أخرى ، فقال السائل : هذه هِزّةُ كريم حسيب ، والله لقد نَقَرْت حبةَ قلبى فأفرغتها فى قلبك ، فما أخطأتُ إلا باعتراض الشك بين جوانحى .

* * *

٣ — ومن جود عبد الله بن جعفر أنه أعطى امرأةً سألته ما لا عظيماً ، فقيل له : إنها لا تعرفُك ، وكان يُرضيها اليسير. قال : إن كان يُرْضيها اليسير فإنى لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانتْ لا تعرفنى فأنا أعرفُ نفسى .

* * *

٤ — ومن جود سعيد بن العاص أنه كان يسمرُ معه سُماره إلى أنْ ينقضى حينٌ من الليل ، فانصرف عنه القومُ ليلةً ورجلٌ قاعدٌ لم يَقمْ ، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة ، وقال : ما حاجتك يا فتى ؟ فذكر أن عليه دَيناً أربعة آلاف درهم فأمر له بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه .

* * *

٥ — ومن جود عبيد الله بن أبى بكرة أنه أدلى إليه رجلٌ بحُرمة ، فأمــر له بمائة ألف درهم. فقال : أصلحك الله، ما وصلنى أحدٌ بمثلها قط ولقد قطعت لسانى عن شُكر غيرك، وما رأيتُ الدنيا فى يد أحسنَ منها فى يدك ، ولولا أنتَ لم يَبقَ لها بهجة إلا أظلمتْ ، ولا نورٌ إلا انطمس .

كتاب الجمانة فى الوفود

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى الأجواد والأصفاد على مراتبهم ومنازلهم وما جَرَوْا عليه، وما نَدبوا إليه ، من الأخلاق الجميلة والجزيلة ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الوفود الذين وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الخلفاء والملوك، فإنها مقاماتُ فَضْل . ومَشاهدُ حفل . يُتخيرُ لها الكلامُ وتستهذبُ الألفاظ ، وتستجزَل المعانى . ولا بد للوافد عن قومه أن يكونَ عميدهم وزعيمهم الذى عن قوسه ينزعون[١] وعن رأيه يَصْدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يُعرب عن ألسنة . وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أو خليفته ، أو بين يدى مَلك جبار فى رغبة أو رهْبة ، يوطد لقومه مَرةً ويتحفظ ممن أمامه أخرى ، أتراه مُدخراً نتيجةً من نتائج الحكمة ، أو مستبقياً غريبةً من غرائب الفطنة ؟ أم تظن القومَ قَدموه لفضل هذه الخطة إلا وهو عندهم فى غاية الحذلَقة[٢] واللسن ، ومجمع الشعر والخطابة ! ألا ترى أن قيس ابن عاصم المنقرى لما وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بَسط له رداءه وقال : هذا سيدُ الوَبرَ !

٢
وفود نابغة بنى جعدة على النبى صلى الله عليه وسلم

وفد أبو ليلى نابغة بنى جَعدة على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فأنشدَه شعرهُ الذى يقول فيه :

(١) من قولهم : نزع فى القوس : مدها .
(٢) الحذلقة : إظهار الحذق والمقدرة .

بلغنـــا السماء مجدُنا وسناؤنا وإنا لنبغى فوق ذلك مَظهراً

قال له النبي : إلى أينَ أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال النبي : إن شاء الله . فلما انتهى إلى قوله :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم تكنْ له بوادرُ تحمى صفوه أن يكدرا (١)

قال له النبي : لا يفضُض (٢) الله فاكَ .

فعاش مائة وثلاثين سنة لم تسقط له سنّ ؛ وبقى حتى وفد على عبد الله بن الزبير فى أيامه بمكة وامتدحه . فقال له : يا أبا ليلى ، وإنّ أدنى وسائلكَ عندنا الشعر ، لك فى مال الله حقان ، حق برؤيتك رسولَ الله ، وحق بشركتك أهل الإسلام فى فيئهم (٣) .

ثم أحسنَ صلته وأجازه .

٣

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب

وفد الأحنفُ وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأراد أن يُقرع بينهما فى الرياسة ، فلما اجتمعتْ بنو تميم قال الأحنف :

ثَوَى قدحٌ عن قومه طالما ثوى فلما أتاهمْ قال قوموا تناجزُوا

فقال عمرو بن الأهتم : إنا كنا وأنتم فى دار جاهلية فكان الفضلُ فيها لمن جهل ، فسفكنا دماءكُم وسبينا (٤) نساءكم ، وإنا اليومَ فى دار الإسلام ، والفضْلُ فيها لمن حلم ، فغفر اللهُ لنا ولك .

فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ، ووقعت القرعة لآل الأهتم ، فقال عمرو بن الأهتم :

---

(١) البادرة : ما يبدر من الحدة فى الغضب من قول أو فعل ، وشباة السيف .
(٢) لا يسقط الله أسنانك .
(٣) الفيء : الخراج والغنيمة .
(٤) سبى : أسر .

لمـــا دعتني للرياسة منقرٌ لدى مجْلس أضحى به النجم باديا
شددت لها أزْرى وقد كنت قبلها لأمثالهـــا مما أشد إزاريا

٤
وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق

وَفَد أهلُ اليمامة على أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، بعد إيقاع(١) خالد بهم وقتله مُسليمة الكذاب ، فقال لهم أبو بكر : ما كان يقول صاحبكم ؟ قالوا : أعفنا يا خليفةَ رسول الله . قال : لا بد أن تقولوا . قالوا : كان يقول : يا ضِفْدع ، كم تنقّين(٢) ، لا الشرابَ تمنعين ، ولا الماءَ تكدّرين ، لنا نصفُ الأرض ولقريش نصفها ، ولكنْ قريشٌ قومٌ لا يعدلون .

فقال لهم أبو بكر : ويحكم ، ما خرج هذا من إلّ ولا برّ ، فأين ذهب بكم ؟

قال أبو عبيد : الإلّ : الله تعالى . والبر : الرجل الصالح .

٥
وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية

وفد عبدُ العزيز بن زُرارة على معاوية — وهو سيدُ أهل الكوفة — فلما أذنَ له . وقف بينَ يديه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، لم أزَلْ أهزُّ ذوائبَ الرحال إليك ، إذْ لم أجد معولاً(٣) إلا عليك ، أمتطى(٤) الليل بعد النهار ، وأسِم(٥) المجاهلَ

(١) أوقع بهم : بالغ فى قتالهم .
(٢) نقت : صوتت ، وصوتها يسمى النقيق .
(٣) عول عليه : اعتمد واتكل .
(٤) امتطى الليل : جعله مطية . يريد : سار فيه .
(٥) أسم ، من الوسم ، وهو التأثير فى الشىء .

بالآثار ، يقودُنى إليكَ أملٌ ، وتسوقنى بَلوى ، والمجتهدُ يعذر ، وإذا بلغت فَقَطْنى (١) .

قال معاوية : احطط عن راحلتك رحلَها .

٦
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

لما ولى الحجاجُ بن يوسف الحرَمين ، بعد قَتله ابن الزبير ، استخلص إبراهيمَ بن طلحة ، فقربه وعظم مَنزلته ، فلم تَزَلْ تلك حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعادلاً (٢) ، لا يقصرُ له فى بر ولا إعظام ، حتى حضر به عبدَ الملك ، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلاّ أنْ قال له : قدْمتُ عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدَعْ له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وحُسن المذهب ، مع قرابة الرحم ووجوب الحق ، وعظم قَدر الأبوّة ، وما بَلوْتُ (٣) منه فى الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة ، وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة ، وقد أحضرْته بابَك ليسهلَ عليه إذنك ؛ وتعرف له ما عَرّفتك . فقال : أذْكرتنا رَحماً قريبة وحقاً واجباً ، يا غلام ، ائذن لإبراهيم ابن محمد بن طلحة .

فلما دخل عليه أدناهُ عبدُ الملك حتى أجلسه على فراشه ثم قال له : يابنَ طلحة ؛ إن أبا محمد (٤) ذكّرنا ما لم نَزَلْ نعرفك به فى الفضْل والأدب والمروءة وحُسن المذهب ، مع قَرابة الرحم ووجوب الحق ، وعظم قَدْر الأبوة ، وما بَلاَه منك فى الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة ، فلا تَدعنّ حاجةً فى خاصة نَفسك وعامتك إلا ذَكرْتها .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أولى الحوائج وأحق ما قُدم بين يدى الأمور

(١) أى يكفينى .

(٢) مسوياً بينه وبين نفسه .

(٣) بلوت : خبرت .

(٤) هو الحجاج .

ما كان لله فيه رضًا ، ولحق نبيه — صلى الله عليه وسلم — أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة . وعندى نصيحة لا أجد بُدًّا من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأخلنى يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتى . قال : دون أبى محمد ؟ قال : نعم . قال عبد الملك للحجاج : قم . فلما خطرف الستر (١) أقبل على فقال : يابن طلحة ؛ قل نصيحتك ، فقال : تالله يا أمير المؤمنين ، لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرسه وتعجرفه وبعده من الحق ، وقربه من الباطل ، فوليته الحرمين ، وهما ماهما ، وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالى والأخيار ، يطؤهم بطغام (٢) أهل الشام ورعاع لا روية لهم فى إقامة حق ، ولا فى إزاحة باطل ، ويسومهم الخسف (٣) ، ويحكم فيهم بغير السنة ، بعد الذى كان من سفك دمائهم وما انتهك من حرمهم ، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق (٤) . وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك (٥) للخصومة بين يدى الله فى أمته . أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة ، فاربع (٦) على نفسك أودع .

فقال له عبدُ الملك : كذبتَ ومِنتَ (٧) ، وظن بك الحجاجُ ما لم يجده فيك ، وقد يُظن الخير بغير أهله . قم فأنتَ الكاذب المائن .

قال : فقمتُ وما أعرف طريقًا ، فلما خطرف الستر لحقنى لاحقٌ ، فقال : احبسوا هذا ، وقال للحجاج : ادخلْ . فدخل . فمكث مليًّا من النهار لا أشك أنهما فى أمرى ، ثم خرج الآذنُ فقال : ادخلْ يابنَ طلحة . فلما كشف لى الستر لقينى الحجاجُ وهو خارجٌ وأنا داخل ، فاعتنقنى وقبل ما بين عينىّ ، وقال : أما إذا جزى الله المتواخين خيراً بفضل تواصلهم فجزاكَ الله عنى أفضلَ الجزاء . فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعن ناظرك ولأعلينّ كعبك ؛ ولأتبعنّ الرجالَ غبارَ قدميك . فقلت : يهزأ بى وحق الكعبة .

---

(١) خطرف الستر : استرخى . (٢) الطغام : أوغاد الناس .
(٣) سامه الخسف : أولاه الذل ، وأراده عليه .
(٤) زاهق : باطل ذاهب .
(٥) المجاثاة فى الخصومة : أن يجلس كل على ركبتيه مستوفزا . ومنه حديث على رضوان الله عليه : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله عز وجل .
(٦) أربع على نفسك : ارفق . (٧) المين : الكذب .

فلما وصلتُ إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى عن مجلسى الأول ، ثم قال : يا بنَ طلحة ، لعل أحداً شاركك فى نصيحتك هذه ؟ قلت : والله يا أميرَ المؤمنين ما أعلمُ أحداً أنصحَ عندى يداً ولا أعظم معروفًا من الحجاج ، ولو كنتُ محابيًا أحداً لعَرض الدنيا لحابيته ، ولكنى آثرتُ اللهَ ورسوله ، وآثرتُكَ والمؤمنين عليه . قال : قد علمت أنك لم تُرد الدنيا ، ولو أردتَها لكانتْ لك فى الحجاج . ولكن أردتَ اللهَ والدارَ الآخرة ، وقد عَزَلتهُ عن الحرمين لما كرهتَ من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتنى له عنهما استقلالاً لهما ، ووليته العراقين ، وما هنالك من الأمور التى لا يُدحضُها[1] إلا مثله ، وأعلمته أنك استدْعيتنِى إلى ولايته عليها استزادةً له ؛ لألزمه بذلك من حقك ما يؤدى إليك عنى أجرَ نصيحتك ، فاخرجْ معه فإنك غيرُ ذَام لصحبته .

فخرجت مع الحجاج . وأكرمنى أضعافَ إكرامه .

١

وفود بكارة الهلالية على معاوية

قال الشعبي : استأذنتْ بكَّارةُ الهلاليةُ على معُاويةَ بن أبى سفيان ، فأذن لها ، وهو يومئذ بالمدينة ، فدَخلتْ عليه ، وكانت امرأةً قد أسنَّتْ وعَشِيَ[2] بَصرُها وضَعفتْ قوتها ، تَرْعش[3] بين خادمين لها ، فسلمتْ وجلستْ ، فرد عليها معاويةُ السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أميرَ المؤمنين . قال : غيرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غِيَر[4] ، من عاش كبر ، ومن مات قُبر . قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاستثر من دارنا سيفًا حُسامًا فى التراب دفينا

---

(١) أدحضه : أبطله ، أى لا يقضى عليها إلا مثله .

(٢) العشا : سوء البصر بالليل ، أو سوء البصر بالليل والنهار ، أو العمى .

(٣) ترعش : ترتعش وترتعد .

(٤) غير الدهر : أحداثه .

قد كنتُ أذْخَره ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزّمانُ مَصونا[١]

قال مروان : وهى والله القائلة يا أميرَ المؤمنين :

أترى ابنَ هند للخلافة مَالكًا هيهاتَ ذاك ، وإن أراد ، بعيدُ
مَنَّتكَ نَفسك فى الخلاء ضلالة أغرَاك عَمرٌو للشقا وسَعيدُ

قال سعيد بن العاصى : هى والله القائلة :

قد كنتُ أطمع أن أموتَ ولا أرَى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخـــر مُدتى فتطاوَلتْ حتى رأيتُ من الزمان عَجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهـُم بين الجميع لآل أحمدَ عَائبا

ثم سكتوا ، فقالت : يا معاوية . كلامك أعشى بَصرى ، وقصَّر حُجتى ، أنا والله قائلةٌ ما قالوا ، وما يخفى عليك منى أكثر . فضحك وقال : ليس َيمنعنا ذلك من برك ، اذكرى حاجتك . قالت : أما الآن فلا .

(١) أذخره : أدخره .

كتاب الياقوتة فى العلم والأدب

١

فرش الكتاب

قال أبو عُمر أحمد بن محمد بن عبد ربه :

قد مضى قولُنا فى مخاطبة الملوك ومقاماتهم ، وما تَفننوا فيه من بديع حِكمهم ، والتزلف إليهم بحسن التوصل ولطيف المعانى ، وبارع مَنطقهم واختلاف مذاهبهم . ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه فى العلم والأدب ، فإنهما القطبان اللذان عليهما مَدارُ الدين والدنيا ، وفَرقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية ، وهما مادةُ العقل وسرَاج البدن ، ونورُ القلب ، وعمادُ الروح . وقد جعل الله بلطيف قُدْرته ، وعظيم سلطانه ، بَعضَ الأشياء عَمداً[١] لبعض ، ومتولداً من بعض ؛ فإجالةُ الوَهم فيما تدركه الحواس تَبعثُ خواطرَ الذكر ، وخواطرُ الذكر تُنبه رَوية الفكر ، ورَوية الفكر تثير مكامن الإرادة ، والإرادةُ تحكم أسبابَ العمل ، فكل شىء يقوم فى العقل ويمثلُ فى الوَهْم يكون ذكراً ثم فكراً ثم إرادة ثم عملاً . والعقل متقبلٌ للعلم ، لا يَعمل فى غير ذلك شيئًا . والعلم علمان : علم حُمِل ، وعلم استعمل ، فما حُمل منه ضر ، وما استعمل نفع .

والدليل على أن العقل إنما يعملُ فى تقبل العلوم كالبصر فى تقبل الألوان ، والسمع فى تقبل الأصوات ، أن العاقلَ إذا لم يُعلم شيئًا كان كمن لا عَقل له ، والطفلَ الصغير لو لم تعرفه أدبًا وتلقنه كتابًا ، كان كأبله البهائم وأضلّ الدوابّ ؛ فإن زعم زاعمٌ فقال : إنا نَجد عاقلا قليلَ العلم ، فهو يستعمل عَقله فى قلة علمه فيكون أسَدّ رَأيًا ، وأنبه فطنةً ، وأحسنَ مواردَ ومصادرَ ، من الكثير العلم مع قلة العقل . فإن حُججنا عليه ما قَدْ ذكرناه من حَمْل العلم واستعماله ،

---

(١) العمد : الأعمدة .

فقليلُ العلم يستعمله العقل خيرٌ من كثير يحفظه القلب .

قيل للمهلب : بم أدركتَ ما أدركتَ ؟ قال : بالعلم . قيل له : فإن غيرَك قد عَلِم أكثرَ مما عَلمتَ ، ولم يُدرِكْ ما أدركتَ . قال : ذلك علمٌ حُمل وهذا علمٌ استعمل .

وقالت الحكماء : العلمُ قائدٌ ، والعقل سائق ، والنفس ذَوْد[١] ؛ فإذا كان قائدٌ بلا سائق هلكت الماشيةُ ، وإنْ كان سائقٌ بلا قائد أخذَت يمينًا وشمالاً ، وإذا اجتمعا أنابت[٢] طَوعًا أو كرهًا .

٢

الحض على طلب العلم

١ ــ قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يزال الرجلُ عالمًا ما طَلب العلم ، فإذا ظَن أنه قد عَلِم فقد جَهل .

٢ ــ وقيل لأبى عَمرو بن العلاء : هل يَحسن بالشيخ أنْ يتعلم ؟ قال : إن كان يَحسن به أن يعيش فإنه يَحسن به أن يتعلم .

٣ ــ وقال ملك الهند لولده ، وكان له أربعون ولدًا : يابَنِى ، أكثروا من النظر فى الكتب ، وازدادوا فى كل يوم حرفًا ؛ فإن ثلاثة لا يستوحشون فى غُربة : الفقيه العالم ، والبطل الشجاع ، والحُلو اللسان الكثير مخارج الرأى .

٤ ــ وقال المهلب لبنيه : إياكم أن تجلسوا فى الأسواق إلا عند زرّاد[٣] أوْ ورّاق .

أراد الزراد للحرب ، والوراق للعلم .

٥ ــ وقال الشاعر :

نعمَ الأنيس إذا خَلَوْت كتابُ ... تَلهو به إنْ خَانكَ الأحبابُ

---

(١) الذود : ثلاثة من الإبل إلى العشرة .
(٢) أنابت : رجعت وأقبلت .
(٣) الزرد : الدرع ، والزراد : صانعها .

لا مُفشيًا سرًّا إذا استودَعته ... وتفاد منه حكمةٌ وَصواب

٦ ــ وقال آخر :

ولكل طالبِ لذة مُتنزهٌ ... وألذ نزْهة عالم فى كتبه

٧ ــ وقال بعض الحكماء : اقصد من أصناف العلْم إلى ما هو أشهى لنفسك، وأخفّ على قلبك ، فإن نفاذك فيه على حَسب شَهوتك له ، وسهولته عليك .

٣

شرائط العلم وما يصلح له

١ ــ قالوا : لا يكونُ العالم عالمًا حتى تكون فيه ثلاثُ خصال : لا يَحتقر مَن دونه ، ولا يَحسد مَنْ فوقه ، ولا يأخذُ على العلم ثمنًا .

٢ ــ ودخل رجلٌ على عبد الملك بن مَرْوان ، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجَدَ عنده علمًا ، فقال له : أنَّى لك هذا ؟ فقال : لم أمنعْ قط يا أمير المؤمنين علمًا أفيده ، ولم أحتقرْ علمًا أستفيده ، وكنت إذا لقيتُ الرجلَ أخذت منه وأعطيته .

٤

العقل

١ ــ قال سحبان وائل : العقلُ بالتجارب ، لأن عقلَ الغريزة سلمٌ إلى عَقل التجربة .

٢ ــ وقال الحسن البصرى : لسانُ العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام تفكر ، فإذا كان له قال : وإن كان عليه سكت . وقَلبُ الأحمق من وراء لسانه ، فإذا أراد أن يقول قال ، فإن كان له سكت ، وإن كان عليه قال .

٣ ــ دخل رجلٌ على سليمان بن عبد الملك ، فتكلم عنده بكلام أعجبَ

سليمان، فأراد أنْ يختبره لينظرَ أعقْلُه علىقَدر كلامه أم لا ؟ فوجده مَضْعوفًا(١) ، فقال : فَضْلُ العقل على المنطق حكمةٌ ، وفضل المنطق على العقل هُجنةٌ(٢) ، وخيرُ الأمور ما صَدق بعضُها بَعضًا . وأنشد :

وما المرءُ إلا الأصْغَران لسانه ومعقوله ، والجسمُ خَلقٌ مصوّرُ
فإنْ تَرَ منه ما يَرُوقُ فربمـا أمرّ مذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ

ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول زهير :

وكائنْ تَرَى من صَامت لك معجب زيادتُـه أوْ نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يَبقَ إلا صورة اللحمِ والدمِ

٥
فصول من البلاغة

١ ــ دخل إياسُ بن معاوية الشام وهو غلامٌ ، فقدم خَصمًا له إلى قاض لعبد الملك ، وكان خَصْمُه شيخًا كبيراً ، فقال له القاضى : أتقدمُ شيخًا كبيراً ؟ فقال له إياسُ : الحق أكبرُ منه . قال له : اسكتْ . قال : فمَنْ ينطقُ بحجتى ؟ قال : ما أظنك تقول حقًّا حتى تَقوم . قال : أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ! فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر . فقال : اقض حاجته الساعةَ ؛ وأخرجْه من الشام حتى لا يُفسد علىّ الناس .

٢ ــ قالت أم جعفر ــ زُبيدة بنتُ جعفر ــ للمأمون حين دخلتْ عليه بعد قَتل ابنها : الحمدُ لله الذى ادخرَك لى لمَّا أثكلنى ولدى ، ما ثكلتُ ولداً كنتَ لى عوضًا منه. فلما خرجتْ قال المأمونُ لأحمد بن أبى خالد : ما ظننتُ أن نساءً جُبلنَ على مثل هذا الصبر !

---

(١) رجل مضعوف : ضعيف الرأى .
(٢) الهجنة فى الكلام : ما يلزمك منه العيب .

٦
صفة الحلم وما يصلح منه

١ ـ قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمتَ الحلمَ ؟ قال : منْ قيس بن عاصم المنقرى ، رأيته قاعداً بفناء داره مُحتبياً[١] بحمائل سيفه[٢] يحدثُ قومه ؛ حتى أتـِى برجل مكتوف ورجل مقتول . فقيل له : هذا ابنُ أخيك قتـلَ ابنك ! فوالله ما حلّ حبوتـَه ، ولا قـَطعَ كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه ، فقال له : يابنَ أخى ، أثمْـتَ بربك ، ورميتَ نفسك بسهمك ، وقتلتَ ابن عمك . ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بنىّ فـَوار أخاك ، وحُل كـِتافَ ابن عمك ، وسُقْ إلى أمه مائة ناقة ديةَ ابنها ، فإنها غريبة . ثم أنشأ يقول :

إنى امرؤٌ لا شائنٌ حـَسَبى ‌‌‌‌ ‌ دَنسٌ يـُهـَجـِّنـُه ولا أفن[٣]
من مِـنقر فى بيت مكرمـة ‌ ‌ والغصنُ ينبتُ حوله الغصْنُ
خطباء حين يقولُ قائلهم ‌ ‌ بيضٌ الوجوه أعفةٌ لُسُنْ[٤]
لا يـَفطنـون لعيب جارهم ‌ ‌ وهـُم لحفظ جوارهم فُطن

٢ ـ وسأل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كبيراً من كبراء الفرس : أى شىء لملوككم كان أحمدَ عندكم ؟ قال : كان لأردشير فـَضْلُ السبق فى المملكة ، غير أن أحمدهم سيرةً أنو شِـروان . قال : فأى أخلاقه كان أغلب عليه ؟ قال : الحلمُ والأناة . قال : هما تـَوءمان ينتجهما علوُّ الهمة .

---

(١) احتبى بالثوب : جمع بين ظهره وساقه بعمامة ونحوها .
(٢) حمالة السيف : مايعلق به .
(٣) شانه : عابه . الأفن : ضعف الرأى والعقل .
(٤) لسن : فيهم لسن ، أى فصاحة .

٧
باب السؤدد

١ — دخل ضَمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر ، وكان به دَمامةٌ(١) شديدةٌ ، فالتفتَ النعمان إلى أصحابه ، وقال : تسمع بالمعيدى خيرٌ من أنْ تراه(٢) :

فقال : أيها الملك ، إنمـــا المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإن قال قال ببيان ، وإن قاتَل قاتل بجَنان(٣) . قال : صدقت وبحق سودكَ قومُك .

٢ — وكان سَلم بنَ نوفل سَيدَ بنى كِنانة ، فوثب رجلٌ على ابنه وابن أخيه فجَرحهما ، فأتَى به ؛ فقال له : ما أمنك من انتقامى ؟ قال : فلم سَودْناك إذاً إلا أنْ تكظم الغيظ (٤) ، وتَحلم عن الجاهل ؛ وتحمل المكروه .

فخلّى سبيله ؛ فقال فيه الشاعر :

يَسوّد أقـــوامٌ وليسوا بسادة بل السيدُ الصنديدُ سلم بن نوفل(٥)

٨
اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

١ — قال شبيب بن شَيبة : إخوانُ الصفاء خيرُ مكاسب الدنيا ؛ هم زينةٌ فى الرخاء ؛ وعدةٌ فى البلاء ؛ ومعونةٌ على الأعداء .

---

(١) الدمامة : قبح الخلقة .

(٢) هذا مثل يضرب لمن خبره خير من رؤيته .

(٣) الجنان : القلب . يريد بشجاعة .

(٤) كظم غيظه : حبسه .

(٥) الصنديد : السيد الشجاع ، أو الحليم ، أو الجواد ، أو الشريف .

٢ — وقال الأحنف بن قيس :
خيرُ الإخوان إن استغنيتَ عنه لم يَزدكَ فى المودة ، وإن احتجتَ إليه لم ينقصْكَ منها ؛ وإن كوثرتَ [١] عضدك[٢] ؛ وإن استرفَدتَ رفدَك[٣] .

وأنشد :

أخوكَ الذى إن تدعه لملمة يُجبكَ وإن تَغضَبْ إلى السيف يَغضب

٩
بَاب فى الحياء

١ — قال النبي صلى الله عليه وسلم : الحياءُ خيرٌ كله . الحياء شُعبة من الإيمان .

٢ — وذكر أعرابى رجلاً حييًّا ، فقال : لا تراهُ الدهرَ إلا وكأنه لا غنى به عنك وإنْ كنتَ إليه أحوجَ ؛ وإن أذنبتَ غَفرَ وكأنه المذنب ؛ وإن أسأتَ إليه أحسن وكأنه المسىء .

٣ — ولبعضهم :

فلا وأبيكَ ما فى العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذَهبَ الحياء

٤ — وقال آخر :

إذا رُزق الفتى وَجْهًا وَقاحًا تقلّبَ فى الأمور كما يشاء[٤]
ولم يكُ للدواء ولا لشىء تعالجُه به فيه غَناء
ورُبّ قبيحة ما حالَ بينى وبين ركوبها إلا الحياءُ

٥ — ووصف رجلٌ الحياء عند الأحنف ، فقال : إن الحياء ليتم لمقدار من المقادير ، فما زاد على ذلك فسمه بما أحببتَ .

---

(١) كاثره : غلبه بالكثرة .
(٢) عضدك : أعانك .
(٣) استردفت : طلبت الرفد ، وهو العطاء . رفدك : أعطاك وأعانك .
(٤) وقاح : قل حياؤه .

١٠

باب فى آداب الحكماء والعلماء

منه فى فضيلة الأدبَ

من كلام علىّ عليه السلام: من حَلُم ساد ، ومن سادَ استفاد ، ومن استحيا حُرِم ، ومن هَاب خَاب ، ومن طلب الرياسة صبر على السياسة ، ومنْ أبصر عَيبَ نفْسه عمىَ عن عيب غيره ، ومن سَل سيفَ البغى قُتل به ، ومن احتفرَ لأخيه بئراً وَقع فيها ، ومَن نَسى زلته استعظم زَلة غَيره ، ومَن هتك حجاب غيره انتهكت عَوْراتُ بيته ، ومن كابرَ فى الأمور عَطب[١] ، ومن اقتحم اللججَ غَرق ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زَل ، ومن تجبر على الناس ذَل ، ومَن تعمق فى العمل مَلّ ، ومن صاحَبَ الأنذال[٢] حُقر ، ومن جالسَ العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومَنْ حسُنَ خُلقه سَهلتْ له طرقه ، ومَنْ حَسنَ كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومَنْ خشى اللهَ فازَ ، ومن استقادَ الجهل[٣] تركَ طريق العدل ، ومن عَرَف أجلَه قصر أمله . ثم أنشأ يقول :

البس أخاكَ على عيوبه واستر وَغطّ على ذنوبه
واصْبرْ على بَهت السفيه وللزمان على خُطوبهْ[٤]
ودع الجوابَ تفضلا وكِلِ الظلوم إلى حَسيبهْ

---

(١) العطب : الهلاك .
(٢) النذل : الخسيس السافل .
(٣) استقاد الجهل : جعل الجهل يقوده .
(٤) بهته : قال عليه ما لم يفعل .

١١
الأدب فى الحديث والاستماع

١ — قال بعضُ الحكماء لابنه : تعلمْ حُسنَ الاستماع كما تتعلم حسنَ الحديث ، وليعلم الناسُ أنك أحرص على أن تسمعَ منك ، على أنْ تقولَ . فاحذرْ أن تُسرعَ فى القول فيما تحب عنهُ الرجوعَ بالفعل ، حتى يعلمَ الناس أنك على فعلٍ ما لم تقلِ أقرب منك إلى قَوْل ما لم تفعل .

* * *

٢ — وقالوا : من حسن الأدب ألا تغالب أحداً على كلامه ، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا حَدّث بحديث فلا تنازعه إياه ، ولا تقتحم عليه فيه(١) ولا تره أنك تعلمه . وإذا كلمتَ صاحبك فأخذته حجّتك فحسِّنْ مخرجَ ذلك عليه ، ولا تُظهر الظفَر به ، وتعلمْ حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام .

١٢
باب الأدب فى العيادة

مرض أبو عَمرو بن العلاء ، فدخل عليه رجلٌ من أصحابه ، فقال له : أريدُ أن أساهرك الليلةَ . قال له : أنت معافى وأنا مبتلى . فالعافية لا تدَعك أن تَسهر ، والبلاءُ لا يَدعنى أن أنام ، وأسأل الله أن يَهب لأهل العافية الشكر ، ولأهل البلاء الصبر .

١٣
باب فى الكناية والتعريض

مرَض زيادٌ فدخل عليه شُريح القاضى يَعوده ، فلما خرج بعث إليه مسروق ابن الأجدع يَسأله : كيف تركتَ الأمير ؟ قال : تركتهُ يأمر وينهى . فقال

(١) لا تقتحم عليه فيه : لا ترم بنفسك وتدخل فيه .

مسروق : إن شُريحًا صاحب تَعريض فاسألوه . فسألوه فقال : تركته يَأمر بالوصية وَينهى عن البكاء .

١٤

باب فى تكليف الرجل ما ليس من طبعه

١ ــ قالوا : ليس الفقه بالتفقه ، ولا الفصاحة بالتفصح ؛ لأنه لا يَزيد متزيد فى كلامه إلا لنقص يَجدُه فى نفسه .

ومما اتفقت عليه العربُ والعجم قولهم : الطبع أملك .

٢ ــ وقالوا : إن مَلكًا من ملوك فارس كان له وزيرٌ حازم مجرب ، فكان يصدرُ عن رأيه ، ويتعرف اليُمْنَ فى مَشورته ؛ ثم إنه هلك ذلك الملك ، وقام بعده ولدٌ له مُعجَبٌ بنفسه مستبد برأيه ، فلم يُنزل ذلك الوزير منزلته ، ولا اهتبل(١) رَأيه وَمشورته .

فقيل له : إن أباك كان لا يَقطعُ أمراً دونه . فقال : كانَ يغلطُ فيه ، وسأمتحنه بنفسى . فأرسل إليه فقال : أيهما أغلبُ على الرجل ؛ الأدب أو الطبيعة ؟ فقال له الوزير : الطبيعة أغلب ، لأنها أصلٌ والأدب فَرْع ، وكل فرْع يَرْجع إلى أصله . فدعا الملكُ بسفرته ، فلما وضعت أقبلتْ سَنانيرُ بأيديها الشمع ، فوقفتْ حول السفرة ، فقال للوزير : اعتبر خطأكَ وَضعفَ مذهبك ، متى كان أبو هذه السنانير شماعًا ؟

فسكت عنه الوزير وقال : أمهلنى فى الجواب إلى الليلة المقبلة . فقال : ذلك لك .

فخرج الوزيرُ فدعا بغلام له فقال : التمسْ لى فأراً واربطه فى خيط ، وجئنى به . فأتاه به الغلام ، فعقدوه فى سبَنية(٢) ، وطرحه فى كمه ؛ ثم راح من

---

(١) اهتبل : اغتنم .

(٢) السبنية : ضرب من الثياب من الحرير .

الغد إلى الملك ، فلما حضرَتْ سُفرته أقبلت السنانير بالشمع حتى حَفت بها[١] ، فحل الوزير الفأر من سَبنيته ، ثم ألقاه إليها ، فاستبقت السنانيرُ إليه ، ورمت الشمع حتى كاد البيت يضطرمُ عليهم ناراً . فقال الوزير : كيف رأيتَ غلبة الطبيعة على الأدب ، ورُجوع الفرْع إلى أصله ؟ قال : صدقت . ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه .

فإنما مدارُ كل شيء على طبعه ، والتكلف مذموم من كل وَجه . قال الله لنبيه : قل يا محمد « وَمَا أنا منَ المتكلفينَ » .

وقالوا : من تَطبع بغير طَبعه نزعَته العادة حتى تردّه إلى طبعه ، كما أن الماء إذا أسخنته ثم تركته ساعة عاد إلى طبعه من البرودة . والشجرة المرّة لو طَليتها بالعسل لا تثمر إلا مُرًّا .

(١) حفت : أحاطت .

كتاب الجوهرة فى الأمثال

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

قد مضى قولُنا فى العلم والأدب وما يتولد منهما ، وينسبُ إليهما من الحكم النادرة ، والفطن البارعة ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الأمثال التى هى وَشْىُ الكلام ، وَجوهر اللفظ ، وحَلى المعانى ، والتى تخيَّرتْها العرب ، وقدمتها العجم ، ونُطق بها فى كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرفُ من الخطابة . لم يَسرْ شىءٌ مَسيرَها ، ولا عمّ عُمومها ، حتى قيل : أسيَرُ من مثل . وقال الشاعر :

ما أنتَ إلا مَثلٌ سائرٌ يعرفه الجاهلُ والخابر(١)

٢
من أمثال الرسول

قال لأبى سفيان : أنت أبا سفيان كما قالوا: كلُّ الصيد فى جَوْف الفَرَا(٢)

وقال حين ذكر الغلوّ فى العبادة : إن المنبت لا أرضًا قَطع ، ولا ظَهراً أبقى(٣) .

وقال : لا يُلدغ المؤمنُ منْ جحر مَرتين ؟

وقال : الحَرْب خُدعة(٤) .

---

(١) الخابر : العالم .

(٢) معناه أنك من الرجال كالفرا من الصيد ، وهو الحمار الوحشى — وقال له ذلك يتألفه على الإسلام .

(٣) إن المغذ فى السير إذا أفرط فى الإغذاذ عطبت راحلته من قبل أن يبلغ صاحبه أو يقضى سفره ، فشبه بذلك من أفرط فى العبادة .

(٤) يريد أنها بالمكر والخديعة .

٣
مثل فى الرياء

قال وهب بن مُنبه : نَصَبَ رجلٌ من بنى إسرائيل فخًّا فجاءت عُصفورة فنزَلتْ عليه ، فقالت : مالى أراكَ منحنيًا ؟ قال : لكثرَة صلاتى انحنيت .

قالت : فمالى أراك باديةً عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بَدَتْ عظامى .

قالت : فمالى أرى هذا الصوفَ عليك ؟ قال : لزُهدى فى الدنيا لبست الصوف .

قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأقضى بها حوائجى .

قالت : فما هذه الحبة التى فى يدك ؟ قال : قرْبانٌ إنْ مَر بى مسكين ناولته إياها .

قالت : فإنى مسكينةٌ ، قال : فخذيها .

فدنَتْ فقبضتْ على الحبة فإذا الفخ فى عُنقها . فجعلتْ تقول : قَعى قَعى . تفسيره : لا غرنى ناسك مراء بعدكَ أبدًا !

٤
من ضرب به المثل من الناس

قالت العرب : أسخى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مكدّم ، وأدْهى من قيس بن زهير ، وأعز من كليب وائل ، وأوفى من السموءل ، وأذكى من إياس بن معاوية ، وأسوَد من قَيس بن عاصم ، وأبلغ من سَحْبان وائل ، وأحلم من الأحنف بن قيس ، وأعيا من بَاقل ، وأحمق من هَبَنّقة(١) . وأفتك من البراض .

(١) بلغ من حمقه أنه ضل له بعير فجعل ينادى : من وجد بعيرى فهو له .

٥
من يضرب به المثل من النساء

يقال : أشأم من البَسُوس[١] ، وأبصر من زَرقاء اليمامة .

٦
ما تمثلوا به من البهائم

قالوا : أشجع من أسد ، وأحذَر من غرَاب ، وأظلم من حيَة ، وأعز من بَيض الأنوق[٢] .

٧
ما ضرب به المثل من غير الحيوانات

قالوا : أهدى من النجم ، وأجود من الديم[٣] ، وأسمحُ من البحر ، وأمضَى من السيل ، وأحمق من رِجْلة ، وأنزَهُ من رَوْضة ، وأوسع من الدهناء[٤] . وأوحش من مَفازَة ، وأثقل من جَبَل .

---

(١) وهى الناقة التى قتل من أجلها كليب ، وبسببها ثارت حرب البسوس .

(٢) الأنوق : الرخمة ، وعز بيضها أنه لا يظفر به ، لأن أوكارها فى رءوس الجبال والأماكن الصعبة .

(٣) الديمة : المطر يدوم ليس فيه رعد ولا برق ، وجمعه ديم .

(٤) الدهناء : الفلاة .

٨
ومما ضربوا به المثل

قولهم : قَوس حَاجب ، وقُرْط ماريَة[١] ، وشقائق النعمان[٢] ، وندامة الكسعىّ[٣] ، وحديث خُرافة ، وخُفا حُنين ، وعطر مَنْشم[٤] .

٩
من أمثال أكثم بن صيفى ، وبزرجمهر الفارسى

الغريب مَنْ لم يكن له حبيب . القريب مَنْ قَرُب نَفعه . لو تكاشفتم ما تدافعتم . الأخ مرآةُ أخيه . إذا عز أخوك فهن . كماتدين تدانُ . من مَأمَنه يؤتى الحذر . خَيرُ الغنى غنى النفس . لكل مقام مَقال . عند الصباح يَحمدُ القومُ السرى . الصدقُ مَنجاة والكذب مَهوَاة . خيرُ العلم ما نفع . الصحةُ داعية السقم . الشباب داعيةُ الهرم . الدالّ على الخير كفاعله . أنفك منك وإن كانَ أجدَع .

١٠
من أمثال العرب

١ — فى حفظ اللسان :

إن البلاء مُوكّل بالمنطق . رب كلام أقطعُ من حُسام . مقتل الرجل بين فكّيه .

---

(١) قرط مارية ، هى بنت ظالم .

(٢) شقائق النعمان نسبت إليه ، لأن النعمان أمر بأن تحمى وتضرب قبته فيها استحساناً لها فنسبت إليه .

(٣) الكسعى : اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكمن؛ فر قطيع فرمى فأصاب سهمه وصدم الجبل فأورى ناراً فظن أنه أخطأ ، فرمى ثانياً وثالثاً إلى آخرها وهو يظن خطأه ، فعمد إلى قوسه فكسرها ، بات فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطروحة فندم .

(٤) منشم : امرأة عطارة فكانوا إذا تطيبوا من ريحها اشتدت الحرب فصارت مثلا فى الشر .

٢ — إكثار الكلام وما يتقى منه :
مَن ضَاق صدرُه اتسعَ لسانه . المكثارُ كحاطب لَيْل .
وحاطبُ الليل ربما نهشتهُ الحية أو لسعته العقرب فى احتطابه ليلا .

٣ — فى الصمت :
الصمت حكْم (١) وقليلٌ فاعلهُ . الندم على السكوت خَيرٌ من الندم على الكلام .

٤ — صدق الحديث :
من صدَق الله نجا . الكذب داءٌ والصدق شفاء . لا يكذب الرائدُ أهله . القول ما قالت حَذَام(٢) .

٥ — مَنْ أصاب مرة وأخطأ مرة :
سَهمٌ لك وسَهمٌ عليك . يَشُجُّ مرةً ويَأسُو(٣) أخرى .

٦ — سوء المسألة وسوء الإجابة .
أساءَ سمعًا فأساءَ جابةً(٤) . إليك يساقُ الحديثُ .

٧ — الحديث يتذكر به غيرُه :
الحديثُ ذو شجون . ذكرتنى الطعنَ وكنتُ ناسيًا .

٨ — إنجاز الوعد :
أنجزْ حُر ما وَعد . وعدُ الحر فعلٌ ، ووَعدُ اللئيم تسويفٌ .

٩ — تَعيير الإنسان صاحبه بعيبه :
رمتنى بدائها وانسلتْ . تبصر القذى فى عين أخيك ولا تبصر الجذع فى عَينيك .

---

(١) حكم : حكمة .
(٢) اسم امرأة .
(٣) يأسو : يداوى .
(٤) الجابة : الإجابة .

١٠ ـــ خُلف الوعد :

ما وَعْدُه إلا بَرْقٌ خلَّب(١) . ما وَعْدُه إلا وَعْدُ عرقوب(٢) .

١١ ـــ الرجل يلقى قِرنه :

إن كنتَ ريحاً فقد لاقيت إعصاراً . الحديدُ بالحديدُ يفلح(٣) . ولا يَفُلُّ(٤) الحديدَ إلا الحديدُ .

١٢ ـــ الذل بعد العزّ .

كان جملا فاستنوق(٥) . ذلٌّ لو أجد ناصراً(٦) .

١٣ ـــ الفاضلان وأحدهما أفضل :

منه قولهم : مَرْعى ولا كالسعدَان(٧) . ماءٌ ولا كصَداء(٨) . فتى ولا كمالك(٩) .

١٤ ـــ إعجاب الرجل بأهله :

كل فتاة بأبيها مُعجبَة .

١٥ ـــ تشبيه الرجل بأبيه :

مَنْ أشبه أباه فما ظَلَم . العُصَيَّة من العصا . حَذْوَ النعل بالنعل .

١٦ ـــ العفو عند المقدرة :

ملكت فأسجحْ(١٠) . إن المقدرة تُذهبُ الحفيظة(١١) .

١٧ ـــ الأخذ فى الأمور بالاحتياط .

منه قولهُم : أن تَردَ الماء بماء أكيس(١٢) . اشترِ لنفسك وللسوق .

١٨ ـــ توسط الأمور :

لا تكن حُلوا فتُسْترط (١٣) ، ولا مُرًّا فتُعقى ، أى تُلفظ لمرَارَتك .

---

(١) هو الذى لامطر فيه .
(٢) هو رجل صار مثلا فى الخلف .
(٣) يفلح : يشق .
(٤) لايفل : لا يكسر .
(٥) استنوق : صار ناقة .
(٦) أى هذا ذل ، لو أجد ناصراً ما قبلته .
(٧) السعدان : نبت .
(٨) صداء : ركية أو عين ليس عندهم أعذب منها .
(٩) هو أخو متمم بن نويرة .
(١٠) ظفرت فأحسن .
(١١) الحفيظة : الغضب .
(١٢) الكيس : العقل ، وضد الحمق .
(١٣) تسترط : تبتلع .

١٩ — التأنى فى الأمر :

رب عجلة تَهبُ رَيْثًا .

٢٠ — وَضْع الشىء فى غير موضعه :

منه : كمستبضع[١] التمر إلى هَجَر — وهَجَر معدن التمر . كمعلمة أمها الرضاع .

٢١ — تأخير الشىء وقت الحاجة إليه :

منه : لا عطرَ بعد عُروس .

٢٢ — الرضا بالبعض دون الكل :

قد يركب الصعب مَنْ لاذَلول له . زوجٌ من عُود خير من قُعود .

٢٣ — إرسالك فى الحاجة من تَثق به :

أرْسلْ حكيما ولا تُوصه . لا يُرحلن رحْلكَ مَنْ ليس معك .

٢٤ — الظلم من نوعين :

منه : أحشفًا[٢] وسوءَ كيلة .

٢٥ — الكريم يهتضمه اللئيم :

لو ذاتُ سِوار لطمتنى .

٢٦ — المأخوذ بذنب غيره :

جانيك من يجنى عليك[٣] . ومنه :

إنى وَقتلى سُليكًا ثم أعقلـه[٤] كالثور[٥] يُضرب لما عافت البقر

يعنى عافت الماء .

---

(١) استبضعه : جعله بضاعة .

(٢) الحشف : أردأ التمر .

(٣) أى صاحب جنايتك . فلا تأخذ بالعقوبة غيره .

(٤) أعقله : أدفع ديته .

(٥) الثور : الطحلب ، وذلك أن البقار إذا أورد القطعة من البقر الماء فعافته وصدها عنه الطحلب ضربه ليفحص عن الماء فتشربه ، وقيل : الثور هو الذكر من البقر ، تتبعه فإذا عاف الماء عافته ، فضرب ليرد فترد معه .

كتاب الدرة فى النوادب والتعازى والمراثى

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

نحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى النوادب والمراثى والتعازى بأبلغ ما وجدناه من الفِطَر الذكية والألفاظ الشجية ، التى ترقّق القلوبَ القاسية ، وتُذيب الدموعَ الجامدة ، مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب ، فنادبةٌ تُثير الحُزْن من رَبْضته(١) ، وتَبعثُ الوَجْد(٢) من رَقْدته ، بصوت كترجيع الطير(٣) تُقطعُ أنفاسَ المآتم ، وتترك صَدْعًا فى القلوب الجلامِد(٤) ، ونادبة تخفضُ من نَشيجها(٥) ، وتَقصد فى نحيبها ، وتذهب مذهبَ الصبر والاستسلام ، والثقة بجزيل الثواب .

قال عُمر بن ذَرّ : سألتُ أبى ، ما بالُ الناس إذا وعظتهم بكوا ، وإذا وعظهم غيرُك لم يبكوا ؟ قال : يا بنىّ ، ليست النائحةُ الثكلى مثلَ النائحة المستأجرة .

وقال الأصمعى : قُلت لأعرابى : ما بال المراثى أشرفَ أشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقةٌ .

٢
الوقوف على القبر وتأبين الموتى

١ — وقف أعرابىٌّ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قلت فقبلنا ، وأمرتَ فحفظنا ، وبلغتَ عن ربك فسمعنا « ولَوْ أنهمْ إذْ ظلموا أنفسهمْ جاءوك

(١) ربضت الشاة : كبركت فى الإبل . (٢) الوجد : الحزن .
(٣) ترجيع الصوت : ترديده فى الحلق كقراءة أصحاب الألحان .
(٤) الجلامد : جمع جلمد ، الصخر .
(٥) نشج الباكى نشيجاً : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

فاستغفرُوا اللهَ واستغفرَ لهـُمُ الرسولُ لوجدوا الله توابًا رحيماً ». وقد ظـَلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفرْ لنا .

فما بقيتْ عينٌ إلا سالتْ .

٢ — وقف أبو ذرّ الهمدانىّ على قبر ابنه فقال : ياذرّ ، شغلنى الُحزن لك عنِ الُحزْن عليك ، فليتَ شعرى ما قلتَ ؟ وما قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إنى قد وهبتُ لك إساءته إلى ، فـَهبْ له إساءته إليك . فلما انصرف عنه التفت إلى قبره فقال : يا ذرّ ، قد انصرفنا وتركناك ولو أقمنا ما نـَفعناك .

٣

من رثى نفسه ووصف قبره

١ — قال مالك بن الريب يـَرْثى نفسه ويـَصف قبره ، وكان خرج مع سعيد ابن عثمان بن عفان لما ولى خـُراسان ، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يـَلبس خـُفه ، فإذا بأفعى فى داخلها فلسعته ، فلما أحسّ الموتَ استلقى على قفاه ، ثم أنشأ يقول :

دَعانى الهوى من أهل أود وصحبتى ... بذى الطَّبسين فالتفت ورائيا[1]
فما راعنى إلا سـَوابقُ عـَـبرَة ... تقـَنَّعتُ منها — أن ألام — ردائيا
ألمْ تـَرَنى بعتُ الضلالة بالهدى ... وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
فللـه درى حين أتركُ طائعـًا ... بـَنىَّ بأعلى الرَّقمتين ومـَاليا
ودَرُّ كبـيرىَّ اللذين كلاهما ... علىَّ شفيقٌ ناصحٌ لو نـَهانيا
ودَر الظباء السانحات عـَشيةً ... يـُخبرنَ أنى هالكٌ من أماميا
تقولُ ابنتى لما رأت وَشكَ رحْلتى ... سـِفارك هذا تاركى لا أباليا[2]
ألا ليتَ شعرى هل بكت أم مالك ... كما كنتُ لو عالوا نعيك باكيا[3]

---

(١) أود : موضع فى ديار بنى تميم . الطبسان : بابا خراسان . وقيل : كورُتان بها .
(٢) السفار : السفر . (٣) عالوا نعيك : أظهروه .

إذا متّ فاعتادى القبورَ وسلمى . عليهن أسقين السحاب الغواديا(١)
على جـَدث قد جرّت الريح فـَوْقه ترابـًا كسحق المرنـَبانىّ هابيا(٢)

٢ ــ وقال هـُدبة العذرى لما أيقن الموت :

ألا عـَللانى قبل نـَوح النوائح وقبل اطلاع النفس بين الجوانح
وقبلَ غد ! يالهفَ نفسى على غـَد إذا رَاح أصْحابى ولستُ برَائح
إذا رَاح أصحابى بفيض دموعهم وغـُودرْت فى لَحد علىّ صَفائحى(٣)
يقولون هل أصلحتمُ لأخيكم وما الرمس فى الأرض القـَواء بصالح(٤)

٤
من رثى ابنه

١ ــ قال أبو ذُؤَيب الهذلى ، وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم إلا طفلاً ، فقال يرثيهم :

أمنَ المنـــون وريبة تتوجـــعُ والدهرُ ليس بمعتب مـَن يجزع(٥)
قالت أميمةُ ما لجسمك شـَاحبـًا منذُ ابتذلت ومثل مالك يـَنفع(٦)
أمْ ما لجسمك لا يلائمُ مضْجعـًا إلا أقضّ عليك ذاك المضْجع(٧)
فأجـَبتهـــا ، أنْ ما لجسمى أنه أودى بنىّ من البلاد فوَدّعوا(٨)
أوْدى بـَنىّ وأعقبونى حـَسرَةً بعد الرقاد وعـَبرةً ما تـُقلعُ

---

(١) الغادية : السحابة تنشأ صباحاً .
(٢) الجدث : القبر . السحق : الخلق . المرنبانى ، كساء من خز . ويقال ، مطرف من وبر الإبل ، أو لونه كلون الأرنب . هابيا : منتشرا .
(٣) الصفائح : حجارة عراض رقاق .
(٤) الرمس : القبر . القواء : القفر من الأرض .
(٥) معتب : راجع عما تكره إلى ماتحب .
(٦) ابتذلت : امتهنت نفسك فى الأعمال ، لموت من كان يكفيك أمر ضيعتك من بنيك .
(٧) أقض عليك : أى صار تحت جنبك مثل القضض ، أى الحصى . ويريد : كأن تحت جنبك حصى يقلقك ويمنعك النوم .
(٨) أودى بنى : هلكوا . يريد أنه أجابها بأن الذى أنحل جسمه وأهزله هلاك بنيه .

سبقوا هَوَىَّ وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ، ولكل جنب مَصرَع [(١)]
فبقيتُ بعدهم بعيْش ناصب ... وإخالُ أنى لا حقٌ مستتبعُ
ولقد حَرصْتُ بأن أدافع عنهم ... وإذا المنيةُ أقبلتْ لا تدفَعُ
وإذا المنيــة أنشبتْ أظفارَها ... ألفيتَ كل تميمة لا تَنفعُ

وقال فى الطفل الذى بَقِى له :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتهــا ... وإذا تُرد إلى قليل تقنَع

وقال الأصمعى : هذا أبدع بيت قالته العرب .

٢ — وقيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عَزاءك ؟ قالت : إن فَقْدى إياه آمننى كل فَقد سواه ، وإن مُصيبتى به هونتْ علىّ المصائب بعده . ثم أنشأت تقول :

مَنْ شاء بعدك فليمتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ
كنتَ السوادَ لناظرى ... فبكى علَيك الناظــرُ
ليت المنــازلَ والديا ... ر حفــائرٌ ومقابرُ
إنى وغــيرى لا مَحا ... لةَ حيث صرتَ لَصائرُ

٣ — خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوماً إلى بَقيع الغرقَد[(٢)] ، فإذا أعرابى بين يديه ؛ فقال : يا أعرابى ؛ ما أدْخلك دارَ الحقّ ؟ ! قال : وديعةٌ لى ها هُنا منذ ثلاث سنين . قال : وما وَديعتك ؟ قال : ابنٌ لى حين ترعرع فقدتُه ، فأنا أندبه . قال عمر : أسمعنى ما قلتَ فيه ، فقال :

يَا غائباً ما يَؤوب من سَفره ... عاجَله موتُه على صغره
ياقُرّة العين كنتَ لى سكناً ... فى طول ليلى ، نَعمْ وفى قصره
شَربتَ كأساً أبوك شاربها ... لا بدّ يوماً له على كبره
أشربهــا والأنام كُلهم ... مَنْ كان فى بدوه وفى حَضره

---

(١) هوى : هواى . أعنقوا : أسرعوا . تخرمتهم المنية ، أخذتهم واستأصلتهم .
(٢) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .

فالحمــدُ لله لا شريكَ له — الموتُ فى حكمه وفى قدره
قد قسم الموتَ فى الأنام فما — يَقدرُ خَلقٌ يزيد فى عُمره

قال عمر : صدقتَ يا أعرابى ، غير أن الله خيرٌ لك منه .

٥

من رثى إخوته

١ — قال كعب يرثى أخاه أبا المغوار :

تقول سُليمى ما لجسمك شاحبًا — كأنك يحميك الطعامَ طبيب
فقلت شُجونٌ من خطوب تتابعتْ — علىّ كبارٌ والزمان يَريب
لعمرى لئن كانتْ أصابتْ منيةٌ — أخى والمنايا للرجال شَعوب(١)
فإنى لباكيه وإنى لصادقٌ — عليه ، وبعض القائلين كذوب
أخى ما أخى لا فاحشٌ عند بيته — ولا وَرَعٌ عند اللقاء هيوب(٢)
أخٌ كان يكفينى وكان يُعيننى — على نائبات الدهر حين تَنوب
هو العسل الماذىّ لينًا وشيمةً — وليثٌ إذا لاقى الرجال غَضوب(٣)
هَوت أمه ؛ ما يبعث الصبح غاديًا — وماذا يرد الليلَ حين يؤوب(٤)
كعالية الرمح الردينى لم يكن — إذا ابتدر الخيلَ الرجال يخيب(٥)
وداع دعا يا من يجيب إلى الندا — فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت : ادعُ أخرى وارفع الصوت ثانيًا — لعلّ أبى المغوار منك قريب
يجبك كما قد كان يفعل إنه — بأمثالها رَحب الذراع أريب

(١) شعوب : مفرقة . وشعوب : من أسماء المنية .
(٢) ورع : جبان ضعيف .
(٣) الماذى : الأبيض ، وهو أجود العسل .
(٤) هوت أمه : أى هلكت ، يريد به استعظام الحزن عليه .
(٥) عالية الرمح : النصف الذى يلى السنان . أراد أنه كالرمح فى طوله وتمامه . ابتدروا الخيل : أسرعوا إليها .

وحَدّثتمانى أنمـا الموتُ بالقُرَى ... فكيف وهاتا هَضْبةٌ وكثيبُ[(١)]
فلو كانت الموتى تُباع اشتريته ... بما لم تكن عنه النفوسُ تطيبُ
بعينىّ ، أو يُمنى يَدى ، وخلتنى ... أنا الغانم الجذلان حين يؤوب

٦

من رثت زوجها

قال الأصمعى : دَخلت بَعضَ مقابرِ الأعراب ، ومعى صاحبٌ لى ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثالٌ ، وعليها من الحلى والحُلل ما لم أرَ مثله ، وهى تبكى بعين غَزيرة وصوت شجىّ ، فالتفتُّ إلى صاحبى ، فقلت : هل رأيتَ أعجبَ من هذه ؟ قال : لا ، والله ، ولا أحسبنى أراه . ثم قلت لها : يا هذه ، إنى أراك حزينة وما عليك زىُّ الحزْن ، فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حُزْنى فإننى ... رهينــةُ هذا القــبر يا فتيان
وإنى لأستحييــه والتربُ بيننا ... كما كنت أستحييهِ حين يَرانى

ثم اندفعت فى البكاء ، وجعلت تقول :

يا صاحبَ القبر يا من كان ينعمُ بى ... بالا ويكثرُ فى الدنيــا مواساتى
قد زُرت قبركَ فى حَلى وفى حُلل ... كأننى لست من أهل المصيبات
أرَدتُ آتيك ، فيما كنت أعرفه ... أن قد تُسرُّ به من بعض هيئاتى
فَمن رآنى رأى عَبْرى موَلهةً ... عجيبةَ الزىّ تبكى بين أموات[(٢)]

---

(١) قلتما : إنما الموت فى القرى وهأنذا قد خرجت به إلى الفلاة .
(٢) موطهة : شديدة الحزن .

كتاب كلام الأعراب

١

فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : نحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى كلام الأعراب خاصة ، إذ كان أشرَفَ الكلام حَسَباً ، وأكثره رَونقًا ، وأحسنه ديباجًا ، وأقله كلفة ، وأوضحه طريقة .

٢

قال رجلٌ من منقر : تكلم خالدُ بن صفوان بكلام فى صُلح لم يَسمع الناس كلامًا قبله مثله ، وإذا بأعرابىّ فى بَتٍّ[١] ما فى رجليه حذاء ، فأجابه بكلام وددتُ أنى متّ قبل أنْ أسمعه ، فلما رأى خالدٌ ما نزلَ بى قال لى : ويحك ؟ كيف نُجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجرى بما سبق إلينا من أعراقهم . قلت له : أبا صفوان ، والله ما ألومُك فى الأولى ، ولا أدع حَمدك على الأخرى .

٣

وَتكلم ربيعةُ الرأى يومًا بكلام فى العلم فأكثرَ ، فكأن العجب داخله ، فالتفتَ إلى أعرابىّ إلى جنبه فقال : ما تَعدونَ البلاغة يا أعرابىّ ؟ قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تَعدّون العىّ ؟ قال : ما كنتَ فيه منذ اليوم ! فكأنما ألقمه حَجراً .

---

(١) البت : كساء غليظ .

٤
قولهم فى المواعظ والزهد

قال الأصمعى : خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ[١] ، وحضر غَدَاؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيًّا فى شَمْلة[٢] فأتوه به ، فقال له : هَلُم . قال له : قد دعانى مَنْ هو أكرم منك فأجبته . قال : ومَنْ هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى ، دَعانى إلى الصوم فأنا صائم. قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حَرّ ؟ قال : صُمتُ ليوم هو أحر منه . قال : فأفطر اليومَ وصُم غداً . قال : ويضمنُ لى الأمير أن أعيشَ إلى غد ؟ قال : ليس ذلك إلى . قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل . قال : إنه طعام طيب . قال : والله ما طيبه خبَازُك ولا طباخك ، ولكنْ طيبته العافيةُ . قال الحجاجُ : تالله ما رأيتُ كاليوم . أخرجُوه عنى .

---

(١) أصحر الرجل : خرج إلى الصحراء .
(٢) الشملة : كساء يشتمل به .

كتاب المجنبة فى الأجوبة

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مَضَى قولنا فى كلام الأعراب خاصة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الجوابات التى هى أصْعب الكلام كله مَركَباً، وأعزه مَطلباً، وأغمضُه مَذهباً، وأضيقُه مَسلكاً، لأن صاحبه يُعجلُ مناجاةَ الفكرة، واستعمالَ القريحة، يرومُ فى بديهة نَقض ما أبرمَ فى رَوية، فهو كمن أخذَتْ عليه الفجاجُ[1] وسُدت عليه المخارجُ، قد تعرضَ للأسنة واستهدف للمرامى، لا يدرى ما يُقرعُ به فيتأهب له، ولا ما يفجؤه من خَصْمه فيَقرعُه بمثله، ولا سيما إذا كان القائلُ قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه، بعد أن روَّى فيه واحتفل، وجَمع خواطره واجتهد، وترك الرأى يَغبّ[2] حتى يختمر، فقد كرهوا الرأى الفطير[3]، كما كرهوا الجواب الدَّبرىّ[4]، فلا يزال فى نَسج الكلام واستتمامه، حتى إذا اطمأن شارده وسكن نافرُه، صَك به خَصْمه جملة واحدة، ثم إذا قيل له: أجبْ ولا تخطىء، وأسرع ولا تبطىء، تراه يجاوب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفاصل[5] ويَنفذُ إلى المقاتل، كما يَرمى الجندل بالجندل[6] ويُقرع الحديد بالحديد، فيحلّ به عراه وينقض به مرائره[7]، ويكون جوابه على كلامه كسحابة لَبدتْ عَجاجة[8]. فلا شىء أفضل من الجواب الحاضر،

---

(١) الفجاج: جمع فج، وهو الطريق.
(٢) من غب: بات.
(٣) الفطير: كل ما أعجل عن إدراكه.
(٤) الدبرى: رأى يسنح أخيراً عند فوت الحاجة.
(٥) طبق المفاصل: أصابها.
(٦) الجندل: مايقله الرجل من الحجارة.
(٧) المريرة: الحبل الشديد الفتل.
(٨) العجاج: الغبار.

ولا أعزّ من الخصم الألدّ ، الذى يقرَع صاحبه ، ويصرَع مُنازعه ، بقول كمثل النار فى الحطب الجزل[١] .

٢
جواب عقيل بن أبى طالب لمعاوية وأصحابه

لما قدم عقيل بن أبى طالب على معاوية أكرمه وقربه ، وقضى حوائجه ، وقضَى عنه دينه ، ثم قال له فى بعض الأيام : والله إن علياً غيرُ حافظ لك ؛ قطع قرابتك ، وما وصلك ولا اصْطنعك .

قال له عقيل : والله لقد أجزل العطية وأعظمها ، ووصل القرابة وحفظها ، وحسنَ ظنه بالله إذْ ساء به ظنك ، وحفظَ أمانته وأصلح رعيته ، إذ خنْتُم وأفسدتم وجُرْتم ، فاكفف لا أبا لك ، فإنه عما تقول بمعزل !

٣
الجواب القاطع

قال الحجاج لامرأة من الخوارج : والله لأعدنكم عدّاً ؛ ولأحصدُنكم حصْداً . قالت له : اللهُ يزرعُ وأنتَ تحصُدُ ، فأين قُدرَة المخلوق من الخالق ؟!

٤
محاوبة الأمراء والرد عليهم

مرّ عمر بن الخطاب بالصبيان يلعبون وفيهم عبدُالله بن الزبير ، ففروا ، وثبت ابنُ الزبير . فقال له عمر : كيف لم تفرّ مع أصحابك ؟ قال : لم أجترِمْ فأخافك ، ولم يكن بالطريق من ضيقٍ فأوسعَ لك !

---

(١) الجزل : ما عظم من الحطب ويبس .

٥
جواب فى هزل

١ ـــ كان للمغيرة بن عبد الله الثقفى ـــ وهو والى الكوفة ـــ جَدْىٌ يُوضَع على مائدته ، فحضره أعرابى ، فمد يَدَه إلى الجدى ، وجعل يُسرِع فيه . فقال له المغيرةُ : إنك لتأكل بحَرْد[1] ، كأن أمه نطحتك . قال : وإنك لمشفقٌ عليه كأن أمه أرضعتك .

٢ ـــ وقال رجلٌ من العرب : رأيتُ البارحةَ الجنةَ فى منامى ، فرأيتُ جميعَ ما فيها من القصور . فقلت : لمنْ هذه ! فقيل لى : للعرب . قال له رجلٌ من الموالى : أصعِدْت الغرفَ ؟ قال : لا . قال : تلك لنا !

٦
جواب فى فخر

فخر مولى لزياد بزياد عند معاوية ، فقال له معاوية : اسكتْ ، فوالله ما أدركَ صاحبك شيئًا بسيفه إلا أدركتُ أكثرَ منه بلسانى .

(١) حرد : غيظ .

كتاب الخطب

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى الأجوبة وتباين الناس فيها على قَدر عقولهم ، ومبلغ فطنتهم ، وحضور أذهانهم ، ونحن قائلونَ بعون الله وتوفيقه فى الخطب التى يُتخير لها الكلام ، وتفاخرت بها العربُ فى مَشاهدهم ، ونطقت بها الأئمة على منابرِهم ، وشُهرتْ بها فى مواسمهم ، وقامتْ بها على رءوس خلفائهم ، وتباهتْ بها فى أعيادهم ومساجدهم ، ووصلتها بصلواتهم ، وخوطب بها العوام ، واستُجزلت لها الألفاظُ ، وتُخيرت لها المعانى .

٢
خطبة العمر

خطب عمر فقال :

الحمد لله الذى أعزنا بالإسلام ، وأكرَمنا بالإيمان ، ورَحمنا بنبيه — صلى الله عليه وسلم — فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات[١] ، وألف بين قلوبنا ، ونَصرَنا على عدونا ، ومكنَ لنا فى البلاد ، وجعلنا به إخوانًا متحابين ؛ فاحمدوا الله على هذه النعمة ، واسألوه المزيد منها والشكرَ عليها ، فإن اللهَ قد صدقكم الوعد بالنصر على مَنْ خالفكم ، وإياكم والعملَ بالمعاصى ، وكفرَ النعمة . فقلما كفر قومٌ بنعمة ولم ينزعوا[٢] إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسُلّط عليهم عدوهم .

أيها الناسُ ، إن اللهَ قد أعز دعوةَ هذه الأمة وجَمعَ كلمتها ، وأظهر فَلجها[٣] ، ونصرَها وشرفها ، فاحمدوه عبادَ الله ، على نعمه ، واشكروه على آلائه ، جعلنا اللهُ وإياكم من الشاكرين .

---

(١) الشتات : التفرق .
(٢) يميلوا ويشتاقوا .
(٣) الفلج : الظفر .

٣
خطبة لعلى

وخطب على بن أبى طالب فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أوصيكم عبادَ الله ونَفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وتَرْك الأمل ؛ فإنه من فرطَ فى عمله لم ينتفعْ بشىء من أمله . أين التعِبُ بالليل والنهار ، والمقتحم للجج البحار ، ومَفاوز القفار ؟ يسيرُ من وراء الجبال وعَالج الرمال(١) ، يَصلُ الغدوّ بالرواح ، والمساء بالصباح ، فى طلب محقرات الأرباح ، هجمَتْ عليه منيته ، فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بُوراً ، وما اكتسب غُروراً . ووافى القيامةَ محسوراً .

أيها اللاهى الغارُّ بنفسه ؛ كأنى بك وقد أتاك رسولُ ربك ، لا يَقرَع لك باباً ، ولا يهابُ لك حجاباً ، ولا يقبلُ منك بديلا ، ولا يأخذُ منك كفيلا ، ولا يرحَمُ لك صغيراً ، ولا يوقر فيك كبيراً ، حتى يؤديكَ إلى قَعر مُظلمة ، أرجاؤُها موحشةٌ ؛ كفعله بالأمم الخالية ، والقرون الماضية ؛ أينَ مَنْ سَعى واجتهدَ ، وجمع وعدَّدَ ، وبنى وشيدَ ، وزخرفَ ونجد(٢) ، وبالقليل لم يَقنع ، وبالكثير لم يُمتع ؟ أينَ مَنْ قاد الجيوشَ ، ونشر البنود(٣) ؟ أضحَوْا رُفاتاً(٤) تحت الثرى أمواتاً ، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون .

عبادَ الله فاتقوا الله وراقبوه ؛ واعملوا لليوم الذى تُسيَّر فيه الجبال ، وتَشقَّق السماء بالغمام ؛ وتَطاير الكتب عن الأيمان والشمائل . فأى رجل يومئذ تُراك ؟ أقائل : هاؤم اقرءوا كتابيه ، أم يا ليتنى لمْ أوتَ كتابيه ؟ نسأل مَنْ وعَدَنا بإقامة الشرائع جنته ؛ أن يَقينا سخطه .

إنَّ أحسنَ الحديث وأبلغ الموعظة كتابُ الله الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حَميد .

---

(١) عالج الرمال : ماتراكم منها ودخل بعضه فى بعض .
(٢) نجد : زين . (٣) البنود : الأعلام والرايات .
(٤) الرفات : الحطام .

كتاب التوقيعات والفصول والصدور
وأدوات الكتابة وأخبار الكتاب

١
فرش الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى الخطب وفضائلها ، وذكر طوالها وقصارها ، ومقامات أهلها ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى التوقيعات والفصول والصدور ، وأدوات الكتابة ، وأخبار الكتاب ، وفَضْل الإيجاز ، إذ كان أشرفُ الكلام كلهُ حسناً ، وأرفعه قدراً ، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقله على اللسان عملا — ما دلّ بعضُه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشَهِد ظاهرُه على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه وتكثُرَ معانيه ، ومنه قولهم : رُب إشارة أبلغ من لفظ .

٢
ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم الشيبانى : أول ذلك حُسن الخط الذى هو لسانُ اليد ، وبَهجة الضمير ، وسَفير العقل ، ووَحيُ الفكرة ، وسلاح المعرفة ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومحادثتهم على بعد المسافة ، ومستودع السرّ ، وديوان الأمور .

٣
من صفات الكاتب

ولا يكون الكاتبُ كاتباً حتى لا يستطيع أحدٌ تأخيرَ أول كتابه وتقديم آخره ؛ وأفضلُ الكتّاب ما كان فى أول كتابته دليلٌ على حاجته ، كما أن أفضَل الأبيات

ما دل أولُ البيت على قافيته . فلا تطيلن صَدْرَ كتابكَ إطالةً تُخرجه عن حَدّه ، ولا تقصر به دون حده ، فإنهم قد كرهوا فى الجملة أن تزيدَ صدورُ كتب الملوك على سطرين أو ثلاثة أو ما قارب ذلك .

٤

ما يجوز فى الكتابة وما لا يجوز

قال إبراهيم الشيبانى : تحفَّظ فى صدور كتبك وفصولها وخواتمها ، وضعْ كل معنًى فى موضع يليقُ به ، وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها ، وليكنْ ما تختم به فصولك فى موضع ذكر البلوى بمثل : نسأل الله دفع المحذور ، وصَرْفَ المكروه ، وأشباه هذا . وفى موضع ذكر المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفى موضع النعمة : الحمد لله خالصًا والشكر لله واجبًا . فإن هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدها ويتحفظ فيها ، فإن الكاتب إنما يصيرُ كاتبًا بأن يَضع كل معنى فى موضعه ، ويعلق كل لفظة على طبقتها من المعنى .

واعلم أنه لا يجوز فى الرسائل استعمالُ مَا أتتْ بهِ آى القرآن من الاقتصار والحذف ، ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاصّ ، لأن اللهَ جل ثناؤه خاطب بالقرآن قومًا فُصَحاء فهموا عنه جل ثناؤه أمرَه ونَهيه ومرادَه . والرسائل إنما يخاطبُ بها أقوامٌ دُخلاء على اللغة ، لا علمَ لهم بلسان العرب .

وكذلك ينبغى للكاتب أن يجتنبَ اللفظ المشتركَ والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب يُكاتب على مثل معنى قول الله تعالى : « واسأل القريةَ التى كنا فيها والعيرَ التى أقبلنا فيها » ، وكقوله تعالى : « بل مَكرُ الليل والنهار » ، احتاج الكاتب أن يبين معناه : بل مكرُهم بالليل والنهار . ومثل هذا كثيرٌ لا يتسعُ الكتاب لذكره .

وكذلك لا يجوز أيضًا فى الرسائل والبلاغات المشهورة ما يجوز فى الأشعار الموزونة ، لأن الشاعرَ مضطر ، والشعر مقيد بالوزن والقوافى ، فلذلك أجازوا فيه

صَرفَ ما لا ينصرف من الأسماء ، وحَذفَ مالا يُحذَف منها، واغتفروا فيه سوء النظم ، وأجازوا فيه التقديمَ والتأخير ، والإضمار فى موضع الإظهار ، وذلك كله غيرُ مستساغ فى الرسائل ، ولا جائز فى البلاغات .

وكذلك لا ينبغى فى الرسائل أن يُصغر الاسم فى موضع التعظيم ، وإن كان ذلك جائزاً .

ومما لا يجوز فى الرسائل وكرهوه فى الكلام مثلُ قولهم : كلمتُ إياك ، وأعنى إياك ، وهو جائزٌ فى الشعر .

فتخير من الألفاظ أرجحَها لفظًا ، وأجزَلها معنى ، وأشرفها جوهراً ، وأكرمها حَسبًا ، وأليقَها فى مكانها ، وأشكلها فى موضعها ، فإن حاولتَ صَنعةَ رسالة فَزن اللفظة قبل أن تُخرجها بميزان التصريف إذا عَرَضت ، وعاير الكلمة بمعيارها إذا سَنحت ، فإنه ربما مرّ بلك موضعٌ يكون مخرج الكلام إذا كتبتَ : أنا فاعل ، أحسن من أن تكتب : أنا أفعل . فأدر الكلامَ على أماكنه ، وقلبه على جميع وجُوهه ، فأى لفظة رأيتَها أخفّ فى المكانَ الذى ندبتَها إليه ، وأنزِعَ إلى الموضع الذى رَاوَدتهَا عليه فأوقعها فيه ، ولا تجعل اللفظة قَلقة فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فإنك متى فعلتَ هجنتَ الموضعَ الذى حاولْتَ تحسينه ، وأفسدتَ المكانَ الذى أرَدتَ إصلاحه ، فإن وَضع الألفاظ فى غير أماكنها ، وقَصْدك بها إلى غير مصَابها ، إنما هو كترقيع الثوب الذى لم تتشابه رقاعه ، ولم تتقاربْ أجزاؤه ، فخرج من حد الجِدة ، وتغير حُسنه ، كما قال الشاعر :

إن الجديدَ إذا ما زيدَ فى خلق   تبينَ الناس أن الثّوب مرقوعُ

وكذلك كلما احلوْ لى الكلام وَعذب وراق ، وسهلتْ مخارجه ، كانَ أسهلَ ولوجاً فى الأسماع ، وأشد اتصالاً بالقلوب ، وأخف على الأفواه ، لا سيما إذا كان المعنى البديعُ مترجمًا بلفظ مونق شريف ، ومُعايراً بكلام عذب لم يَسِمه التكليفُ بميسمه ، ولم يُفسده التعقيدُ باستغلاقه .

٥
قولهم فى الأقلام

١ — قال حبيب بن أوس فى القلم :

لك القلمُ الأعلى الذى بشباته ... يُصاب من الأمر الكُلى والمفاصل (١)
لعابُ الأفاعى القاتلات لعابه ... وأرْىُ الجنى اشتارته أيد عواسل (٢)
له ريقةٌ طَلٌ ولكن وقعها ... بآثاره فى الشرق والغرب وابلُ
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكبٌ ... وأعجمُ إن خاطبتهُ وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكرِ وهىَ حوافل
أطاعته أطرافُ القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل (٣)
إذا استغزرَ الذهنَ الجلى وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رَفدتَهُ الخنصران وسددَتْ ... ثَلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامل (٤)
رأيتَ جليلاً شأنه وهو مُرْهَفٌ ... ضَنًى وسميناً خَطبه وهو ناحل

٢ — ولعبد الله بن المعتز كلامٌ يصف به القلم : القلم يخدم الإرادة ؛ ولا يمَل الاستزادة ، يَسكتُ واقفًا ، وينطق ساكتاً ؛ على أرض بياضها مُظلم ؛ وسَوادُها مضىء .

٦
من توقيعات الخلفاء

عمر بن الخطاب :

وقع إلى عمرو بن العاص : كنْ لرَعيتك كما تُحبّ أنْ يكونَ لك أميرك .

---

(١) شباته : حده وسنانه .
(٢) الأرى : عسل النحل . اشتار العسل : استخرجه .
(٣) الجحافل : جمع جحفل ، الجيش . (٤) رفدته : أعانته .

عثمان بن عفان :

وقع فى قصة رجل شكا عيلة[1] : قد أمرْنا لك بما يـُقيمك ؛ وليس فى مال الله فـَضْلٌ للمسرف .

على بن أبى طالب :

وقع إلى طلحة بن عبيد الله : فى بيته يؤتى الحكَم .

ووقع فى كتاب جاءه من الحسن بن على : رَأى الشيخ خير من مـَشهد الغلام .

عبد الملك بن مروان :

كتب إليه الحجاجُ يخبرُه بسوء طاعة أهل العراق وما يـُقاسى منهم ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم ؛ فوقع له : إن من ْ يُمن السائس أن يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون .

الرشيد :

وقع إلى صاحب خراسان : داو جـُرْحك لا يتسع .

ووقع فى قصة رجل من البرامكة : أنبتته الطاعة ، وحصدته المعصية .

المأمون :

وقع إلى على بن هشام فى أمر تظلم فيه منه : من علامة الشريف أن يظلم مـَنْ فوقه ويظلمه مـَنْ دونه . فأى الرجلين أنت ؟ !

---

(١) العيلة : الفاقة .

الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومخارجه

١
فرش الكتاب

قال الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله : نحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ؛ إذ كان الشعرُ ديوان العرب خاصة ، والمنظومَ من كلامها ، والمقيدَ لأيامها ، والشاهد على أحكامها .

٢
اختلاف الناس فى أشعر الشعراء

١ ــ قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وذُكر عنده امرؤ القيس بن حُجر : هو قائد الشعراء وصاحبُ لوائهم .

٢ ــ وقال عمر بن الخطاب للوَفد الذين قدموا عليه من غَطفان : مَن الذى يقول :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهَبُ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : فمن الذى يقول هذا الشعر :

أتيتك عَاريًا خَلَقًا ثيابى عَلى وَجَل تُظن بى الظنون (١)
فألفيتُ الأمانةَ لم تخنهـا كذلك كان نوح لا يخُون

قالوا : هو النابغة . قال : هو أشعَرُ شعرائكم .

وما أحسب عُمرَ ذهب إلاّ إلى أنه أشعر شُعراء غَطفان . ويدلك على ذلك قوله : هو أشعر شعرائكم .

---

(١) وجل : خوف .

٣ — وقد قال عمر لابن عباس : أنشدنى لأشعر الناس الذى لا يُعاظل[١] بين القوافى ، ولا يتتبع حُوشىَّ الكلام[٢] ، قال : مَنْ ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زُهير بن أبى سُلمى . فلم يزل ينشده من شعره حتى أصبحَ .

٤ — وقيل للبيد : من أشعر الناس ؟ قال : صاحب القروح — يريد امرأ القيس — قيل له : فبعده مَنْ ؟ قال : ابن العشرين — يعنى طَرَفة — قيل له : فبعده مَنْ ؟ قال : أنا .

٥ — وقيل للحطيئة : مَنْ أشعرُ الناس ؟ قال : النابغة إذا رَهب ، وزُهير إذا رَغب ، وجرير إذا غَضب .

وقال أبو عمرو بن العلاء : طَرَفة أشعرُهم واحدة — يعنى قصيدته :

* لخوْلةَ أطلال ببرقَة ثَهمد *

وفيها يقول :

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزود

٦ — وسمع عبد الله بن عمر رجلا ينشد بيتَ الحطيئة :

متى تَأته تَعشو إلى ضوء ناره ... تَجدْ خيرَ نار عندها خير موقد[٣]

فقال : ذاك رسولُ الله ؛ إعجابًا بالبيت — يعنى أن مثل هذا المدح لا يستحقه إلا رسول الله .

٧ — وسئل الأصمعى عن شعْر النابغة فقال : إن قُلتَ ألينُ من الحرير صدقت ، وإن قلتَ أشدّ من الحديد صدقت .

٨ — وسئل حَماد الراوية عن شعر ابن أبى ربيعة فقال : ذلك الفستق المقشّر الذى لا يُشبع منه .

* * *

٩ — واختلف الناس فى أشعر نصف بيت قالته العرب ؛ فقال بعضهم قول أبى ذؤَيب الهذَلى :

---

(١) لايعاظم فى الكلام : لا يحمل بعضه على بعض . ولا يكرر اللفظ والمعنى .
(٢) حوشى الكلام : وحشيه وغريبه .
(٣) تعشو : تقصد .

* والدهرُ ليس بمُعْتِب(١) من يَجزعُ *

وقال بعضهم : قولُ حميد بن ثور الهلالى :

* نُوكل بالأدنَى وإنْ جَلّ ما يَمضى *

وقال بعضهم: قول زُميل(٢) :

* وَمَنْ يَكُ رَهنًا للحوادث يَغلق(٣) *

* * *

١٠ — وقد قالوا : إن لحسانَ بن ثابت أفخرَ بيت قالته العرب ، وأحكَم بيت قالته العرب . فأما أفخر بيت قالته العرب فقوله :

وبيوم بَدر إذ يَردُّ وجوهَهم   جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

وأما أحكم بيت قالته العرب فقوله :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالمًا   من الناس إلاّ ما جَنى لسعيدُ

* * *

١١ — ويقال : إن أبدعَ بيت قالته العرب قول أبى ذُؤيب الهذلى :

والنفس راغبةٌ إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

ويقال : إن أصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

٣

فضائل الشعر

من الدليل على عظم قدر الشعر عند العرب ، وجليل خطبه(٤) فى قلوبهم أنه لما بعث النبى — صلى الله عليه وسلم — بالقرآن المعجز نَظمه ، المحكم تأليفه ،

(١) معتب : راجع عما تكره إلى ماتحب .
(٢) هو زميل ابن أبير الغزارى .
(٣) غلق الرهن : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفك فى الوقت المشروط .
(٤) الخطب : الشأن .

وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا : ما هذا إلا سحر . وقالوا فى النبى : شاعرٌ نتربصُ به رَيبَ المنون . وكذلك قال النبى فى عمرو بن الأهتم لما أعجبه كلامه : إن من البيان لسحراً .

وقال النبى : إن من الشعر لحكُمة .

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : روِّهم الشعرَ يمجدوا وينجدوا[١]

وقالت عائشةُ : رووا أولادكم الشعرَ تـَعذُبْ ألسنتهم .

وبعث زياد بولده إلى معاوية فكاشفه عن فنون العلم ، فوجده عالمًا بكل ما سأله عنه ، ثم استنشده الشعر فقال : لم أرْو منه شيئًا . فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إنْ كان العاقُّ ليرويه فيبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم جند يجنده رسول الله على المشركين ، يدل على ذلك قوله لحسان : شنّ الغطاريف[٢] على بنى عبد مناف ؛ فوالله لشعرُك أشد عليهم من وقع السهام فى غـَلس الظلام . وتحفظ بيتى فيهم .

قال : والذى بعثك بالحق نبيـًا لأسلنك منهم سـَلّ الشعرة من العجين ! ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة[٣] أنفه ، وقال : والله يا رسولَ الله إنه ليخيل إلى أنى لو وضعته على حـَجر لفلقه ، أو شـَعر لحلقه . فقال النبى : أيدَ الله حسانـًا فى هجوه بروح القدس .

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير :

فإن الحق مـَقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جـِلاء[٤]

فجعل يعجب بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها ، وإنما أراد : مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو بينة .

---

(١) نجد : صار شجاعا يمضى فيما يعجز عنه غيره .
(٢) الغطريف : السيد الشريف ، وجمعه غطاريف . يريد قصائده .
(٣) الأرنبة : طرف الأنف .
(٤) النفار : أن يتنافروا إلى الحاكم ، الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلى .

وأنشد عمر قول عَبْدة بن الطبيب :

* والعيش شح وإشفاقٌ وتأميل *

فقال : على هذا بنيت الدنيا .

٤
من رفعه المدح ووضعه الهجاء

١ ــ قال بلال بن جرير : سألت أبي جريراً فقلت له : إنك لم تَهج قوماً قط إلا وضعتهم غير بنى لجأ ؟ قال : يا بنى ، إنى لم أجدْ شرفاً فأضعَه ، ولا بناءً فأهدمه .

٢ ــ وقد يكونُ الشيء مَدْحاً فيجعله الشعر ذمًّا ، ويكون ذمًّا فيجعله الشعر مدحاً . قال حبيب الطائى فى هذا المعنى :

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درى بُغاة الندى من أين تُؤتى المكارمُ
تُرى حكمةً ما فيــه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالمُ

ألا تَرى إلى بنى عبد المدان الحارثيين كانوا يفخرونَ بطول أجسامهم وقديم شرفهم ، حتى قال فيهم حسان بن ثابت :

لا بأسَ بالقوم من طول ومن غِلَظ جسمُ البغال وأحــلامُ العصافير

فقالوا له : والله يا أبا الوليد ، لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نَفخرُ بها . فقال لهم : سأصْلحُ منكم ما أفسدت ! فقال فيهم :

وقد كنــا نقولُ إذا رأينــا لذى جسم يُعد وذى بيان
كأنك أيهــا المعطى لسانًا وجسما من بنى عبد المدان

٣ ــ وكان بنو حَنظلةَ بن قُريع بن عوف بن كعب يقال لهم : بنو أنف الناقة ، يُسبون بهذا الاسم فى الجاهلية ، وسبب ذلك أن أباهم نَحرَ جَزوراً وقسم اللحم ، فجاء حنظلة ، وقد فرغ اللحم وبقى الرأس ، وكان صبيًّا ، فجعل يجره ،

فقيل له : ما هذا ؟ فقال : أنف الناقة . فلقب به ، وكانوا يغضبون منه ، حتى قال فيهم الحطيئة :

قومٌ همُ الأنف والأذناب غيرهم ومَن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فعاد هذا الاسم فخراً لهم وشرفاً فيهم .

٤ — وكان بنو نمير أشرافَ قَيس وذوائبها ، حتى قال جرير فيهم :

فغضّ الطرْف إنك منْ نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فما بقى نميرىّ إلاّ طأطأ رأسه .

٥

باب ما أدرك على الشعراء

١ — أدركت العلماء بالشعر على امرئ القيس قوله :

أغركِ منى أن حبــك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

وقالوا : إذ لم يَغرّ هذا فما الذى يغر ؟ ومعناه فى البيت يناقض البيت الذى قبله حيث يقول :

وإنْ كنتِ قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تَنسُل(١)

لأنه ادعى فى هذا البيت فَضْلاً للتجلد وقوةً للصبر ، بقوله :

* فسلى ثيابى من ثيابك تَنسل *

وزعم فى البيت الثانى أنه لا تحملَ فيه للصبر ، ولا قوة على التمالك ، بقوله :

* وأنك مهما تأمرى القلب يفعل *

٢ — ومما أخذ على النابغة :

خطاطيف حُجنٌ فى حبال متينة تُمــد بها أيد إليك نوازع

فشبه نفسه بالدلو ، وشبه النعمان بخطاطيف حُجن ، يريد خطاطيف معوجة تُمــد بها الدلو .

---

(١) تنسل : تسقط ، ويعنى بالثياب : القلب .

٣ — ومما أدرك على نصيب بن رباح قوله :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمتْ   فواكبدى من ذايهيم بها بعدى

تلهف على من يهيم بها بعده !

٤ — ومما أدرك على جرير قوله فى رهط الأخطل :

هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفة   لو شئتُ ساقكُم إلىَّ قَطينَا

القطين فى هذا الموضع : العبيد والإماء . وقيل له : أبا حَزرة ، ما وجدت فى تميم شيئًا تفخرُ به عليهم حتى فخرْت بالخلافة ؟ قال : لا والله ما صنعت فى هجائهم شيئًا !

٥ — ومما أدرك على الأخطل قوله فى عبد الملك بن مروان :

وقد جعلَ الله الخلافة منهم   لأبيضِ لاعارِى الخوان ولاجدْب

وهذا مما لا يُمدح به خليفة .

٦ — وأنشد بشار قول كثير عزّة :

ألا إنما ليلى عصا خيزُرانة   إذا غمَزوها بالأكف تلينُ

فقال : لله أبو صخر ! جعلها خيزُرانة ؛ فوالله لو جعلها عصا زُبد لهجَّنها بالعصا ، ألا قال كما قلت :

وبَيضاء المحاجر من مَعد   كأنّ حديثها قطعُ الجمان[١]

إذا قامتْ لحاجتها تثنّتْ   كأن عظامها من خَيزُرَان

* * *

٧ — قال عمارة بن عَقيل بن بلال بن جرير : إنى بباب المأمون إذ خرج عبد الله بن أبى السمط فقال لى : علمت أن أمير المؤمنين على كماله لا يَعْرفُ الشعر . قلت له : وبمَ علمتَ ذلك ؟ قال : أسمعتُه الساعةَ بيتًا لو شاطرنى مُلكَه عليه لكان قليلا ! فنظر إلى نظراً شَزْراً[٢] كادَ يصطلمنى[٣] .

---

(١) الجمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة ، وجمعها جمان .

(٢) نظر إليه شزراً ، وهو نظر الغضبان بمؤخر عينه .

(٣) الاصطلام : الاستئصال .

قلت له : وما البيت ؟ فأنشد :

أضْحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

قلت له : والله لقد حـلم عليك إذ لم يؤدبك عليه . ويلك ! وإذا لم يشتغل هو بالدنيا فمن يدبر أمرها ؟ ألا قُلتَ كما قال جـدّى فى عبد العزيز بن مروان :

فلا هو فى الدنيا مُضيعٌ نصيبه ولا عـرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

فقال : الآن علمتُ أنى أخطأتُ .

٦
باب من مقاطع الشعر ومخارجه

قال إبراهيم الشيبانى : قد تكونُ الكلمةُ — إذا كانتْ مفردةً — حوشية بـَشعة ، حتى إذا وضعتْ فى موضعها وقُرنتْ مع أخواتها حـَسنتْ ، كقول الحسن بن هانىء :

* ذُو حـَصرَ أفلتَ من كـَرّ القـُبـَل *

والكرّ كلمةٌ خسيسةٌ ، ولا سيما فى الغزل والنسيب ، غير أنها لما وضعتْ فى موضعها حسنتْ .

وكذلك الكلمة الرقيقة العذْبة ، ربما قـَبحتْ ونفرَتْ إذا لم توضع فى موضعها ، مثل قول الشاعر :

رأتْ رائحًا جوْنًا فقامتْ غريرةً بمسحاتها جُنحَ الظلام تبادرهُ(١)

فأوقع الجافى الجلف هذه اللفظة غير موضعها ، وبخسها حقها حين جـَعلها فى غير مكانها حقًّا ، لأن المساحى لا تـَصْلح للغرائر .

واعلم أنه لا يـَصلح لك شىءٌ من المنثور والمنظوم إلا أن يُجرى منه على عرْق ، وأن يتمسكَ منه بسبب ، فأما إن كان غيرَ مناسب لطبيعتك ، وغير ملائم لقريحتك فلا تنض(٢) مطيتك فى التماسه ، ولا تتعبْ نـَفسك فى ابتغائه باستعارتك

(١) الجون الأبيض والأسود . المسحاة : كالمجرفة الا أنها من حديد .
(٢) أنضى بعيره : هزله .

ألفاظ الناس وكلامهم ؛ فإن ذلك غير مُثمر لك ، ولا مجد عليك ، ما لم تكن الصناعة ممازجةً لذهنك وملتحمة بطبعك .

واعلمْ أن مَنْ كان مرجعه اغتصابَ نظمِ مَن تَقدمه ، واستضاءتَه بكوكب مَنْ سبقه ، وسَحْبَ ذَيل حلة غيره ، ولم تكنْ معه أداةٌ تولد له — من بنات ذهنه ونتائج فكره — الكلامَ الجزْل ، والمعنى الحَفل ، لم يكن من الصناعة فى عِير ولا نَفير ، ولا وِرْد ولا صَدَر .

على أنّ سَماعَ كلام الفصحاء المطبوعين ، ودرْس وسائل المتقدمين ، هو على كل حال مما يَفتق اللسانَ ، ويقوى البيان ، ويحد الذهنَ ، ويَشحذ الطبعَ ، إن كانتْ فيه بقية ، وهناك خَبِيَة .

واعلم أن العلماء شبهت المعانى بالأرواح والألفاظَ بالأجساد ، فإذا كتبَ الكاتبُ البليغ المعنى الجزْلَ ، وكساه لفظًا حسنًا ، وأعاره مخرجًا سَهلاً ، ومنحه دَلا مونقًا ، كان فى القلب أحلى ، وللصدر أملى ، ولكنه بقى عليه أن يؤلفه مع شقائقه وقرنائه ، ويجمعَ بينه وبين أشباهه ونظائره ، ونَظمه فى سلكه ، كالجوهر المنثور الذى إذا تولى نَظمه الناظم الحاذق ، وتعاطى تأليفه الجوهرىُّ العالم ، أظهرَ له بإحكام الصنعة ولطيف الحكمة ، حسنًا هو فيه ، وكساه ومَنحه بَهجةً هى له .

وكذلك كلما احلوْلى الكلام ، وعَذُبَ وراق ، وسهلتْ مخارجه كان أسهلَ وُلوجًا فى الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب ، وأخف على الأفواه ، لا سيما إذا كان المعنى البديع مترجمًا بلفظ مونق شريف ، لم يَسمه التكلف بميسمه ، ولم يفسده التعقيد باستهلاكه ، كقول ابن أبى كريمة :

قَفاه وجهٌ والذى وَجهه مثل قفاه يشبه الشمسا

فهجنَ المعنى بتعقيد مخارج الألفاظ :

وأخذه الحسن بن هانئ فأوضحه وسَهله حيث قال :

بأبي أنتَ مِن غــزال غَـرِير   بزّ حسنَ الوجوه حسنُ قَفاكا

وكلاهما أخذه من حسان بن ثابت حيث يقول :

قفاؤك أحسن من وَجهه   وأمك خيرٌ من المنـــذر

كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح

١
فرش الكتاب

قال الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله :

نحن قائلون بما ألفناه فى كتابنا هذا من الفكاهات والملح التى هى نُزْهة النفس وربيعُ القلب ، ومرتَعُ السمع ، ومَجْلب الراحة ، ومَعدن السرور .

٢
من فكاهات أشعب

١ — ساوَم أشعبُ رجلاً بقوس ، فقال له : أقلّ ثمنِها دينار . قال أشعب : والله لو أنك إذا رميتَ بها طائراً فى جَو السماء فوقع مشويا بين رغيفين ما اشتريتها منك بدينار أبداً .

٢ — وضرب الحجاجُ أعرابيًّا سَبعمائة سَوط ، وهو يقولُ عند كل سوط : شُكراً لك يا رَب . فلقيه أشعب فقال : أتَدرى لمَ ضربك الحجاج سَبعمائة سوط ؟ قال : ما أدرى . قال : لكثرة شكرك لله . يقول الله : لئن شَكرتم لأزيدنّكم . فقال الأعرابى :

يا ربّ لا شُكراً فلا تَزدْنى أسأتُ فى شكرك فاعفُ عنى

باعدْ ثوابَ الشاكرين منى

٣ — طلب رجل من أشعب أن يُسلفه ويؤخرَه . فقال : هاتان حاجتان ، فإذا قضيتُ لك إحداهما فقد أنصَفتُ . قال له الرجل : رضيت . قال : فأنا أؤَخرك ما شئت ولا أسلفك .

٤ ــ ومرّ أشعب برجل نجار يعمل طبقًا فقال له : زدْ فيه طوقًا واحداً تتفضل به علىّ . قال : وما يدخل عليك من ذلك ؟ قال : لعل يومًا يُهدَى الىّ فيه شىء !

٣
بخيل

٥ ــ وكان شيخ من البخلاء يأتى إلى ابن المقفع ، فألحَّ عليه يسأله الغذاء عنده ، وفى كل يوم يقول له : أترى أنك ترانى أتكلف لك شيئًا ؟ لا ، والله ، لا أقدم لك إلا ما عندى ، فأجابه يوماً . فلما أتاه إذا ليس عنده ولا فى منزله إلا كسرةٌ يابسةٌ وملح جريش (١) . ووقف سائلٌ بالباب ، فقال له : بورك فيك ! فألح عليه فى السؤال ، فقال له : لئن خرجتُ إليك لأدقنّ ساقيك ؛ فقال ابن المقفع للسائل : إنك والله لو علمتَ من صدق وعيده ما علمتُ من صدْق وَعده لم ترادّه كلمة ، ولا وقفتَ طَرْفة عين .

(١) جرش الشىء : لم ينعم دقه .

محتويات الكتاب

أولا – فهرس الكتب

ثانياً – فهرس الموضوعات

١ – كتاب الحيوان

صفحة

صفحة

٢ ـ كتاب البيان والتبيين

صفحة

٣ ـ طبقات الشعراء لابن سلام

٤ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة

صفحة

٥ ــ طبقات الشعراء لابن المعتز

٦ ــ كتاب الكامل

صفحة

٧ ـ كتاب العقد الفريد

كتاب الحروب

كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد

كتاب الجمانة فى الوفود

كتاب الياقوتة فى الأدب والعلم

كتاب الجوهرة فى الأمثال

صفحة

كتاب الدرة فى النوادب والتعازى والمراثى

كتاب كلام الأعراب

كتاب المجنبة فى الأجوبة

كتاب الخطب

كتاب التوقيعات والفصول والصدور وأدوات الكتابة وأخبار الكتاب

حسن يوسف الكرونشي

الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومخارجه

صفحة

كتاب اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٠/٣٩٣١

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠